رواية

أبناء مفيستو

محمد المخزنجي
ابراهيم حلمي

بورصة الأدب

المجموعة الدولية

إهـــداء

لم يسبق لشيطان أن تمنى أن يكون إنسانًا ...
لكن هناك الكثير من البشر أصبحوا شياطين!.

محمد المخزنجي / إبراهيم حلمي

ما مدى الفضول والرغبة في كتابة كتاب قد يحوي
بعض تفاصيل حياتنا ...
تفاصيل لم نعلم أو نؤمن بوجودها أو مدى تأثيرها،
بل لا ندري إن كانت حقيقة أم لا
هي فقط تشبهنا ..
تشبهنا أحيانًا إلى حد مخيف.

مفيستو

الفصل الأول
العقار

شعر امرأة لا يميز ملامحها يغطي وجهه، يسمع صوت تنهيداتها مع أنفاسٍ ساخنة تلفح بشرته، تتمايل فوق جسده بشهوة مجنونة، كانت آخر ما يتذكر رؤيته قبل أن يرى بنظرات مشوشة نصف غائبة ذلك الحجر الذي صدم رأسه دون أن يميز ملامح من فعلها؛ ليفقده وعيه فترة لا يعلم مداها...

فتح عينيه بعد وقت، لا يرى شيئًا، ظلامٌ دامس يحيطه، لا يستطيع تمييز شيء، ظن أنه لم يفق بعد، لكن حتى بعد لحظاتٍ لم يكن قادرًا على رؤية شيء إلا السواد، يشعر بصداعٍ شديد يضرب أرجاء رأسه كزلزال في أقصى درجاته، ولا يسمع إلا صوت أنفاسه، وصوت هسيس الحشرات وكائنات تزحف بجانبه، حاول أن يتلفت ويتحرك، لكنه شعر بأنه مقيد، لا يملك حرية الحركة، جنّ جنونه مما هو فيه، لا يعرف كيف يتخلص من هذا الوضع الغريب، تحرك محاولًا التخلص من ذلك الشيء الذي يقيد جسده قبل أن يفقد القدرة على التنفس تمامًا، فالجو مقبضٌ خانق، ظلام مريع، لا يمكنه خلاله إلا الشعور بشيء يغطيه تمامًا، بدأ يرفس برجليه ويمد يديه حتى استطاع تحرير نفسه قليلًا، لكن راعه أن الظلام لم ينتهِ، حاول

أن يتلمس ما حوله فكان أول ما لمسته يداه جبهته التي تحسسها لكنه لم يجد دماء أو أثرًا لإصابة كما ظن مما رآه قبل أن يغيب عن وعيه ويتذكره.

الرؤية منعدمة تمامًا، ومع تحرك يده أحس بشيء يحتجزه، جسده محتجز داخل شيء كما شعر وأدرك، ازداد خوفه ورعبه، وبدأ يفقد أعصابه، مع حركة يديه ورجليه المستمرة أحس بأن شيئًا ما ينفتح، فاستمر بدفعه حتى شعر بهواء رطب يحمل رائحة عفنة تزكمه، لكنه ما زال لا يرى شيئًا وأصوات الحشرات وذلك الزحف يقترب منه، وعندما لمست يداه الأرض أحس بشيء لزج كملمس الدماء جعله يصرخ كالمجنون، استمر في الدفع برجليه ونبش ما فوقه بيديه حتى شعر بطبقة من التراب تنهمر على وجهه الذي يغطيه القماش، نهض واقفًا ينفض عن نفسه التراب، أرعبته فكرة معرفة المكان الذي كان فيه، وما هذا الشيء الذي يلفّ جسده! حرر نفسه من القماش الذي كان مربوطًا من ناحية رأسه.

لم يستوعب الأمر ولا يعرف أين هو، المكان مظلمٌ جدًا، مقفر لا أثر للحياة فيه، بلا أيّ إحساسٍ بالزمان أو المكان بدأ يتحسس طريقه، على بعد أمتارٍ منه لمح رجلًا يمر ويحمل بيده قنديلًا وضعه على أحد الحواف ليرى جيدًا قبل أن ينطلق صارخًا بفزع"الأموات ينهضون.. الأموات ينهضون».

أدرك وقتها بعد أن نظر حوله أنه كان في مقبرة، وربما ذلك

الرجل هو حارسها، بإعياءٍ حاول الوصول إلى ذلك القنديل المعلق ليهتدي ببعض النور، جسده يرتجف بردًا ورعبًا، ورأسه مثقلٌ بالأوجاع وجسده يكاد يهوي ويسقط لولا أنه أراد النجاة، وصل لمكان القنديل، أمسكه واستطلع المكان، إنه مقفرٌ تمامًا وحتى لا يصلح أن يكون مثوىً للأموات، تنتشر على الأرض بعض الأشلاء والجماجم والعظام، حيوانات نافقة ودماء ما زالت رطبة، قلبه ينبض بسرعة، عيناه زائغتا البصر، ورأسه يدور في دواماتٍ مجهولةٍ لا نهائية، والبرد يلسع جسده مثل سياطٍ ناعمةٍ حادة، ورغم هذا يغزوه العرق كأنه في نوبةٍ حمّى شديدة الوطأة.

خلال لحظات وجد نفسه خارج ذلك المكان المرعب، يجر جسده بوهن، كيف وصل إلى هناك، لا يدري ولا يتذكر، حتى أنه خشي أن يواجه نفسه بسؤالٍ يرعبه عدم معرفة إجابته"من أنا؟"أجّل تلك التساؤلات حتى يجد مكانًا آمنًا، قطع عدة شوارع مقفرة حتى وصل لمكانٍ فيه بعض العمران، تلفت يمينًا ويسارًا في الشارع الذي وجد نفسه فيه، غريبٌ جدًا، هل الوقت متأخر لهذه الدرجة حتى لا يرى أي مخلوقٍ في الطريق يستند عليه ويطلب منه العون!

مشى يتوكأ على الجدران على جوانب الأرصفة، يتلفت خلفه وعلى جانبه بين الفينة والأخرى، خوفًا وأملًا، حتى اهتدى من بعيد لمشهدٍ أنعش قلبه، مقهى مفتوح أضواءه منارة، بذل جهدًا للإسراع حتى يصل إليه، رغم الدوخة التي تعصف برأسه.

وما إن وصل للمقهى الذي تصطف خارجه بعض الطاولات، ألقى بجسده على أول كرسيّ قابله، بالقرب من طاولةٍ يجلس عليها رجلٌ عجوز مهيب الطلة، تستقر بجانبه عصا ذات رأسٍ فضية غريبة الشكل، نظر للعجوز نظرة استجداء طالبًا للمساعدة بصوتٍ واهن:

- ساعدني أرجوك، أشعر أنني أموت، لا أعرف ماذا يحدث لي...

هبّ الرجل لمساعدته على الفور، رغم كبر سنه إلا أنه في لحظةٍ خاطفة كان بجانبه يسنده بكلتا يديه...

- هل أذهب بك إلى البيت أم إلى المستشفى؟

سؤال مباغت من العجوز لم يعرف الشاب إجابةً له، عن أيّ بيتٍ يتحدث، فهو لا يتذكر بيته.

لم يعرف الشاب بم يجيب، ماذا سيعتقد العجوز؟ فلم يجب بشيء، بل هوى مُسلّمًا نفسه للاوعي...

عاري الصدر على سرير يتوسط الغرفة، الظلام يغلف المكان، يشعر بامرأة تعلوه غير واضحة الملامح، تتمايل بعنفٍ للأمام والوراء، الرؤية مشوشة بالنسبة له، يشعر بارتعاش جسده وهو ممدد اليدين في وضع الصلب تمامًا لكنه نائم، العرق يتصبب من وجهه كأن هناك من يعتصره بقوة ويذهب بعقله إلى عالم آخر، بل الأدق قولًا أنه كان كمن يمر بحلم أو بقايا ذكريات، فتقلبه في السرير الذي يحتل مساحته وحده، وصوته والعرق الذي يغرق صدره والرجفة المتكررة التي يصدرها جسده ما بين لحظة وأخرى تدل على تلك المرحلة،

كانت رجفته الأخيرة مصحوبة بصرخة لينتهي الأمر ويدخل في مرحلة الاستيقاظ.

نهض جالسًا على سريره كما اعتاد بعد أن يرى ذلك الحلم منذ أن جاء لهذا العقار كما يذكر منذ ثلاثة أيام، ومن وقتها لازمه الإرهاق والتفكير المفرط، بل تحديدًا منذ وجد نفسه تائها واقتاده الرجل العجوز إلى هذه الشقة.

مسح عرقه بملاءة الفراش وهزّ رأسه كأنه ينفض سيلًا من الأسئلة التي تداهم عقله مع تلك الأحلام المشوشة التي تنتهي كل مرة بأن تصدمه تلك الفتاة بشيء صلب فيستيقظ.

لا يتذكر أنه رأى العجوز سوى مرة واحدة بعد تلك الليلة عندما قادته قدماه التائهتين لتلك المنطقة...

ويذكر بأنه جلس معه في المقهى المواجه للعقار في تلك الليلة الممطرة الغريبة، ليجد نفسه في الصباح في هذه الشقة، زاره الرجل العجوز الذي عرفه بأنه صاحب العقار، لا يعرف كيف جعله يوقع العقد سريعًا دون التمعن في بنوده، ولا يتذكر من أين له ذلك المال الذي كان في جيبه وقتها، لكنه اقتنع أن ذلك من حسن حظه، فآخر ما يرغب به شخصٌ ضائع لا يتذكر شيئًا عن نفسه أن يبيت في العراء في ليلة باردة.

مرت بخاطره ابتسامة العجوز، نهض تاركًا فراشه ونظر إلى ساعة الحائط أمامه بجانب الباب والتي كانت تشير للساعة الثالثة إلا بضع

دقائق من بعد منتصف الليل، شرد قليلًا مع عقرب الثواني بلونه الفسفوري المضيء في الظلام، اعتصر عقله في تلك اللحظات، محاولًا تذكر أي شيء عما قبل مقابلته لصاحب العقار، لكنه جاهد في شروده دون أن يتذكر شيئًا، مع علمه أنه كان يرى ذلك الحلم من قبل قدومه إلى هنا، يتذكر ذلك جيدًا كما يتذكر رحيل صاحب العقار سريعًا بعد ابتسامته مع وعدٍ بالقدوم إليه لإعطائه نسخة إضافية من مفاتيح الشقة.

لم تكن تلك الكوابيس التي يراها، أو عدم قدرته على تذكر ماضيه الأسباب الوحيدة التي تجعله سارحًا شاردًا، بل انتظاره الساعة الثالثة؛ فمنذ قدومه وهو يتساءل عن الأصوات في الشقة التي تعلو شقته في ذلك الوقت بالتحديد، في اليومين السابقين لم ينزل من شقته، النوم كان يغلبه والتعب ينهشه معظم الوقت كما يتذكر، كان يصحو ويشرب ثم يشعر بالتعب وينام، وقبل الثالثة بدقائق يصحو على ذات الحلم ثم في الثالثة تنطلق الأصوات والصرخات.

انتفض جسده فجأة عند تلك اللحظة؛ ليتوقف سيل الهواجس والأفكار المتدفق، مع الدقات الثلاث لتمام الساعة الثالثة والتي جعلت قلبه يرتجف، انطلقت صرخة مدوية ميّزَ أنها لامرأة تنازع الموت، كان صدى الصرخة أقوى هذه الليلة، تبعته أصوات وقوع أشياء ثقيلة بقوة على سقف غرفته وكأنّ هناك من يحاول الهرب، كل تلك الضجة كانت من الغرفة التي تعلو غرفته، ثم تبعه صوت

حشرجة قوي كأنه صادر من غرفته، ظل واقفًا يستمع للصوت يخفت تدريجيًا حتى تلاشى..

لقد أصبح الأمر مخيفًا، فلقد تطور الأمر وهذا الصوت جديد بالنسبة له، وقبل أن يخرج من حالة فزعه، بدأ صوت طرق قوي على أرضية الشقة العلوية جدد شعوره بالفزع، شعر كأن السقف سينهار فوق رأسه، استمر الصوت وأصبح أقوى، وكأن أحدًا يحاول صنع فتحة ليصل إليه...

ربما شخص علم بوجود ساكن جديد بدأ يسمع الأصوات التي تصدر من تلك الشقة العلوية، فأراد التخلص منه!

هذا ما خطر بباله، وقد كان التفسير الأقرب للمنطقية بالنسبة له.

وأثناء استغراقه بالتفكير انتبه لصوتٍ آخر جذب انتباهه، صوت اصطدام قطراتٍ بجانبه على أرضية الغرفة، جعله ينتفض مخرجًا صرخة يبتعد قليلًا عن البقعة الصغيرة التي تكونت بجانبه ولامست أطراف أصابع قدمه، قفز مسرعًا ليضيء نور الغرفة من جانب الباب المغلق، ارتجف بعد إضاءته للغرفة وتقدم مترددًا، متسائلًا في قرارة نفسه عن مصدر تلك القطرات التي تتسرب من غرفته، لو كان ذلك في الحمام أو المطبخ لكان الأمر مقبولًا!

استمر بالاقتراب ببطء وحذر شديدين نحو البقعة الرطبة ذات اللون الداكن قرب سريره...

"ليس الأمر مخيفًا فقط هي دماء بالتأكيد"تمتم بينه وبين

نفسه ورفع بصره للسقف؛ ليرى مصدر تلك القطرات، مع وقوع تلك الضربات في لحظتها وبقوة وتكرار متلاحق وقع بصره على البقعة الداكنة تتكون على السقف وتكبر شيئًا فشيئًا، مع ازدياد وتيرة الضربات، واهتزاز وارتعاش الإضاءة، مما جعله بدون تفكير يهرع مسرعًا للخارج، فتح باب غرفته، لم تأخذ تلك المبادرة ثوانٍ ليوقف هرولته صوت جرس الباب بالتزامن مع توقف الأصوات تمامًا...

لحظات حاول فيها أن يجمع شتات نفسه ويفكر أيعود للغرفة أم يفتح الباب؟!

الرنين الثاني لجرس الباب كان مطولًا أخرجه من كل شيء كان يفكر به، وسحبه بلا إرادة كما تُجرّ نعجةٌ إلى حتفها، فتح الباب بحذر وببطء مظهرًا رأسه للطارق، ليجده رجلًا في منتصف عقده الرابع يرتدي بذلة رياضية سوداء ينظر لوجهه الذي بدا عليه القلق...

وقبل أن يفتح فمه بكلمة كان الطارق قد قطع ذلك الصمت بأن عرّف عن نفسه بأنه جاره الذي يسكن تحته، وقد سمع صوت صرخةٍ من فوقه وصوت ارتطام قوي، لذلك قلق بعد علمه أن الشقة تم استئجارها مؤخرًا...

عاد الهدوء لوجه الشاب وفتح الباب أكثر مقلبًا بصره تارةً خلفه وأخرى لجاره، فكر لبرهة هل يخبره عن تلك الأصوات والأحلام!

نظرات الجار الغريبة له جعلته يحسم أمره فأخبره أنه سقط عن سريره إثر كابوس، وهو الآن بخير.

أنهى حديثه بتلك الإجابة فقط لأنه أراد أن ينهي الزيارة سريعًا ليفكر؛ خاصة أن الوقت متأخر جدًا.

أومأ الجار له بالرأس وحياه، وبارك له على الشقة، فهز رأسه بابتسامة تصنّع بها الترحيب منتظرًا نزوله الدرج.

لكنه استوقف جاره في منتصف طريقه بسؤاله عمن يسكن فوقه، أوقف سؤاله الجارَ لبرهة ليلتفت له وبنبرة هادئة كسابقتها تمامًا

- إنه طبيب تخدير عجوز.

قالها وهو يحرك كتفيه ويهز رأسه مستفسرًا، فأخبره الشاب بصوت خافت أقرب للهمس حتى لا يتردد صداه على الدرج بأنه يستفسر فقط؛ لأنه ساكن جديد ويريد أن يعرف جيرانه.

أنهى الجار اللقاء بابتسامة وأكمل هبوط الدرج، وقف الشاب يشاهد الجار حتى اختفي من أمامه ليلتفت للدرج المقابل له الصاعد للحظة، ثم أغلق باب شقته وأنار بهو الشقة، ألقى نظرة إلى معطفه على الأريكة وحذائه تحتها بعد عودته لداخل الشقة من جديد، واطمأن أكثر عندما وجد حافظته وسلسلة مفتاح على الطاولة أمامه، ذهب لمعطفه ولبسه بعجل على جسده العاري وأغلقه جيدًا، كان متعرقًا رغم برودة الطقس في ذلك الوقت من السنة، جلس على الأريكة للحظات ليرتدي حذاءه بدون جوارب ونهض سريعًا ملتقطًا سلسلة المفاتيح والمحفظة ووضعهما في جيب سترته..

كان الخوف والرعب والحيرة قد تمكنوا منه "طبيب تخدير" هذه

المهنة تدعو للتخيل..

قالها بصوت مسموع، وجه نظره للممر الذي يأخذه للغرفة سارحًا بالتساؤلات التي تنهش عقله..

"هل هو طبيب مختلّ؟"

"هل يصطحب الضحية معه؟"..

"هل يقوم بتخديرها ولكن ليس كليًا ليرى نظرات المقاومة والرعب في عينيها قبل قتلها؟!.."

"صوت الحشرجة يؤكد أن هناك من يختنق بحبل أو سلك معدني رفيع والصرخات تؤكد أن هناك من يتعذب"

عند هذا التخيل قرر أن ينزل من الشقة حتى الصباح، تذكر ذلك المقهى، وفجأة عندما همّ بالسير نحو الباب انقطعت الكهرباء وعلا صوت صراخ حاد وطرق شديد من ناحية غرفته مما جعله يقفز سريعًا متجهًا لباب الشقة ويغادرها مسرعًا، يذرع درجات السلم سريعًا متجاوزًا شقة جاره والطابق الأول ليخرج من باب العقار بسرعة قياسية...

لفحته برودة الهواء، والأمطار الخفيفة المتساقطة جعلته يتوقف قليلًا أمام بوابة العقار ليستنشق الهواء ويستعيد رباطة جأشه وبهدأ قليلًا، لم يستغرق دقيقة وهو يلقي نظرة أمامه على المقهى، ويلقي نظرة أخيرة للعقار الغارق في الظلام لينطلق مسرعًا إلى المقهى الخالي تمامًا، اتخذ مقعده على طاولة في الخارج تظللها مظلة كبيرة

متصلة بواجهة المقهى الشعبي، فرغم برودة الطقس إلا أن بعض الزبائن يفضلون الجلوس في الخارج..

استغرق الشاب في التفكير، لماذا يريد أن يؤذيه هذا الطبيب؟ و ما ذلك الحلم الذي يراوده؟.. من يكون هو؟.. وكيف كان قبل أن يأتي هنا؟! هل هو فاقد للذاكرة؟!.. في هذه اللحظة تذكر حافظته فأخرجها بسرعة وفتحها، ليجد فيها بعض الأموال وهويته الشخصية التي تأملها كثيرًا..

"مخلص مخلص منتظر"

"تاريخ الصدور: ٢٠٠١"

قطع خلوته وصمته وعلامات الدهشة التي تعتري ملامحه من هذا الاسم الغريب، صوت السعال الذي أتي من طاولة مجاورة مظلمة ليبدل ملامح الاندهاش إثر قراءته لاسمه الذي لا يتذكره البتة، لأنه ببساطة لا يتذكر شيئًا!

وعندما التفت ناحية الصوت؛ وجد جاره جالسًا على مقربة منه بمفرده يحيطه دخان تلك "الشيشة" التي يدخنها.

تجرأ وترك مكانه متجهًا نحو جاره بخطوات قليلة، ألقى عليه التحية، وقبل أن يستأذنه بالجلوس كان الجار مرحبًا به وأشار له بالجلوس، فوجدها فرصة ليسأل عن هذا الطبيب المجنون.. وبالفعل جلس وسأله عن جاره الطبيب، في تلك اللحظة الذي أنهى بها سؤاله أشار الجار لكوب شاي أمامه والأمطار يزداد إيقاعها

وضربات البرق المتلاحقة أنارت ابتسامة هادئة على وجهه، نظر للشاب يرفع كوب الشاي ويرتشف بضع رشفات مع هبوب الرياح التي نثرت بعض قطرات الماء نحوهما.

بصوته الهادئ قال الجار:

- أنا أعرفه معرفة جيدة، وهو طبيب محترم..

أخذ نفسًا عميقًا من الشيشة وأخرجه ناظرًا بطرف عينه إلى جاره الجديد للحظة ليكمل حديثه بعبارة صادمة:

- ولكن من بعد مقتله لم يسكن أحد هذه الشقة!

تجمد الدم في عروق الشاب، واتسعت عيناه حتى كادت تقفز خارجًا، سأله مرة أخرى:

- ماذا تعني بأن الشقة غير مسكونة، وكيف قتل؟

فأجابه بنفس ذلك الهدوء الذي يميز صوته:

- الشقة خالية تمامًا منذ عامٍ تقريبًا، لم يسكنها أحد منذ ذلك الحين، أما عن كيفية قتله: فالقاتل انتظر حتى موعد قدوم الطبيب وبمجرد أن فتح باب شقته دفعه إلى الداخل ثم بدأ بإغراقه في حوض الاستحمام، وهو يطعنه بالسكين طعنات شديدة قوية أخرجت جميع أحشائه للخارج..

صمت لبرهة يشاهد ردة فعل الشاب، كانت ملامحه كافية لتعبر عن مدى دهشته وحيرته وعدم استيعابه لكل شيء من حوله، كوب الشاي تجمد في يده، ومع استمرار ومضات البرق التي يلاحقها

انفجارات رعدية عنيفة، أكمل الجار بنبرة ساخرة:

- الطريف في الأمر أن الشرطة على الرغم من محاولاتهم لمعرفة القاتل إلا أنهم لم يكتشفوا هويته إلا متأخرًا، فقد كان المهندس المعماري الذي يسكن بأسفله ولكنهم عندما اكتشفوا هذا، كان القاتل قد انتحر في شقته شنقًا..

رمق الشاب بطرف عينه قبل أن يضيف:

- هكذا دور الشرطة دائمًا، تأتي باليقين متأخرًا جدًا حين انتهاء اللعبة.

أنهى كلامه عند هذه النقطة، لم يحتمل الشاب كل هذه الصدمات فسقط كوب الشاي الذي كان يحمله على الأرض ليحدث دويًا، ولكنه لم يهتم، قام واقفًا تاركا الرجل بدون حتى إلقاء التحية عليه مهرولًا نحو العقار غير عابئ بالأمطار الغزيرة المنهمرة، وعند وصوله لبوابة العقار سطع الضوء فجأة في العقار متزامنًا مع عدة ضربات برق ضربت سطح البناية كأنها أعادت الحياة مرة أخرى لكهرباء العقار...

أسرع للدخول وصعد درجات السلم كعداء أولمبي في مسابقة عدو حواجز، ومئات الأسئلة التي تلاحقه عن تلك اللعنة التي أصابته، القاتل كان يسكن شقته!..

القتيل يريد أن ينتقم ممن يقطن هذه الشقة!.

الآن فهم سر الحشرجة، كانت تصدر من غرفته وليست من أعلى كما ظن!

توقفت أسئلته ومخاوفه أمام باب شقته للحظة فكر وأخرج مفتاح الشقة وولج للداخل بعد أن أهداه عقله بالانتظار للصباح ليسأل صاحب العقار عن كل ما دار ويحزم أغراضه ويرحل.

أمسك رأسه بكلتا يديه كأنما داهمه صداع مفاجئ وتقدم بخطوات بطيئة نحو الأريكة، اختلس النظر متفحصًا المكان والإضاءة، كانت الأضواء كما تركها قبل انقطاع التيار، استلقى على الأريكة يشعر بدوار خفيف وبعض التشويش في الرؤية، هي تمامًا تلك الحالة التي صاحبته بلا هدنة، فقرر ألا يدخل الغرفة، وفضّل الاستلقاء على الأريكة ليرتب أفكاره لعله يصل لشيء!

لقد أصبح الأمر انتقام أرواح وعفاريت وهو بينهم كالرأس في مقصلة الإعدام...

لم ينتهِ الدوار والصداع وخمول في جميع أطرافه، فقط أفكار مشوشة وهلوسة لا تفسير لها، عيناه تغمضان ببطء في مقاومة مستميتة منه لعدم ذهابه في النوم خاصة أن الساعة تعدت الخامسة صباحًا وهو يتذكر مشهد تلك القطرات الداكنة كالدماء على سقف غرفته!

"أتراه ذلك المكان الذي طعن فيه الطبيب بوحشية؟!"

"ما هذا الطرق الجنوني على سقف بيته؟ هل يريد القتيل أن يصل إلى القاتل!.."

ولكن هنا يأتي دور السؤال الأصعب:

كيف يشرح لشبح القتيل أن قاتله مات هو الآخر؟!

بل هو لا يعلم أصلًا إن كان يؤمن بتلك الأمور أم لا، فتلك الحالة التي يعيشها الآن تجعله يشعر بأنه لا يريد سوى الوقوع في نومٍ عميق، وما هدأ من روعه والخوف الذي يسكنه بأنه قرر أن يرحل صباحًا أيًا كانت النتائج، لم يستغرق كثيرًا في التفكير حتى غاب في غفوة عميقة على الأريكة لم يوقظه منها سوى تلك اليد الناعمة التي شعر بها تمر على وجهه، وقبلة جعلته ينتفض من مكانه فزعًا يصرخ بها:

– من أنتِ!.. وكيف دخلتِ هنا؟

وقفت تنظر له باستغراب وكأنها تعرفه حقًا وهو ينكرها

اقتربت منه لتهدئته، أمسكت وجهه بيديها، ووجهها ملاصق لوجهه، غزا الخدر عضلاته مستسلمًا لها وهي تحدثه بنعومة كما لو كان يعرفها:

– ماذا بك؟ أنا أخاطر بنفسي وبسمعتي لألقاك، لأسمع منك هذا الكلام!

تركت وجهه، لم يعرف بماذا ينطق، راقبها بذهول كأنه منتشٍ لدرجة لا يستطيع فيها تحريك أطرافه؛ بل لم يستطع أن يشعر بهم أيضًا، فقط جلس يتابعها، تمشي أمامه بدلال وتفكّ أزرار معطفها حتى وصلت إلى كرسي موضوع أمامه ببضع خطوات، ألقت بمعطفها على ظهر الكرسي، وجلست واضعةً ساقًا فوق الأخرى ترميه بنظرات لا يعرف مغزاها، ومثل مشلول يحاول أن يتكلم ولا يستطيع، خدرٌ تامٌ يعتريه، فقط حاستان بالكاد يشعر بهما السمع والبصر وإن كان

مشوشًا متوترًا..

طال الصمت قليلًا، لا يدري أتكون هذه حقيقة أم خيال، أم مجرد كابوس وسيفيق منه، لكنها تبدو أكثر من مجرد حلم

ألجم وجودها لسانه، لا يزال على الأريكة متجمدًا، عيناه جاحظتان وقلبه يخفق بشدة

- لم أنت خائف؟ اهدأ قليلًا...

بدأت كلامها لتكسر ذلك الجمود المرعب في المكان، حاول أن ينهض من مكانه بلا فائدة، انعقد لسانه ولم ينبس بكلمة، ذلك الصداع والشعور بالعجز والحيرة التي لا تنتهي جعلته لا يريد إلا الصراخ، لكنه بلا حولٍ ولا قوة، حتى السؤال لمجرد المعرفة لم يقدر عليه، كان كرهينة محتجزة لا حيلة له.

وجاء صوتها لتوفر عليه عناء كل تلك المحاولات وبدأ بصورة مختلفة أقرب للعدائية وهي تحدثه:

- نعم، أنا السبب في كل ما حدث هنا، في هذه البناية ست شقق، ستّة رجال، ستّ قصص، وفي كل قصة ستجد اسمي.

حاول أن يستجمع بعض قواه لكنّه كان غارقًا في غيبوبة وعيناه بدأت تثقل ولم يعد يرى سوى المرأة تتقدم نحوه وتشير له بمكملة حديثها بنغمة بطيئة نوعًا ما، كأن حاسة السمع بدأت تضعف عنده في تلك الحالة المزرية بكامل ملابسه على الأريكة عاجزًا عن الحركة:

- لا تندهش هكذا، ألم يخبرك جارك مدرس الموسيقى عني، ألم تقابله منذ قليل..

توقفت لبرهة بعد أن أصبحت على بعد خطوات منه وهي تتمايل مكملة بنفس الوتيرة البطيئة:

- ألم يخبرك شيئًا عن زوجة الطبيب؟ أخبرك فقط عن الطبيب والمهندس، إذن؛ عليك أن تراه لتسأله، وتعرف منه المزيد!.

تحول صوتها للفحيح، وببطءٍ بدأت تقترب من وجهه وهو فاتح فمه يقاوم جفونه التي تريد أن تطبق على عينيه كمقصلة تنتظر أن تهوى لتقذفه في غيبوبة:

- يجب أن تعرف لمَ أنت هنا، من أتى بك لهذا المكان؟

لم أنت في هذا الموقف!.ألا تريد أن تعرف؟.

وعندما أصبح وجهها ملاصقًا لوجهه، رأى وجهها ينزف دمًا، وعيناها تتسعان بشكلٍ مرعبٍ، ورأسها يميل يمينًا ويسارًا، بلمح البصر بحركة خاطفة مع صرخة بصوتٍ مرعب قبضت بيديها على رقبته وضغطت عليها بشدة..

- عليك أن تعرف كل شيء، أتريد أن تعرف؟

لم يعد يفقه ما تقول؛ فأصوات الحشرجة في الشقة تعالت، وصوت قطرات الدم التي تسقط على الأرض ينخر أعصابه، وهي تخنقه بقوة حتى كاد يغيب عن الحياة، أصبح يسبح في ظلام، لا يرى أو يسمع شيئًا.

لا يعلم كم استغرق الأمر، فالوقت أصبح معدومًا بالنسبة له، حاول الصراخ بشدة تجعل جسده ينتفض حتى أفلتت منه صرخة، ليجد نفسه وقد سقط على الأرض من فوق الأريكة بعد أن راوده هذا الكابوس المفزع، فقد تطورت الأمور عنده منذ قدومه هنا.

تفحص المكان بنظرات سريعة وكأنه قد استعاد قوته مرة أخرى، رأى أشعة الصباح تتخلل النوافذ في البهو والإضاءة ما زالت مضاءة كما تركها قبل أن يسقط في غيبوبة نوم ويرى ذلك...

ودون أن يلتقط أنفاسه أو يهدأ، وجد نفسه بملابسه ودون تفكير يهرول خارج الشقة مسرعًا، وكالمجنون قفز الدرجات ليطرق باب شقة جاره في الشقة أسفله، خلع الباب طرقًا مقررًا أن يستفسر عن تلك الأرواح والعفاريت ويأخذ رقم صاحب العقار ليهاتفه ويترك الشقة ويرحل.

راودته هذه الأفكار وهو يطرق الباب بعصبية زائدة، حتى لاحظ أنه استغرق دقائق لم يتوقف عن ضغطه زر الجرس وما من مجيب!

فجأة شعر بأحدهم يضع يده على كتفه، استدار وشهق من الفزع، رأى وجه مالك العقار فاستكانت ملامحه وهدأ قليلًا، لاحظ الرجل خوفه وهلعه، كان أشعث الشعر طويلًا، وقد ظهرت شعرات بيضاء لم يلحظها في اللقاء الأول بينهما، وكأن ملامحه قد كبرت عقدًا من الزمن في ثلاثة أيام!

ملابسه السوداء غير مهندمة وعيناه زائغتان بهالات سوداء

واضحة، وجبينه ينزف عرقًا رغم برودة الطقس.

بادره صاحب العقار بصوته الغليظ يسأله عمّن يبحث، ولمَ يدق على الباب بهذا الشكل.

فأجابه سريعًا بشرود وبطريقة آلية متأملًا ملامح صاحب العقار الذي يعرفها جيدًا منذ توقيعه العقد معه منذ أيام:

- أريد جاري في أمرٍ مهم.

نظر إليه المالك بريبةٍ، وأخبره أنه جاء فقط ليعطيه نسخة المفاتيح كما وعده.

هزّ رأسه متفهمًا، بينما ذهب الرجل من أمامه صاعدًا الدرج للطابق الأعلى ببطء شديد تاركًا الشاب غارقًا في حيرة من أمره، وعند منتصف الدرج استدار الرجل مخاطبًا إياه بنبرة هادئة:

- سأتفحص الشقق الفارغة وعند عودتي سأمرّ عليك لأعطيك النسخة الإضافية ونتحدث قليلًا.

لم يعطِه فرصة ليتكلم، التفت مكملًا صعوده حتى وصوله لنهاية الدرج وقبل أن ينزوي ويختفي مكملًا صعوده تابع كلامه ليستحوذ على تفكيره ويشد جميع حواسه إذ أخبره بلكنة ساخرة:

- نسيت أن أخبرك، لا أحد يسكن هنا، لن يجيبك أحد،

فأنت الساكن الوحيد في هذه البناية بعد تلك الحوادث البشعة التي حدثت منذ سنوات بعيدة، ستّ شقق، ستّة رجال، ست حوادث قتل أو انتحار، لا أحد هنا سواك!

بصوتٍ متقطع مذعور رد عليه الشاب:

- لكنك لم تخبرني بشيء وقتها!

رد عليه الرجل سريعًا:

- أنت لم تسألني عن شيء، وأنا أمر بضائقة مالية، وعندما أتيت ليلًا كنت متعبًا جدًا، ظننت أنك ربما تحت تأثير مخدرٍ ما، لكن حين طلبت شقة للإيجار لم أتردد في ذلك، ولم تبدِ أي اعتراض على شروط عقد الشقة ونحن نوقعه سويًا، لم تستفسر عن شيء.

أكد له في نهاية الحديث بينهما أن الحقيقة المطلقة هي أن جميع من في البناية قديمًا أصبحوا أمواتًا منذ سنوات طويلة

- تأكد أنه لا أحد هنا سواك.

وقع عليه هذا الكلام كالصاعقة، وكأنه يحتاج لرعبٍ أكثر!

لا يعرف أي مصيبةٍ أتت به إلى هنا، وأي لعنة قذفت به هنا لماذا هو؟ وما معنى كل ما يحدث، لماذا يسمع ويرى كل ما يراه، وهو لا شأن له في كل ما حدث!

هذه التساؤلات دارت في باله في ثوان، قفز مذهولًا مرعوبًا متوجّها لشقته متجاوزًا الرجل بسرعة دون أن ينبس بكلمة حتى باب شقته المفتوح وتقدم بحذر متوجها للداخل ليلملم أشياءه ويرحل من هنا، لكن صعقه ما رأى، وأصابته الصدمة والذعر حين لمح ذلك المعطف النسائي على ظهر الكرسي أمامه حين مر متجهًا لغرفته مما جعله يتوقف، نظراته متعلقة بذلك المعطف للمرأة التي

رآها بوضوح في كابوسه الأخير.

تراجع للخلف ليلاصق ظهره حائط الممر الذي يفصل بينه وبين بهو الشقة، جلس في مكانه على الأرض فجأة أتبعه إحساس يألفه جيدًا؛ بأن الدنيا تدور من حوله ويكاد أن يفقد وعيه، حالة معتادة تنتابه منذ وعيه الذي لا يتجاوز بضعة أيام، تذكر أنه لم يشرب أو يأكل شيئًا ومع كل تلك الصدمات التي تعرض لها منذ ليلة أمس لا بد أن يفترسه التعب.

نهض واتجه للسير في الممر إلى المطبخ، متناسيًا باب شقته المفتوح وصاحب العقار الذي يسمع خطوات صعوده الثقيلة بفعل سنوات عمره التي خلفت آثارها خاصة مع تلك العصا التي يتكئ عليها والتي تميز شكله، توقفت أفكاره وهواجسه عند مبرد المطبخ لتقف الهجمات العشوائية التي تلتهم عصارة فكره منذ أن قاده حظه لهذه الشقة، مشهد المعطف توغل في مخيلته بينما يلتهم قطعة من الكعك بطريقة بدائية تنم عن جوع شديد، يمسك قطعة كبيرة ضاغطًا بيده ليحشرها بقوة ثم يفتح زجاجة العصير بسرعة، ويتجرعها في رشفة واحدة لتختلط مع المعجون في فمه لابتلاعه دفعة واحدة، ثم اتجه إلى الخارج مقررًا أن يحسم الأمر ويتخذ قراره؛ إما أن يذهب إلى غرفته يلملم أغراضه ويرحل أو...

توقف هسيس عقله في منتصف الممر، قلّب بصره بين غرفته والممر الذي أصبح مشرقًا من خلال الضوء الذي ينفذ من نوافذ

الغرف وبين ذلك المعطف المعلق على الكرسي أمام الأريكة كما الحلم..

"رائحة عطرها ما زالت تفوح في المكان، الأمر ليس مجرد حلم!.. هذه الأشياء لن تقفز فجأة إلى عالم الواقع».

تمتم مع نفسه بتلك العبارة والفضول يجذبه نحو الكرسي، في ثوان معدودة كان قد تحرك وأصبح هناك مقدمًا نفسه قربان ولاء للفضول، تفحص المعطف بأصابع مرتجفة وعلامات الاستغراب والحيرة تملأ وجهه، خاصة بعد اختفاء صوت خطوات صاحب العقار وعصاه مما جعله يلتفت لبرهة للباب المفتوح خلفه، لكن رائحة العطر جعلته يعيد نظره نحو المعطف مرة أخرى يشمه قليلًا ويفتش في جيوبه، مفرغًا محتوياته على الطاولة التي أصبح أمامها، علبة سجائر

ذات ماركة عالمية من النوع الرفيع الذي تفضله النساء.

قداحة فضية على شكل جمجمة ضاحكة، نقود، صورة قديمة لشخص يحمل طفلًا، وورقة مطوية..

ترك كل شيء على الطاولة وقام بفتح الورقة بيد مرتجفة وبمجرد أن ألقى نظرة سريعة على محتواها، اتسعت عيناه من الفزع وانتابته رجفة بسيطة وعيناه متسمرتان على الكلمات داخلها، فلقد كانت سبعة أسماء لأشخاص ذكرت منهم ستة أسماء تم الشطب عليها، ثلاثة منهم يعرفهم من المهنة التي بين قوسين أمامه، إنهم الطبيب والمهندس ومدرس الموسيقى، جيرانه الأموات!

أما ما جعله يخاف ويرتجف من داخله الاسم السابع الذي لم يتم شطبه بعد، فهو اسم مألوف له، إنه اسمه هو!

بدأ يعرق كعادته كلما توتر أو خاف ولكن ما جعله يقدم على طوي الورقة مركزًا في نهاية القائمة يوجد توقيع باسم"البهنساوى"ورقم هاتف وتوقيع آخر باسم غريب باللغة اللاتينية لم يستطع لفظه ولم يصاحب التوقيع اللاتيني الغريب رقم هاتف بجانبه مثل الاسم الآخر!

وضع الورقة في جيب معطفه بطريقة تلقائية ودخل غرفته مسرعًا، أخذ يلملم أشياءه في حقيبة سفر، كان مقررًا أنه سيغادر هذا المكان ولن يعود...

انتهى من ترتيب حقيبته سريعًا، فهو لم يعد يستريح للمكان، منذ قدومه أصابه الهذيان والتعب ويزيد على ذلك حالة فقدانه لذاته التي لا يتذكر عنها شيئًا أكثر مما كان عليه.

حمل حقيبته وغادر الغرفة، وعند منتصف الممر الذي يؤدي للخارج تسمرت قدماه لسماعه لحشرجة غليظة وطرق شديد وتلاها شهقة عالية صاحبها ارتطام شيء بأرضية الصالة. ثوان من الصمت أخرجته من سكونه، تسلل نحو الخارج ببطء وعندما أطل برأسه وبصره ناحية الباب المفتوح وجد صاحب العقار ساقطًا في المنتصف بين الصالة والباب وعصاه بجانبه...

ألجمته الصدمة لثوان حتى تردد صوت حقيبته عند سقوطها وملامستها الأرض.

مرت دقائق يحاول بها أن يرفع صاحب العقار ويسحبه حتى الأريكة، ونجحت محاولته في دقائق معدودة واضعًا إياه على الأريكة وبجانبهما عصاه السوداء التي تنتهي بمقبض فضي، جلس بركبتيه على الأرض محاولًا أن يسعفه ويدلك له صدره بعد أن لاحظ أن تنفسه بطيء جدًا!

فجأة أضاء النور في عيني صاحب العقار ونهض بحركة ضعيفة وتلفتت حوله، مما أدهش الشاب، لكن كلمات العجوز سبقت أي رد فعل له حيث تمتم لنفسه بأنه يعرف هذا المكان إنها الشقة رقم ٣ شقة الساكن الجديد المتوتر دائمًا...

أنهى كلماته بابتسامة يرسمها على وجهه المجعد وأكمل نهوضه وعدل جلسته ليقابل الشاب الذي ما زال جاثيًا على ركبتيه أمامه مذهولًا يتأمله، هو كصاحب العقار يعرف تفاصيل كل الشقق، يحفظ تضاريسها وخباياها كما يعلم بعض خفايا نفوس البشر بمنظور تراكم سنين العمر والمعرفة، لم يطل النظر إلى الساكن المتوتر الذي أسماه هكذا منذ أن رآه في المقهى كمن فعل شيئًا ويخاف أن يُفضح.

سأل العجوز عما قد حدث، فأجابه الشاب بسرعة كأنه كان ينتظر أن يتحدث، بأنه فوجئ به ساقطًا على أرضية شقته، فحمله ووضعه على الأريكة وأنه كان سيتصل بالإسعاف.

التقط صاحب العقار سريعًا منه طرف الحديث بصوته الغليظ المتعب مخبرًا إياه بأنه لا داعي لذلك فهو يعاني من ضيق في

الشرايين التاجية وهذه الأزمة تحدث له كل فترة وأنه كان في طريقه لطبيبه الشخصي، ولكنه فوجئ بالأزمة تأتيه عند الطابق الخاص به - قالها وهو يخرج سلسلة مفاتيح وعلبة دواء- تفحص المكان سريعًا واطمأن على وجود عصاه بجانبه متابعًا حديثه بلكنة يشوبها التعب بأنه أتى للعقار ليعطيه سلسلة المفاتيح الإضافية، وضعها على الطاولة وطلب منه إحضار كوب من الماء.

تحرك سريعًا واختفى ليعود حاملًا زجاجتين مغلقتين من المياه المعدنية، ناوله واحدة فتحها له، وفتح الأخرى أيضًا ليشربها بنهم شديد، فهو لا زال يشعر بالدوار والصداع.

كانت عيناه تتابعان صاحب العقار الذي تجرع رشفة أخذ بها دواءه، ووضع الزجاجة على الطاولة ونهض شاكرًا له حسن استضافته.

غادر سريعًا وصوت طرقات العصا على الأرضية بوتيرة منتظمة جعلت يراقب خطواته مارًا من أمامه، لكن توقف طويلًا قرب الكرسي الذي عُلق عليه المعطف؛ مما جعل الشاب يظن أنها نوبة أخرى في الطريق إليه، لكنه فوجئ بصاحب العقار يسعل ويرمقه بنظرة لم يفهم مرادها ثم انتقل بصره نحو الولاعة وعلبة السجائر على الطاولة.

و قبل أن يتفوه الساكن بكلمة التقط العجوز المعطف ليفعل آخر شيء يتوقعه الشاب، حيث وضع المعطف على أنفه وأخذ يستنشق العطر الأنثوي الذي يفوح منه مغمضًا عينيه باستمتاع لبرهة ثم فتحهما فجأة ليخبر الشاب لحظتها أنه يعلم أن ملكية تلك الأشياء لا

تخصه، وأنها تنتمي لأشخاص آخرين.

نظر له الشاب وعقله يضع مئات الاحتمالات لكنه أشار له بزجاجة المياه الفارغة التي ما زالت في يده وعلامات الدهشة على ملامحه موجهًا تساؤلًا للعجوز:

– كيف عرف ذلك.. لقد كنت أريد...

لم يمهله صاحب العقار ليقول إلا تلك الكلمات المحدودة وقاطعه بسعاله الشديد ناظرًا لساعة يده مقررًا الرحيل؛ فموعده مع الطبيب اقترب، أخبره أنه سيمر عليه ليلًا ويتحدث معه قليلًا، وخيّره إن كان يريد الرحيل فله مطلق الحرية وأنه سيجهز له ماله الذي دفعه.

أنهى كلامه وتوجه إلى الباب تاركًا الشاب في حيرة لا يدري ماذا يقول أو يفعل وصوت باب الشقة يفتح وصوت العجوز الغليظ يخبره:

– أعلم أن ذلك المعطف يخص امرأة.

كان أمام الباب مباشرة، رمق الشاب بنظرة هادئة لا تشف عن أي انفعال وتابع كلامه بجملتين أنهاهما همسًا وهو يغلق الباب ويغادر، الكلمتان الأخيرتان جعلت الدماء في وجه الشاب تهرول هاربة. لقد اختلفت الأمور الآن، هناك سر في

هذا العقار!.. لماذا ناداه بالمنتظر؟!.. وكيف...

انغلق الباب خلف رحيل صاحب العقار مباشرة، واختفت تدريجيًا طرقات العصا على الدرج. لم يجد حينها إلا أن يتجه للأريكة ويلقى بجسده، يفكر وقد قرر أن يبقى للمساء لحين

عودة صاحب العقار ليفهم منه كل شيء لعله يخبره أيضًا من يكون، أو ربما كان يعرفه، فلقد ناداه بالمنتظر.

نفض رأسه عند تلك اللحظة كأنه يلقي تلك الأفكار اللعينة التي لم تترك حجرة في عقله إلا واقتحمتها للخارج، تمتم مبتسمًا

– لقد شاهد هويتي عند توقيع العقد بالتأكيد.

قالها موجهًا بصره نحو المنضدة أمامه والتي تحتوي على الأشياء التي عثر عليها في المعطف ثم أخرج من جيبه تلك الرسالة المذيلة بذلك الاسم الغريب "البهنساوي" وإلى رقم الهاتف وذلك الاسم الغريب اللغة والنطق..

وضع رأسه بين كفيه محاولًا أن يفكر بل يجاهد ليتذكر شيئًا لكن دون جدوى، الحيرة والتساؤلات التي لا تنتهي تنهش عقله بقوة، فكر كثيرًا؛ هل يتصل بذلك الرقم؟ وماذا عليه أن يفعل، كيف وصل إليه ذلك المعطف؟ وهل هي روح مقتولة أيضًا أم...

هز رأسه وكأنه ينفض غبارًا من الذعر متجسدًا في أسئلة بلا إجابات...

أشاح بنظره نحو الصورة؛ التقطها يتأمل ذلك الشاب الذي يحمل الطفل الرضيع محدقًا نفسه

"لا يمكن أن يكون هذا هو الطبيب، فهو شابٌ صغير

وزمن الصورة رغم قِدمها ليس بالبعيد"..

ارتعاش الضوء المتكرر فوق رأسه الذي نسى أن يطفئه منذ أمس أخرجه من تفكيره وحديثه الهامس مع نفسه، ليلقي نظرة خاطفة

على المصابيح المرتعشة حتى ثبتت وعادت كما كانت. التفت إلى تلك الولاعة الفضية بجانب علبة السجائر، أمسكها وبدأ يقلبها بين يديه ويتلمسها، ولاعة غريبة على شكل جمجمة"إنه ذوق مرعب"همس لنفسه قبل أن ينتفض جسده للحظات قليله لمفاجأته بشيء يخرج من الولاعة وهو يعبث بها، دُهش لكونها مفتاحًا منقوشًا عليه رقم أربعة باللغة الإنجليزية.. تأمله قليلًا حتى خطر له الأمر لينهض بسرعة، التقط المعطف وعلبة السجائر والرسالة ووضعهم في جيب بنطاله....

توجه مباشرة نحو باب شقته؛ ليفتحه ويغلقه بنفس السرعة متوجهًا بخطوات مسرعة نحو السلالم إلى الطابق الذي يعلوه وتحديدًا للشقة رقم أربعة - شقة الطبيب - تلفت حوله لبرهة من الزمن، ثم وضع ذلك المفتاح الملتحم بالقداحة في الباب، تفاجأ قليلًا رغم توقعه للأمر عندما استجاب المفتاح وسمع صوت المزلاج يفتح مع دورانه وينفتح الباب أمامه ليدفعه ببطء، جال بنظره في الظلام الذي يغلف الشقة..

اتخذ قراره في لحظتها، وتقدم بخطوات بطيئة حتى أصبح في الداخل في الظلام رغم أن الشمس ما زالت ترسل أشعتها في الخارج...

علل ذلك بأنه من المحتمل أن النوافذ مغلقة بإحكام، مد أنامله يتحسس الحائط بجانب الباب حتى وقعت يده على بعض المفاتيح التي ضغط عليها؛ سطع الضوء أمامه كاشفًا عن صالة واسعة كما

شقته في الأسفل، الأثاث أنيق لكن يكسوه التراب لتركه فترة طويلة، النوافذ مغلقة وتغطيها ستائر سوداء من القماش الثقيل، تقدم بخطوات ثابتة ملتفتًا يمينًا ويسارًا ولا يعلم ما الذي دعاه للتوجه للغرفة الرئيسية ويفتحها.

أضاء مصابيح الغرفة ليشاهد سريرًا كبيرًا في منتصفها، كما غرفته تمامًا، بل فوقها تمامًا، تفحص بنظره الأرضية لعله يجد سبب تكون الدماء، تقدم ببطء حتى أصبح في وسط الغرفة ليلفت نظره لوحة تتوسطها جمجمة عملاقة وعند فمها بروز ونقوش غريبة، أدهشه تشابه تلك الجمجمة بجمجمة الولاعة؛ مما جعله يلقي المعطف على السرير أمامه ويتحرك نحو اللوحة يتحسس النقوش، وبحركة لا إرادية، ربما بحدسٍ ما، وضع تلك الجمجمة التي في الولاعة داخل فتحة في جمجمة اللوحة، سمع صوتًا كخزانة تفتح حين أدارها نحو اليمين حتى انفتحت اللوحة كباب خزانة أمامه...

بفضول طبيعي بدأ ينظر بداخلها، أخرج محتوياتها من صور وسلسلة مفاتيح، وعند نظره للصور أطلق شهقة كادت أن توقف قلبه من المفاجأة فبداخل الصور كان هو وبجانبه ذلك الشاب، ارتجفت أصابعه وهو يقلب الصور التي كانت تحمل وجهه في جميعها مع اختلاف الأماكن والشخصيات، تارة مع تلك المرأة، أخرى وهو يحمل الطفل، لكن ما لفت نظره ذلك القصر خلف جميع الصور والحديقة الواسعة، داهمه الدوار بغتة، وقبل أن يبتلع المفاجأة، ارتعشت

الإضاءة من فوقه عدة مرات ثم ساد الظلام فجأة...

وقبل أن يتحرك من مكانه تلقى ضربة على رأسه وسقط على الأرض لتتناثر من حوله الصور وتظلم الدنيا في عينيه.

لا يعلم أهي دقائق أم ساعات تلك التي مرت عليه عندما فتح جفنيه، بنظرات مشوشة بدأ ينظر حوله ليجد نفسه على السرير والإضاءة ما زالت ترتعش في الغرفة، وقبل أن يفعل أي شيء تفاجأ برأس تلك المرأة صاحبة المعطف فوقه، منحنية بقامتها عليه، جالسة بين ساقيه على ركبتيها، مائلة بجذعها للأمام، وشعرها يلامس وجهه...

حاول أن يصرخ أو يدفعها بيديه، ليكتشف أنه مقيد، وذلك اللاصق الطبي على فمه يمنعه من الصراخ...

اخترق مسامعه صوت رجل بجانبه على الطرف الآخر يحدثها:

- هل هذا من سنجري عليه التجربة.. ما الذي أصاب هذا الأبله؟

تلك الكلمات جعلته يلتفت برأسه برعب وعيناه تكادان تخرجان من محجرهما من الفزع نحو ذلك الرجل الأشيب الذي يرتدي كمامة على وجهه ويمسك بحقنة في يده...

و مع ضحكات تلك المرأة وهي تهمس في أذنه:

- ألم تأخذك ذاكرتك إلى ما قبل ذلك بعد؟..

ما زلت لا تعلم مصيرك ومصيرنا!

أصابه الهلع مع أصوات الحشرجة المتزايدة التي تداهم سمعه

بقوة.. صوت رنين الهاتف الذي يدوي في الغرفة جعل الرعب يتملكه، لتفلت منه صرخة والمرأة تنزع اللاصق من فوق فمه، يصرخ بجنون:

- أين أنا.. لا افهم شيئًا.. ماذا تريدون؟

نظرت إليه المرأة وهي تغير من وضعها وهي تضحك بعد أن أصبحت جالسة على صدره وتنظر في عينيه الذي يطل منها كل آيات الرعب والفزع قائلة:

- الفضول يأخذنا لبعيد والقدر لا يمزح معك.

صمتت قليلًا تراقب الخوف في عينيه وجسمه المقيد الذي ينتفض من الرعب وهي تقوم بإعادة الشريط اللاصق بقوة، أخذت تميل برأسها وتغطي وجهه بشعرها وتهمس في أذنه -بعنوان ما- بصوت خافت لم يسمعه إلا هو.!.

وفي تلك اللحظة غرز الرجل الحقنة في ذراعه ليصرخ بشدة، وعادت المرأة لوضعها فوق صدره...

بدأت الدماء تتساقط على وجهه من سقف الغرفة، فبدأ يصرخ "لا لا لا "من خلف اللاصق دون أن يخرج صوتًا، وآخر ما سمعه كان صوت الضحكات المختلطة والمرعبة قبل أن يغشي الظلام عينيه..

وعندما عاود فتحهما وجد نفسه على الأرض في الغرفة والصور متناثرة من حوله والإضاءة ساطعة في الغرفة كما كانت قبل تلك الضربة التي تلقاها أو كما هيئ له...

نهض مسرعًا يحمل الصور والتقط المعطف من على السرير

تلفت في الغرفة الخالية من الأشخاص ونظر إلى ذراعه ليجد ثقبًا صغيرًا يدل على أن ما رآه لم يكن حلمًا، لكن لا يعلم كم غاب عن الوعي، دقائق.. ساعات!..

لم يكن هناك رد فعل أنسب من أن يركض خارجًا من الشقة وينزل بسرعة كبيرة إلى شقته..

وفي الداخل في منتصف البهو حاول التقاط أنفاسه قليلًا ويتماسك، نظر إلى الصور مرة أخرى، وقرر أن يجلس ويخفف من رهبته، لكن الساعة المعلقة في طريقه جعلته قبل أن يجلس ينتفض كأنما قد مسه مئة شيطان في نفس التوقيت من الرعب الذي تملكه، تهاوى جسده على الأريكة وشعر بذلك الصداع الذي ينبهه باقتراب ميعاد الدوار الذي يداهمه والكوابيس التي تأتيه منذ أن وعى أين هو.

عقارب الساعة كانت تشير أمامه بساعة واحدة من بعد منتصف الليل!..

حاول أن يهدئ من روعه ولكن تلك الرجفة التي تستحوذ على أنامله حين التقط هاتفًا لا يتذكر أنه رآه للحظة!

شرد محاولًا تذكر استعماله للهاتف خلال الأيام السابقة، حاول الإجابة من خلال تفحصه للهاتف والأرقام وبيانات الهاتف، لكنه وجده خاويًا..

حاول لثوانٍ وبارتباك ملحوظ أن يجمع شتات نفسه، فهل ما يمر به هلاوس أم حقيقة!..

"بالتأكيد جاء صاحب العقار ولم يجدني"هذا ما حدث به نفسه، تأمل الورقة التي التقطها فجأة ونظر للرقم والأسماء بداخلها، مترددًا هل عليه أن يتصل، أم أن هذا سيفتح عليه بابًا جديدًا من أبواب الجحيم الذي لا يعرف كيف ولماذا دخله...

لكنه في النهاية قرر وقد أيقن أنه لن يحدث ما هو أسوأ من ذلك، وأن الأبواب لابد أن تكشف عما خلفها ليعرف الحقيقة كاملة..

سيمضي ليلة أخرى يجب أن يقابل صاحب العقار قبل أن يرحل، بتوتر وبيدٍ مرتجفة نظر للورقة نظرة أخيرة، وبدأ يضغط الأرقام المدونة، انتظر لثوانٍ مستمعًا للرنين من الجانب الآخر، كاد أن يغير رأيه ويقفل لولا أن سبقه صوت يدل أن أحدًا ما قد أجاب على اتصاله، لكن لم ينطق بشيء...

مجرد أنفاس تؤكد أن هناك أحدًا ما...

استجمع نفسه ونطق: "أأنت البهنساوي؟.."

ضحك الرجل في الطرف الآخر وقال بصوت لا يوحي بالثقة والراحة:

- لماذا لا أكون "مفيستو"؟!.. أنت لم تمُت بعد".

لم يمهله وقتًا للتعبير عن ذعره وخوفه، فقال له جملته الأخيرة..

- القصر سيذكرك بكل شيء، هل ما زلت تذكر العنوان؟!

وانطلق بعدها في ضحكة مدوية انقطعت بانقطاع الاتصال.

(2)

مفيستو

الفصل الثاني
مفيستو

بقي الهاتف على أذنه رغم انقطاع الخط عنه، وبدأ يشعر أن الأرض تدور من حوله، حائر الفكر شارد بما قاله الصوت على الخط الآخر، عن أي قصر يتحدث ومن هو هذا الشخص؟

انتابه صداع شديد جعله يمسك بجانبي رأسه ويئن من شدة الألم، أصبحت رؤيته مشوشة، وعندما أغمض عينيه من ذلك الوجع مرت لقطات سريعة في ذلك الفراغ الأسود أمامه، وجوه بملامح أوروبية، سرير، تلك المرأة الشابة العارية على صدره، الجسم الصلب الذي يصدمه، لتقفز صورة تلك المرأة في لقطة أخيرة يتذكرها وهي تجلس على صدره وتميل برأسها وتهمس في أذنه تملي عليه عنوان القصر المنشود.

تذكره جيدًا وكأنه محفور في عقله، فجأة اختفى الصداع وسكن الدوار مع صوت دقات الساعة التي تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل..

قرر ألا ينتظر حتى الصباح، بعد أن استعاد بعض حيويته، يريد أن ينتهي من الأمر بكل تفاصيله، وأفضل وسيلة هي اقتحام المجهول بدل انتظاره، نهض مسرعًا، التقط الصور والولاعة وعلبة السجائر في جيبه، لفت نظره جريدة على الأريكة تحت المعطف، التقطها في

عجلة وتصفح صفحتها الأولى بتاريخ الخامس والعشرين من ديسمبر ٢٠٠١، وخبر يتصدرها عنوان "موافقة العرب على الحرب مع أمريكا ضد الإرهاب".

ألقى الجريدة وتحرك متذكرًا أن صاحب العقار قد يكون نسيها، هذا ما أهداه إليه تفكيره، اتجه مسرعا إلى باب الشقة وقطع الدرجات بسرعة إلى الشارع كأن هناك من يتسابق معه على الخروج من العمارة..

لفحه هواء بارد وزخات المطر المصاحبة للبرق والرعد أضفوا لمسة مرعبة للشارع الخالي من المارة، ألقى نظرة إلى الناحية الأخرى حيث المقهى الذي يغلفه الظلام يتذكر كيف كان يجلس مع شبح؟ نفض رأسه من تأثير تلك الواقعة مقررا أن يفعل كل ما بإمكانه ليعرف من يكون..

ظن أنه من الممكن أن يكون فقدان ذاكرته من ذلك الجسم الصلب الذي يراه في الحلم ويصدمه بعنف.

لاحظ صوت سيارة قادمة من بعيد أضواؤها مسلطة عليه مما أخرجه من أفكاره، أشار للسيارة فتوقفت أمامه، شكر الرب لكونها سيارة أجرة وأن السائق وافق على أن يقلّه.

أخبره بالعنوان، فانطلقت السيارة مسرعة بعد انغلاق الباب مباشرة، جلس على المقعد الخلفي متأملا الورقة التي بها العنوان.

شقت السيارة طريقها في طريق صحراوي تلتهم الوقت في هدوءٍ

عنيف مع صوت مسّاحة الزجاج الرتيب، تتخلله ضربات الرعد بين الفينة والأخرى.

بقي الشاب شاردا يتأمل الورقة المذيلة بتوقيع "البهنساوى"وتحته ذيل الاسم اللاتيني الآخر "مفيستو "الذي بالتأكيد كان يقصده ذلك الذي رد على ذلك الاتصال.

ما معنى هذا الاسم؟! مرت أكثر من ربع ساعة والسيارة تنطلق بسرعة، كان تركيزه منصبًا على الورقة والاسم الذي تحمله، انتبه حين غيرت السيارة اتجاهها وبدأ الصداع يراود رأسه، ووثب عليه الألم والدوار بغتة، ضغط على الورقة بيده وأغلق عينيه مستسلمًا للظلام كأنه مدمن هيروين بعد لحظة سحب الحقنة من ذراعه، مرت دقائق وهو في شبه غيبوبة وعضلات جسده مسترخية ومشاهد كثيرة تمر أمامه، سرير معدني تحيطه ستائر وجهاز محلول طبي معلق، ثم تختفي ويظهر وجه امرأة بملامح أوروبية لم يرها من قبل وفي يدها حقنة، كان جسمه يرتجف والسائق ينظر إليه من خلال مرآة السيارة يراقب تحركاته اللاواعية وإيماءات وجهه، زادت رعشة جسده عندما ظهر وجه تلك الفتاة العارية التي يراها في كل مرة على جسده تمارس معه الجنس بعنف، وبعدها يصدمه الجسم المعدني على رأسه ويضعه في الفراغ الأسود. صرخ وانتفض من مكانه، فتح عينيه ليجد نفسه بداخل السيارة مما جعل السائق يتوقف فجأة مع التفاته له لكي يطمئن عليه بسؤاله:

– هل تعاني من شيء؟ أتأتيك تلك النوبات دائمًا؟

أجابه باقتضاب، ناظرا للصحراء المظلمة من خلال النوافذ بجانبه:

– لقد غفوت قليلًا، وراودني كابوس، هل غفوت كثيرًا؟!

اعتدل السائق في مجلسه أمام عجلة القيادة وأدار السيارة وخاطبه بلكنة فيها بعض التوجس، بأنهما لم يستغرقا نصف ساعة حتى الآن وأنهى عباراته بجملة توضح قلقه:

– لقد رأيت مثل تلك النوبات عند متعاطي المخدرات يسمونها "أوفر دوز" أتبعها بضحكة ساخرة ونظر للشاب من مرآة السيارة.

أراد أن يردّ عليه، لكن استوقفه ظهور أشجارٍ كثيفة ومبنى وبوابة على مسافة أمتار قليلة من جانبه، طلب من السائق التوقف، لشعوره أنه قد وصل للمكان المنشود، الظلام يلفّ المكان، وما زالت الأمطار تنهمر بغزارة، لم يتوقف البرق والرعد، تأمل المشهد غير مبالٍ بكل ما يحدث، مع لمعان البرق ظهرت له بوابة القصر، ليرى قصرًا مهيبًا من خلفه قبل أن تظلم مرة أخرى، أغلق الباب بعد أن ترجل من السيارة حين توقف السائق المندهش.

نظر في الاتجاه الآخر للحظات وأخرج من جيب بنطاله أوراقا توجه إلى الزجاج بجانب السائق، طرق عليه وعندما فتح السائق النافذة أعطاه نقود الأجرة المستحقة، كان ينظر له بدهشة ويشيح بنظره قليلًا باتجاه القصر، سأله الشاب إن كان هنا شيء لكن السائق لم يجبه، بل بدأ يتمتم بكلمات غريبة، همس شاتما المخدرات وما

تفعله بعقل الشباب وأكد أنه كان محقًّا بشأن إدمان هذا الشاب...

لم يعره الشاب أيّ اهتمام والتفت ليقابل القصر الذي كان على بعد عشرات الأمتار، تتيره ومضات من البرق المتكرر، تقدم نحوه بخطوات بطيئة مع صوت محرك السيارة مبتعدة، ومخلفة موجة رذاذ الماء والطين تزيد الأجواء سوءًا.

لم يعرف كيف يشرح للسائق حالته؛ فهو متأكد أن السائق يتساءل عن علاقة تربط بين هذا الشخص الرث بذلك القصر الأسطوري..

لا عجب إن ظن أنه مدمن مخدرات أو لص.

خلال لحظات أصبح أمام البوابة، لاحظ وجود لوحة معدنية قديمة يغطيها الصدأ محفورة على الجدّار الرخامي بجانب البوابة "بالتأكيد هذا اسم الشخص صاحب القصر "هكذا تمتم بصوت خافت مع اقترابه أكثر ليقرأ الاسم، تعود ملكيته إلى المرحوم – وبعدها اسم ثلاثي – ". كانت صدمته بوجود اسمه الثلاثي على اللوحة كافية لتنبئه بالمزيد من العجائب، دقق النظر لعله كان مخطئا أو خانه إدراكه "مخلص مخلص منتظر ".

تراجع فزعا بعد محاولته إثبات أنه قد أخطأ وصرخ بسخط:

– تبا، ما هذا الهراء؟

خطر له احتمال أن يكون مجرد تشابه أسماء، هذا إن كان اسمه بالفعل! احتمالات لا تتوقف وضعها عقله أمامه، قد يكون من اتصل به هو من حفر هذه اللوحة قبل وصوله لإخافته، لكن اللوحة يبدو

عليها القدم، رغم كل شيء قاده فضوله لدفع البوابة التي أصدرت صريرًا مزعجًا، وتقدم بخطوات مترددة وبقلق مشى في ممر طويل على جانبيه العديد من الأشجار التي تكاد أن تكون غابة من كثافتها التي تدل على عدم الاعتناء بها منذ زمن بعيد، تمتم باقتناع "هذا القصر مهجور بالفعل يبدو فعلا قصر رجل ميت"

تابع فضوله للتقدم غير مبالٍ بملابسه وشعره المبتلين تمامًا حتى توقف أمام عتبة باب القصر نفسه، بابٌ عملاق مستطيل الشكل كأنه من عالم الأساطير، خفاشان عملاقان على كل زاوية منه، كاد أن يتراجع لكنه وجد بجانب الباب عمودا ذهبيا طوله نصف متر، لفت نظره بريقه بعد ضربات البرق المتلاحقة مما جعله يتقدم ويصعد طبقات العتبة بحذر ويتقدم حتى وصل للباب الخالي من المقابض أو أي جرس ليعلن عن قدوم زائر، اكتملت رؤيته حين شاهد ذلك الحامل الذهبي بجانب الباب مباشرة يحمل مجسما منحوتا على شكل كتاب مفتوح بغلاف أحمر، لم تكن هناك صفحات بل منحوتة كالأوراق تمامًا وترتفع حتى فوق وسطه ليشاهد على الجانب الأيمن حروفا لاتينية ذهبية منحوتة بدقة فائقة، لم يكن عليه التكهن فهو يحفظ ذلك النقش اللاتيني جيدًا ويعرف اسمه "مفيستو". تحسس أطرافه حتى وجد شقا سميكا في الأعلى يحتوي بداخله قلما خشبيًا، في تلك اللحظة داهمه الصداع والدوار، قاوم بشراسة وأخرج القلم ناظرًا في الجانب الأيسر للمنحوت السحري أمامه،

مجاهدا ذلك التعب الذي ينبئ بسقوطه في دوار وغفوة، قاوم حتى لا تبتلعه الغيبوبة والرؤى المرعبة التي يراها كلما غفا، إن مجازفته ووصوله إلى هنا لمعرفة من يكون بثت فيه النشاط والقوة للمقاومة، نظر لما هو مكتوب ومنقوش في هذا الجانب، "توقيعك هو مفتاح عبورك"ووجد ورقة صغيرة ملتصقة كأنها منحوتة صفراء اللون، كُتِب عليها "التوقيع "وأسفلها مكان فارغ يتسع لاسم ثلاثي...

وقف مترددًا قليلًا ثم أخذ القرار، وذيل الورقة التي تشبه الجلد عندما اقترب منها ولامس كفه سطحها بتوقيعه، بعد أن انتهى من ذلك سمع صوت الباب يفتح ببطء وتوقف عند حيز يسمح لمرور شخص، وقف قليلًا، مال بجسده ألقى نظرة فاحصة إلى ما داخل الباب العملاق المفتوح على بعد خطوات قليلة منه..

من مكانه لمح أضواءً وبهؤا عملاقًا على جانبيه تماثيل عملاقة كأنها منحوتة من عصور سحيقة بأشكال شيطانية متعددة متراصة على الجانبين منها بقرون والآخر بذيل وأنياب، الأرض تفترشها سجاجيد حمراء، كل هذا لمحه في الثواني التي تأمل بها المكان، صوت الرعد دفعه للدخول مسرعا، توجس خيفة متلفتا يمينه ويساره، نفض ملابسه المبتلة، لكنه لم يجد أحدًا من حوله!

توقف عن نفض ملابسه إذ سمع صوت إغلاق الباب الذي دوى بعنف لينظر خلفه محاولًا أن يتراجع لكن قد فات الأوان وأصبح باب التراجع مغلقًا كما رأى، استدار للأمام مرة ثانية فوجد شخصًا يقف

أمامه مباشرة مبتسمًا ليتراجع بطريقة تلقائية وقد ندت منه شهقة لظهوره من العدم فجأة، نظرات الرجل الهادئة وابتسامته لم تدم طويلًا، أمره بجملة واحدة بأن يتفضل معه ويتبعه وتحرك موليًا له ظهره، تقدم ببطء ليعبر الممر الطويل المفروش بالسجادة الحمراء تتراص الأعمدة الغريبة التي تزينها أشكال الشياطين، انتظر برهة يتأمل خطوات الرجل الذي يرتدي بذلة رسمية سوداء بكل متعلقاتها عدا شعره الأبيض، تأمل أن يتوقف قليلًا ويلتفت له، لكن مع استمرار تقدمه البطيء الرتيب، وجد نفسه يتبعه رغمًا عنه، فلا مجال للاختيار، يجب أن يفهم!..

كان الشاب يتقدم بخطوات بطيئة خلف الرجل، مذهولًا من كثرة التماثيل وتنوع أشكالها وطول الممر الممتلئ بها على الجانبين، ولفت انتباهه المرايا في أسفل كل عمود بطول الشخص تقريبًا، ومع اقتراب نهاية الممر كانت الرسومات على السقف من أشكال شياطين وبشر بأجنحة ملاك ومخلوقات أخرى غريبة خليط مشوه لكنها كانت تخطف لبّه فيمشي مسحورًا مأخوذًا بدقة صنعها...

توقف الرجل عند الباب، فتوقف الشاب لينزل ببصره نحو الباب الذي يبعد خطوات ولا يدري لماذا طرف عينيه ذهب لآخر مرآة في العمود الذي يحمل تمثالًا لشيطان برأس ماعز، نظر إلى نفسه وتوقف، فهو يكاد لا يعرف نفسه، تقدم نحو المرآة متأملًا معطفه الرث الذي يرتديه على صدرٍ عارٍ، وشعره الأسود المبلل، وجسده

الهزيل الذي ينتابه الضعف، أمعن النظر في ملامحه التي تدل على أنّه شاب مراهق لم يتعدّ العشرين عامًا.

في تلك اللحظة حين شرد ببصره متأملًا تفاصيل وجهه وعينيه الزرقاوين باغتته رعشة واجتاحه صداع رهيب مما جعله يرخي إحدى يديه على زجاج المرآة تحسبًا أن يجتاحه الدوار فجأة ويسقط، لكن الرجل دعاه لاتباعه للغرفة التي فتح بابها، فأفاق الشاب مما فيه، وكأن صوت الرجل قد أزال الصداع اعتدل مستعيدا وعيه وتقدم ليتبع الرجل إلى داخل الغرفة العملاقة الأخرى التي تشبه المسرح، طرد خارج عقله تلك الفرضيات المحيرة بخصوص الرؤى المشوشة التي تصطدم بمخيلته لمشاهد لا يعلم عنها شيئًا، دُهش لرؤية منصة كبيرة مرتفعة عن الأرض بعدة أمتار في نهاية الغرفة، ومغطاة بذلك اللون الأحمر الذي يفرش الأرضيات، والستائر خلف المنصة ليبدو كأنه في مسرح مصغر بدون مقاعد متفرجين في منتصف الغرفة، أمامه كرسيان مكسوّان باللون الأسود.

عظمة المكان والجو الساحر جعله لا يشعر بغلق الباب خلفه، انقاد مسحورا بتلك التماثيل ذات القرون والمختلطة بأشكال الحيوانات والبشر كأنها نقوش خرجت من كتاب سحر عتيق.

توقف الرجل أمام أحد جانبي الكتاب مما جعل الشاب يتجه للناحية الأخرى وبدون حديث بينهما أشار الرجل إليه بالجلوس ثم جلس أمامه بهدوء وثبات واضعا قدما على قدم مثبتا بصره بعينيه

السوداوين ليجلس الشاب شاعرا بتعب شديد وعرق خفيف بدأ يندي من جبينه، عين الرجل ترمقه ببريق ملفت قبل أن يتفوه بصوت به الكثير من الثقة والهدوء والغموض:

- تستطيع أن تسأل ما تريد.

صمت الشاب قليلًا قبل أن يجيبه، حاول أن يتماسك مع شعوره بخمول بدأ يتملك عضلاته، بسبب استرخائه على الكرسي، سأل الرجل بكلمات خرجت بعد نزاع كأنه كان يركض ويتكلم لاهثا..

- أين أنا؟ ومن أكون؟..

ابتسم الرجل الآخر وعدّل قامته، مال نحو الشاب المستسلم لمصيره، ملامحه تدل أنه على وشك الدخول في صراع الدوار والصداع الذي بدأ يجتاحه فعليا.

أجابه الرجل أنهما الآن في قصره!

أنسته الصدمة لثوان ما يمر به، تلفت حوله في موضع استرخائه وخرجت الكلمات بطريقة بطيئة:

- قصري؟ عن أي قصر تتحدث؟ وما هذه اللوحة الهزلية التي حفر عليها اسمي على باب القصر، وكلمة المرحوم أعلاها؟

بهدوء نهض الرجل من مكانه وبخطوات بطيئة اقترب من الشاب المسترخي الذي كان يحاول أن يمنع عينيه من الانغلاق فقال له بصوته الهادئ:

- أراك متعبا جدًا، وبصيرتك مشتتة..

لم يمهله ليتكلم، بعد أن أصبح خلف كرسيه، كانت الآلام أقوى مما يتصور، فاستسلم للأمر ولم يعد يقوى على الحراك وأنفاسه تضيق، يريد المعرفة التي قد تنير ظلمات ذاكرته شبه الفارغة، لم يمنع الرجل أو يقاومه حين وضع كفيه على جبينه يتحسسه بعدما أصبحت عينا الشاب مواجهتين لوجه الرجل الذي يطل من فوق رأسه، يخبره بصوته الهادئ بأنه يعرف عنه كل شيء لأن بصيرته ورؤيته تأتي من فوق كما يراه الآن، زاده حيرة حين قال إنه قد يخبره عن المستقبل ولكنه لا يستطيع تغيير الماضي، كان يتابع حديثه ويدلك وجه الشاب المستسلم برفق وبهدوئه المعتاد أكمل له:

- تغيير واقعك يعتمد على تغيير مستقبلك الذي رأيته على باب القصر، إن تلك اللوحة في الخارج هي ما ستؤول إليه الأمور بعد ستة أيام من الآن، إن لم تعد مجددا بيننا، توقيعك يحدد اختيارك ومصيرك.

سعل الشاب بشدة وخرج بعض الرذاذ من فمه ليصيب وجه الرجل الذي لم يطرف له طرف، لم تتبدل ملامحه أو وضعه، يتأمله وهو يجاهد بالنظر إليه ويخرج كلماته بشكل عصبي وبصوت متعب:

- لقد اختلط عليك الأمر، من المؤكد أنك خلطت بيني وبين شخص آخر.

توقف لبرهة ثم تابع كأنه ينازع الموت:

- كل هذا هراء، لولا الصدفة التي جعلتني أقيم في ذلك العقار

المشئوم لما حدث لي كل هذا؟!.

تبدلت ملامح الرجل وصرخ غاضبا من فوقه

- صدفه؟ لا يوجد صدفة في عالمنا...

قد تحدث في عالمهم الخفي ولكن ليس بيننا نحن - وأشار بإصبعه للشاب ولنفسه بطريقه سريعة -

ارتجف الشاب لحظتها وسأل بتوتر

- من هم؟! ومن نحن؟!

داهمه صداع مؤلم ضرب جميع أطراف رأسه، وانتفض جسده كأنه على وشك أن يصاب بنوبة صرع.

و قبل أن يقع في الظلام وتنطفئ عيناه كان لا يزال يشعر بكفي الرجل تلامس بشرته ويسمع ضحكته المدوية وإن بدت غليظة وبطيئة تتخلل سمعه، ليتذكر صداها: فهي نفس الضحكة التي ضحكها عندما حادثه في الهاتف.

بدت كلمات الرجل الأخيرة كأنها بعيدة خافتة:

- سأمنحك فرصة لمعرفة من تكون لكن من منظور آخر...

سقط الشاب في فراغ أسود اجتاحه من كل صوب، تبعها غرق في مشاهد من الرؤى التي تنتابه كلما وقع في تلك الحالة. هزات عنيفة تجتاح جسده مع تلاحق المشاهد، فهذه المرة أمامه رجل وامرأة وتلفاز لا يرى ما يعرضه، ليختفي ويظهر قلم خشبي يكتب على ورقة، يخط حروفًا لا يفهمها، تمر سريعًا أمامه، ثم أصوات

موسيقى وصراخ وأعمدة عليها تماثيل شيطانية وأرضيات مترية...

وفجأة انتفض جسده في حالة اللاوعي بسبب تلك المرأة العارية التي تصدمه بقوة بذلك الجسم الصلب، ليفتح عينيه فجأة وقد تبدل المشهد تمامًا، لم يدر كم من الوقت مر عليه في تلك النوبة الملعونة.

اختفى الرجل والبهو ووجد نفسه في قبو مظلم إلى حد ما حتى وضحت الرؤية بعد أن استعاد وعيه جيدًا، ليطلق شهقة قوية، كان لا يزال على كرسيه لكنه مقيد اليدين ومعلق في سقف نفس الغرفة، رأسه متدلٍ يشاهد الأمر من أعلى وكأن أرجل الكرسي ملتصقة بالسقف، ستة أشخاص يصطفون على شكل نصف دائرة أمام المسرح في الغرفة ويعلوهم شخص سابع يبدو أنه سيدهم، جميعهم يرتدون الزيّ الأسود الشبيه بملابس رهبان الكنيسة، لكنه بغطاء رأس أسود يغطى رءوسهم ولا يكشف ملامحهم.

فاغرا فمه بدهشةٍ وشيء من الرعب رغم اعتياده أجواء الرعب والمشاهد الغريبة والهلاوس، كان مستغرقا بفزع يشاهد المنظر من فوقهم مستغربا عدم شعورهم بوجوده لقد تطور الأمر وأصبح أشبه بكابوس داخل كابوس؟!..

صرخ بشدة"من أنتم"..

بعد لحظات من انتهاء صدى صراخه تحدث الشخص الذي يعتلي المسرح وكأن الشاب غير موجود ولا يدركون وجوده. تحدث لهم بصوت يشبه الفحيح به نبرة لا يمكن أن تصدر من بشر عاديّ من

أعلى المنصة، وهم تحته واقفون مطرقو رءوسهم إلى أسفل منصتين ومنتظرين ما سيقوله.

والشاب فوقهم جميعا يتملكه الخوف وذلك الصداع والشلل والدوار الذي يصيبه كل مرة منصتًا مسحورا على وجهه أقسى علامات الرعب مع نبرة الشخص المزدوجة الخشنة الذي بدأ يتحدث بها حديثا مطولًا، لا مجال له سوى أن ينصت له كما هم يفعلون

"الآن سنتم طقوس العهود، قدمنا القرابين ليرضى عنا.. طقوسنا بدأت على هذه البقعة من الأرض والتي بنينا عليها عقارًا شبيها بعقاراتهم، نحن الآن عائلته وإخوة، العائلة

التي عاهدت على خدمته نظير أمنيات تم تحقيقها كما

ذكرت العهود، لن يسكن العقار ويمتلك الأرض إلا من

كان من ذريتنا.

قد ننسى يوما من نحن ولكننا دائمًا نعود للمكان، نحن من نمتلك القوة والعلم والحكمة ومن يفي بعهده، مهمتنا أن نجعل من ينسى منا أن يتذكر، الآن نحن الأقوى وهم الضعفاء..

كلنا أنصاف آلهة الآن، نمتلك مزايا العالمين.. فلنخلد مولد المنتظر.. ونخلد اسم عائلتنا الخالد في التاريخ الإنساني الفاني، ولنبدأ طقوسنا".

بعد انتهاء خطابه خيم الصمت لثوان والشاب من فوق ومع اندفاع الدم في رأسه من هذا الوضع الذي هو فيه، بدأ الدوار يجتاحه وألم

شديد ورغبه أن يمسك رأسه بكفيه، لكنه مقيد عاجز لا يستطيع سوى متابعتهم...

بدأ كل منهم تباعا بجرح يده بنصل أخرجوه من ثيابهم،

كانت الدماء تنزف من كفوفهم الواحد تلو الآخر بلون غامق مقيت ذكر الشاب بلون الدماء التي رآها في غرفته، تابعهم ينزعون أغطية رءوسهم من موضع لا يستطيع أن يرى جميع الوجوه جيدًا، لكنه استطاع أن يلمح الوجه الأول الذي كان للمرآة التي رآها في منزله وعند الطبيب، الثاني كان جاره الذي يسكن أسفله، الثالث كان شعره فقط الذي يراه وبجانبه الطبيب الذي عرفه من ابتسامته ونظرات عينيه له كأنه يراه، حاول الصراخ لكنه لم يقوَ على ذلك، غزى جسده الدوار وارتجف بشدة، وبرؤية مشوشة رأى الشخص الذي يعتلي المسرح بكفه الدامي يشير لهم بالنصل بأنهم يجب أن يسجدوا ويخضعوا لمفيستو الحاصد وتابع حديثه وهم يركعون تحته

– الجنة لكم في عصيانكم والنار الموقدة ستحرق الآخرين، فأنتم أسياد الأرض، أبناء مفيستو.

أنهي عبارته الأخيرة راكعا على ركبة واحدة، نزع غطاء رأسه وقرأ ترانيم بلغة غريبة وبطريقة مخيفة، أطلق الشاب شهقة أخيرة مفزوعا مما رآه، ليس لبشاعة منظر الشخص، لكن انقبض قلبه حين رأى أن ذلك الرجل هو نفسه كأنه يشاهدها من خلال مرآة رغم التشويش الذي يصيب بصره... كان بدأ يشعر بألم في قلبه وضيق في التنفس

مع مرور الثواني وجسده يهتز بشدة كما الكرسي الذي يحمله، في مرحلة الذهاب في غيبوبة والأشخاص من تحته لا يشعرون به وقبل أن يسقط في ظلام الغيبوبة والكوابيس رأى شخصًا آخر يأتي من خلف ستار المسرح يحمل سكينا متجها نحو شبيهه الراكع على ركبته أعلى المنصة، لم يستطع الصراخ أو فعل شيء لأنه أغمض عينيه دون إرادته وسقط في غيبوبة رأى فيها صورًا من ذاكرته لكن هذه المرة كانت الرؤى سريعة مختلطة، أطفال يركضون حوله، المرأة الأوربية والسيدة ذات العطر المميز تشيران نحوه، المرأة العارية التي لا يرى وجهها بسبب شعرها الذي يغطيه، والجسم الصلب في يدها تقترب منه بسرعة شديدة، عندها كان جسمه ينتفض بشدة من هول ما يرى، واختفت الفتاة فجأة واختفت كل الصور...

ببطء فتح عينيه حين تخللها بعض الضوء وشعر بقطرات ماء قليلة تسقط عليه، غمر الضوء عينيه حين فتحهما غير مصدق ما يرى، لم يكن فوقه إلا السماء الملبدة بالغيوم السوداء والتي بدأت بالهطول الخفيف منذرة بمطر غزير على وشك الهبوط.

قفز من مكانه بسرعة ليكتشف أنه جالسٌ على صخرة بحجم كرسي بلا ظهر؛ تلفت حوله بقلق شديد، لم يجد شيئًا سوى الخواء، أرض فارغة من كل شيء، لا شيء سوى صحراء وسماء ومطر وهو فقط!

كيف أتى إلى هنا؟ هل مشى أثناء نومه؟ أم أنهم قد اختطفوه

ووضعوه ها هنا؟

أسئلة راودته بلا إجابات، أمسك رأسه والتفت بذعر، حتى رأى شيئًا من بعيد، لمح إضاءة سيارة متجهة نحوه، توقفت قبله بعدة أمتار، خرج السائق من السيارة واقترب من الشاب ينادي بصوتٍ عالٍ:

– يا باشا أنا سائق التاكسي الذي أوصلك، لقد أقلقني أن أتركك في هذه الصحراء المقطوعة الجرداء؛ خاصة عندما رأيتك تتلفت كثيرًا وتتوغل في الفراغ داخلها حتى ابتلعك الظلام.

لم يستوعب الشاب ما يسمعه كان يترنح وقد أصابه الغثيان وألم شديد في سائر جسده، لكن صوت السائق طمأنه وأخرجه من الحالة التي كان فيها..

توجه إلى السائق بكلمات بدت متزنة:

– هل تستطيع أن تعود بنا من حيث أخذتني إن سمحت؟

كانت إجابة السائق سريعة ومختصرة بالموافقة على إرجاعه، لوان قليلة من الصمت، وهما ينظران لبعضهما البعض،

ألقى نظرة أخيرة على الصخرة التي كان يجلس عليها، وسار بخطوات بطيئة نحو السيارة التي سبقه السائق إليها، وخلال تحركه كانت الأسئلة الكثيرة تدور في رأسه ككواكب شمسية في مدارها.

استنتاجات ونظريات وأسئلة لا إجابات لها تشفع لكل ما مر به، كلما حاول ربط الخيوط ببعضها تصبح الأمور ومحاولة معرفة من يكون متشابكة وتزداد غموضًا وتعقيدًا أكثر معه.

توقف عن وضع الفرضيات والتفكير العقيم، لم ينظر نحو السائق ولم ينبس بكلمة، نظر أمامه، رمقه السائق للحظات قليلة في لحظة تحرك السيارة وانطلق بسرعة في الطريق الصحراوي ليمر الوقت سريعًا لم ينطق أحدهما بكلمة، مجرد نظرات اختلسها السائق نحو الشاب من مرآته، أبطأ قليلًا عند وصوله إلى الطريق الرئيسي المؤدي للعمران...

كان الصمت مخيما على الأجواء، حاول السائق في البداية أن يتكلم معه وأن يقطع حالة الصمت في السيارة، فعلامات القلق والشرود على وجه الشاب كانت تقلقه، سأله إن كان يتعاطى المخدرات لكن الشاب لم يعره اهتمامًا ولم يظهر عليه أنه سمع السؤال...

كرر السائق محاولاته في استنطاق الشاب بأسئلته اللحوحة، سأله ماذا كان يفعل هناك، وإن كان متأكدًا أنه بخير، وعن حاجته إلى طبيب أو الذهاب إلى المستشفى..

إلا أن إجابة الشاب عندما التفت إلى السائق بهدوء، أسكتت ثرثرة السائق بقية الطريق:

- لا تقلق سأعطيك المال على هذه الخدمة، بعض الأوقات يحتاج الإنسان أن ينفرد مع نفسه في الخلاء، قد يحمل عقلك أشياء كثيرة ولا تستطيع أن تكشفها على الملأ، تحتاج للخلوة، قد لا يوجد هناك مصادفة، كل شيء قد يكون مرتبا وأنت لا تعلم.

سكت لبرهة وأشار للطريق ومنبها السائق بأن عليه الانتباه في

قيادته للطريق فالطقس سيىء، ويجب أن يركزا سويًا في القادم وأنهى كلامه برجاء بأنه يريد الوصول للمنزل في

أسرع وقت ممكن.

عاد لوضعه السابق وأرجع كرسيه وأغلق عينيه، فأطبق السائق فمه ولم يتفوه بأي كلمة حتى وصوله إلى العقار..

دفع الأجرة بزيادة عما سجله عداد التعريفة داخل السيارة.

لم يتحدث ولم يتكلم السائق، استلم المال وانطلق بسيارته حتى اختفى عن نظر"الشاب"الذي استمر لدقائق لم يحرك نظره عن الطريق الذي ذهبت فيه السيارة..

كانت الشمس قد أشرقت لكن حجبتها الغيوم، عند وصوله للعقار انقشعت غيمة كبيرة لترسل الشمس بعض الدفء الذي لم يصله من ملابسه المبللة تمامًا وشعره الذي التصق بجبهته من البلل..

دخل البوابة وبجهدٍ صعد الطوابق الثلاث مع توقف للحظات في الطابق الثاني متأملا باب شقة جاره مدرس الموسيقى...

وجد صاحب العقار عند باب شقته في هذا العقار الملعون الذي شاء القدر أن يكون الساكن الوحيد في شققه الست.

تكلم المالك بسرعة بصوت أجش مميز يخرج من عجوز في منتصف عقده السابع:

عشر دقائق وأنا واقف أمام الشقة، ضغطت على الجرس كثيرًا، لقد قلقت عليك منذ أمس عندما أتيت ليلًا ولم أجدك.

اقترب الشاب من باب شقته بصمت ليفتحه، وقبل أن ينطق بأي كلمة تابع كلامه متراجعا للخلف قليلًا ليفسح للشاب طريقا ليفتح بابه:

ـ استغللت فرصة استيقاظي مبكرا وجئت للاطمئنان عليك وأحضرت معي المال الذي دفعته إن كنت قد قررت ترك العقار.

كان الشاب قد فتح الباب سريعًا وأشار للمالك مُرحبًا، وبكلمات مقتضبة استأذنه ليذهب لتغيير ملابسه المبتلة ويتحدثا سويًا قليلًا لأنه بحاجة لمعرفة أشياء كثيرة منه.

رحب صاحب العقار بالفكرة وتقدم إلى الداخل متكئا على عصاه حتى وصل للأريكة، جلس متأملا خطوات الساكن المسرعة داخل الممر متجها لغرفته حتى غاب عن نظره، مرت دقائق قليلة عاد بعدها الشاب مرتديا بذلة رياضية حاملا في يديه زجاجتين من المشروبات الغازية وضع إحداهما أمام المالك وجلس بجانبه على الأريكة.

التقط طرف الخيط هذه المرة، وتحدث بهدوء بينما يقدم زجاجة مياه غازية له وأخبره بأنه محتاج عدة أجوبة لأسئلة حول العقار ونشأته وعن سكانه وحوادثه الغريبة، لم يمهل صاحب العقار للحديث بعد إشارة من رأسه بالموافقة وهو يتابع سريعًا يقص له كيف وجد تلك الرسالة المذيلة باسم بهنساوي ورقم هاتف مفيستو. عرض له الصور التي وجدها في الشقة رقم "٤" الخاصة بالطبيب، واستمر بالحديث عما رآه في أحلامه وكوابيسه، استرسل في الكلام وقتا طويلًا دون أن يوقفه صاحب العقار رغم توتره في القص غير

المرتب، يعتصر رأسه ليتذكر كل تفصيلة رآها منذ قدومه للعقار حتى مغامرته في الصحراء لم ينسَ أن يقصها.

كان صاحب العقار يتابعه وعيناه تلمعان بنظرات دهشة ويقين من شيء كان يعلمه وانتظر إجابته.

كانت الأسئلة متلاحقة، "من يكون "مفيستو "؟ ما هذا القصر والرجل الذي رآه في كابوسه؟، ومن هؤلاء الستة؟ وذلك الكتاب الأحمر الذي وقع عليه؟

وكان آخر سؤال قبل توقفه عن الحديث تمامًا "من أنا؟ "

تأمل صاحب العقار بحيرة منتظرا إجابات لأسئلة تدور في عقله بلا توقف، كان الآخر بدوره ما زال ينظر إليه ويشرد لبرهة ببصره إلى الساعة التي قاربت على الثامنة صباحًا ولم يشعر بكل هذا الوقت الذي أخذه الشاب في حديثه السابق مما جعله يعدل من جلسته ويصبح في مواجهته...

بدأ العجوز حديثه طالبا من الشاب عدم مقاطعته.

روى له الأحداث من البداية:

ـ القصة بدأت منذ خمسة وثلاثين عاما أو أكثر بقليل، قبل حرب النكسة بأعوام قليلة، إن ما رأيته ما هو إلا البداية وعليك ألا تدهش، فمن كان يحمل الكتاب الأحمر على المسرح ويشبهك ليس أنت، وهذا الذي في الصور ليس أنت، فأنت وقتها لم تكن قد ولدت. تابع اندهاشه بتلك المعلومات التي انهالت عليه دفعة واحدة،

استمتع بمراقبة دهشته حين أكمل كلامه:

– إنه مفيستو، هو من كان يحمل الكتاب وهو حافظ العهود، إنه والدك، أنت من نسل تلك العائلة الملعونة، أنت من ذرية الملعون!.

صمت قليلًا كمن يبتلع ريقه بعد حديث طويل، يرى علامات الدهشة ما زالت على وجه الشاب لكنه لم يعطه أي فرصة ليعبر عن ذهوله مكملًا حديثه:

– عندما أتيت وطلبت تأجير الشقة لم أرفض ووافقت سريعًا، فملامح وجهك تشبهه تمامًا، كنت أعلم أنك ستعود يوما، فأنا مؤمن بأن العهود تحفظها التوقيعات التي توجد في الكتاب، لا أحد يستطيع أن يهرب من مصيره.

دقائق قليلة مرت خلال توقف الحديث بينهما، وصاحب العقار يتابع بنظراته الشاب الذي فتح فمه من الدهشة ويحاول أن يتكلم لكن الصدمة ألجمته، وحين هم بالنطق أشار له العجوز بأصابعه ليسكت وترجاه بأن يكمل في نفس الطريق فهو الوحيد الباقي منهم ولا ذرية له.

فضفض له وأخرج ما كان يكتمه منذ أكثر من ثلاثين عامًا:

– لقد اتبعت العهود معهم لكني لم أكن مثلهم، فقد كنت أكتفي بالمراقبة والمشاهدة دون أن أفعل شيئًا، إن رؤيتي لما يدور من حولي في صمت هو ما جعلني حيّا حتى الآن، فوالدك كان صديقي قبل مشاركته بناء هذا العقار بالأرض التي تخصني ووالدك شاركني

بجزء من أمواله.

أبوك كان كاتبا مغمورا محبا للخوارق والعالم الآخر، له عدد من الروايات قبل أن ينال الشهرة، ويصبح من أهم كتاب الرعب والغموض، وما يجمعنا سويًا شغفنا بتلك المواضيع وخاصة التي تتحدث عن معاهدات الإنسان مع الشيطان وتحقيق متطلباته..

إن المال والشهرة وحب السلطة والتملك كلها غرائز وشهوات جمعتنا مع الستة الآخرين الذين أصبحوا العائلة والأخوة بعد ذلك، لقد عاهده أبوك بنفسه واستلم الكتاب الأحمر منه، اتخذ لقبه وبنيت هذا العقار بمساعدة مهندسين كنت أثق بهم...

تابع كلامه بطريقته المثيرة للفضول والتي تجعل من ينصت لا يقاطع الحديث، خاصة عندما وصل لنقطة أن أباه كان يسكن في الشقة رقم ستة وآخبره همسا أن أباه كان يأتمنه جدًا على أسراره ويطلق عليه لقب "المهندس الكبير"

كان الشاب منصتًا باهتمام والعجوز يخبره بكل ما حيره طوال تلك الأيام

– لا يوجد شيء هنا يحدث يسمى صدفة حتى مجيئك للعقار لم يكن مصادفة، فوالدك أقنع الجميع حتى هو نفسه اقتنع بأن تلك العهود حقيقة، وكل ما عليهم كان تنفيذها، وبالفعل سبعة توقيعات حملها الكتاب مقابل سبعة أرواح، وكل الرغبات المحققة والخيرات التي تدفقت على الجميع لسنوات طويلة بعد توقيع العقود، كانت

بسبب الولاء وخدمة أبيك مفيستو، لا أحد يستطيع أن ينكر أن والدك خلال عقود طويلة استطاع أن يجعل العائلة تكبر وتزدهر أعمالها كثيرًا ويصبحون من أغنى العائلات في سنوات ليست بالقليلة.

لم يتمالك الشاب نفسه هذه المرة، قاطعه وأوقف حديثه متسائلا – كيف تقول أنه والدي وأنا لا أتذكره، لا أذكر حتى نشأتي ووالدتي، ثم من يكون البهنساوي؟.

إجابة المالك كانت سريعة وخاطفة ألجمت الكلمات في لسانه، وأصابته بالغصة:

– زوجة الطبيب الذي يقطن في الأعلى هي والدتك، صاحبة المعطف. وأشار إلى المعطف الملقى على ظهر الكرسي.

كان الصمت ثقيلا قبل أن ينتفض الشاب ويتحدث منفعلا:

– هذا هراء وهل ينبغي عليّ تصديقه؟ كيف تعرف كل هذا عني وأنا لا أعرف نفسي حتى الآن".

انفعالاته والغضب والخوف الذي تملكه جعل العجوز يمد يده بالمال نحو الشاب ويخبره أنه بإمكانه أن يرحل إن لم يكن مصدقا، فقد أخبره – كما قال – بالحقيقة كاملة دون تزييف أو كذب..

هدأ الشاب من نوبة انفعاله وأبعد المال عنه برفق، أخبره بأنه لن يرحل سيستمع لبقية القصة حتى يعلم من يكون.

ربت العجوز على كتفه وأخبره مبتسما بينما ينظر إلى الساعة التي اقتربت من موعد الظهيرة أن لديه موعدا مهما ولا يستطيع

التحدث أكثر من ذلك الآن...

– قد ننسى من نحن ذات يوم لكننا نعود مرة أخرى لنفس المكان، الكتاب الأحمر سيكشف كل تلك الأمور التي تجهلها قريبًا جدًا.

أنهى حواره وأشار إلى كيس أبيض يحتوي على بضعة ساندويتشات معاتبا إياه بأن الوقت قد أخذهم في الحديث

دون أن يأكلوا ما أتى به، تحرك العجوز من مكانه متجها نحو الباب، وقبل أن يفتحه توقف قليلًا وأخبره أن "البهنساوي كان يحارب أباه دائمًا في صفقات الأراضي وحاول شراء الأرض التي عليها العقار منه أكثر من مرة، وأنهى حديثه وهو يشير إلي مكتبة بدرج في الممر:

– هناك في الدرج يوجد خمسة مفاتيح تخص باقي الشقق كنت قد تركتهم عندما كنت أبيت بعض الليالي في هذه الشقة...

وآخر جملة ظل صداها في أذنه وصوت الباب يغلق معلنًا رحيل صاحب العمارة

– عندما تجد الكتاب ستدرك كل شيء، لن يجده إلا من كان من صلبه.

بعد خروج الرجل واختفاء صوت عصاه تحرك الشاب كأنه منوم مغناطيسيا ليسير حتى الدرج الذي أشار إليه، فتحه وأخذ يتأمل المفاتيح، ذهبت يده مباشرة للمفتاح الذي يحمل رقم ٦ وعليه اسم "مفيستو".

أخذ سلسلة المفاتيح وجلس يفكر على الأريكة فيما قاله صاحب العقار، أمور كثيرة وأسئلة محيرة دارت في مخيلته جعلت عقله يشت

من التفكير، هل هو ابن من تحالف مع الشيطان بعهود جهنمية؟!..

والدته هي زوجة الطبيب ولكن كيف وهي متزوجة بآخر؟!

أم إنها كانت زوجته وتزوجت الطبيب فيما بعد؟..

إنه على وشك أن يفقد عقله من الحيرة، يؤكد لنفسه أن المالك يعرف أكثر مما أخبره، إنه متيقن من ذلك وإلا لماذا دله على سلسلة المفاتيح وكأنه يبعث له رسالة غير مباشرة مفادها أنه سيجد ما يبحث عنه بين خفايا هذه الشقق.

انتبه لصوت معدته التي زأرت من الجوع، ما أخرجه من تلك المعركة العقلية التي أوشكت أن تودي به لجنون أكبر، لم يتأخر ولبى نداءها، فتح الكيس أمامه على الطاولة والتهم ما بداخله في دقائق معدودة وبصره شارد ناحية الطاولة ومع اتساع عينيه فجأة كأن أمرا ما قفز إلى عقله جعله يرجع بظهره ليلتصق بظهر الأريكة متسائلا لم لا يتذكر ماضيه.

نعم فهو لا يتذكر أي شيء، طفولته، سنواته الدراسية، فقط اسمه كما هو متواجد في بطاقة هويته.

أيعقل أن يكون كلام المالك العجوز صحيحًا؟..

أمسك سلسلة المفاتيح وتأملها لفترة طويلة، فعلى كل مفتاح رقم خاص به، لكن عيناه ظلت على المفتاح الذي يحمل رقم ٦، والوحيد الذي لصقت عليه ورقة صغيرة تحوي ذلك الاسم الشيطاني "مفيستو".

إنها شقة من يفترض أن يكون والده كما أخبره صاحب العقار.

قرر حينها أن تكون هذه الشقة أول زياراته..

لم يعطِ نفسه أي فرصة للتفكير، تحرك مسرعا من مكانه وفتح باب شقته، نظر لأعلى قبل أن يغلق شقته ثم بدأ بصعود درجات السلم بهدوء.

الصمت يغلف أروقة العقار، مصباح باهت اللون بين كل طابق وآخر يضفي إضاءة صفراء خافتة ويلقي بخيال جسده على الحائط المقابل، رغم أن الوقت ما زال في الظهيرة في مشهد يصلح لفيلم رعب في ظل هذه الظروف التي يمر بها.. لحظات كأنها ساعات مضت حتى وصل إلى الطابق السادس، وبأصابع مرتجفة أخرج المفاتيح واختار المفتاح المقصود ثم وضعه في المكان المخصص له وأداره، سمع صوت القفل الخافت في ظل الهدوء معلنًا عن فتح الباب والسماح له بالدخول...

دخل متوترًا حذرًا يضع يده على كابس الإضاءة ويضغط عليه، لم يدهشه تصميم المكان المشابه لشقته وكأنه لم يدخل شقة مغايرة، تجول ببصره في الشقة من مكانه ولم يتحرك، مكتبة عملاقة تتوسط المكان، ومنضدة سداسية الشكل لها طابع قوطي وكأنها من العصور الوسطى والأتربة تملأ سطحها وكأن صاحب العقار كان على قناعة ألا أحد سيفكر باستئجار هذا المكان بعد هذه الجرائم البشعة التي تمت فيه.

قاده فضوله الذي يسيطر عليه تمامًا ليبدأ في التحرك ويتجه إلى

غرفة النوم الرئيسية ويفتح بابها، كان صوت الصرير يخترق حرمة المكان بقوة مما جعله يشعر أن المنطقة بأسرها تعرف بوجوده متسللًا، لكنه هدأ من روعه قليلًا فهو يعلم أنه لا يوجد أحد في العقار سواه، وقد سمح له بالتجول كما يشاء.

أضاء الأنوار وبدأ يجول بنظره في الغرفة، شاهد سريرًا مرتبًا بعناية بجواره منضدة صغيرة عليها بعض الكتب وخزانة ملابس.

اتجه أولًا إلى الخزانة وفتحها ليجد بعض البدلات من الموديلات القديمة التي تدل على ذوق راقٍ خلال فترتها الزمنية، لم يطل النظر والتفحص ثوانٍ معدودة وهو يغلق الخزانة مندهشًا لخلو الشقة من الأحياء وأن هناك ملابس ما زالت موجودة في الخزانة.

نظرات متفحصة أخرى كان يوجهها وهو متجه إلى المنضدة التي تحمل الكتب، أخذ يتصفح بعشوائية الكتب الموضوعة عليها..

كانت كتبًا تحمل عناوين متنوعة منها كتب عن الطقس...

وبعضها يتكلم عن السحر وتفسير الأحلام والأبراج الفلكية.

إلا أن ما استرعى انتباهه هو كتاب أسود بغلاف براق رغم الغبار "بلا عنوان".

فتحه بلا مبالاة ولكن اتسعت عيناه رعبًا مما رآه، كان يحمل داخله صورًا قديمة كأنها من قرون مضت تبدو مرسومة كرسومات السحرة بأقلام تشبه الفحم، رجل يشبه الذي استقبله في القصر وهو يشوى حيًا وصفحة بها امرأتان عاريتان تلتهمان قلب شخص

مقطوع الرأس بجانبهما واحدة منهم تشبه زوجة الطبيب أو أمه كما أعلمه صاحب العقار، أخذ يقلب الصفحات سريعًا يحاول أن يقرأ تلك الحروف التي تشعره أنها كتبت بالدم ويصاحبها صور مريعة..

كانت الكتابات تصف كل صورة ومعناها، تعريف كل شيطان واسمه ومهنته وقوته وكيفية تسخيره، ظل واقفًا حاملًا الكتاب يقرأ فيه غير عابئ بالوقت الذي يمر سريعًا وهو مأخوذ من كم المعلومات التي يقرأها لأول مرة ولكنه يشعر أنها ليست جديدة عليه وكأنه تعلمها من قبل، ظل يقلب في الكتاب حتى صفحته الأخيرة، وعندما وصل للجملة الأخيرة سقط الكتاب منه أرضًا وشهق متراجعا للخلف بعنف من شدة وقع الكلمات عليه فالجمل المرصوصة على الأسطر كانت تقول

"لا أحد قادر على قراءة هذه اللغة والأحرف الشيطانية إلا لو كان من نسل مفيستو"..

هذه اللغة لا يستطيع قراءتها بشر وكل من يحاول أن يقرأ سيرى أوراقًا بيضاء لا غير وكان التعليل بذلك في نهاية الصفحة بأن بصيرة البشر ضعيفة بعكس الشياطين والمنتظر ابن مفيستو"

وضع يديه الاثنتان على جانبي رأسه والدوار والصداع يجتاحانه مثل كل مرة يُفاجأ بشيء، صوت تنفسه المتوتر كان يخترق السكون، وكأنه عائد لتوه من سباق للركض..

هل بالفعل كلام العجوز صحيحًا؟! هل هو من نسلهم؟! هل هو

ابن مفيستو!

بعد امتصاصه للصدمة انحنى لأخذ الكتاب برغم الخوف والرعب الذي تملكه بعد قراءة آخر كلمات الكتاب، في قرارة نفسه فكر بأنه يجب أن يكمل قراءته ليفهم ما كان يفعله المدعو والده.

كان مصرًا أن يعرف من هو وما هو ارتباطه بهذا العقار.

خرج من الغرفة يكاد يسقط من الإعياء، كان ينزف عرقًا من كل جزء من أجزاء جسده وذلك الإرهاق الذي يحل على بدنه عنوة أنبأه بأنه على وشك أن يدخل في نوبة غيبوبة وهلوسة معهودة، تلك الحالة التي تلاحقه دائمًا، وبمجرد خروجه توقف وقد انتصب شعر مؤخرة رأسه من الرعب..

الشخص الذي وجده يجلس على المنضدة السداسية ينظر له ويبتسم جعله يتسمر في مكانه فهو ما زال يذكر مظهر ذاك الشعر الأبيض جيدًا، هذا الرجل شاهده في القصر وإن لم يتبين ملامحه جدًا وقتها، لم يدرِ ماذا يفعل؟، هل يتراجع إلى داخل الغرفة ثانية أم يبادره بالهجوم؟ وكأن الرجل سمع ما يدور في رأسه بل يكاد يقسم أن الرجل سمع ما دار داخل رأسه عندما تحدث له بهدوء وبصوت به بحة مميزة:

- لا يجب أن تخاف أو تتراجع فأنا هنا لكي أساعدك على معرفة نفسك، اجلس لأن الحديث سوف يطول.

وأشار له بالجلوس بجانبه، تحرك الشاب من جموده بعد جملة

الرجل الأخيرة، واقترب بتوجس وريبة من المنضدة ببطء شديد، الإغراء في حديث الرجل الذي سيخبره بما يريد معرفته كان أكبر من خوفه وفزعه، جلس أمامه تفصل بينهما المنضدة، كان قابضًا على الكتاب بشدة وكأنه لا شعوريًا يستمد منه الحماية.

نظر الرجل بدوره إلى الكتاب ثم قال له:

- أرى أنك وجدت الكتاب، بل أراهن أنك استطعت قراءته وفهم ما هو مكتوب فيه أليس كذلك؟

كانت إجابته سريعة وحذرة حين سأله عن سر تأكده الشديد من هذا الأمر...

ضحكة الرجل جعلته يبتلع بقية الكلمات وينصت بشغف:

- سر تأكدي من ذلك أن ملامحك تشبه أباك، بل حتى تصرفاتك وحذرك وريبتك من كل شيء متطابقين معه.

لا تهتم فمع الوقت ستكتشف كل شيء بمفردك، فورًا ما نرتديه تظهر الحقيقة المخبأة.

كان ينظر له الشاب بتساؤل عما يعنيه، ولكن الرجل بسرعة سبقه في الكلام وتابع:

- التوقيع في الكتاب الأحمر كان غلطة شنيعة...

وقبل أن يقاطعه أوقفه بإشارة من يده وهو يكمل:

- إنها غلطة ستفتح عليك أبواب الشياطين لقد أصبحت روحك ملكًا لمفيستو كما كانت روح أبيك من قبل.

تحدث الشاب متلعثمًا، في محاولة لينتصر على ذلك الدوار الذي بدأ يزداد، وسأل الرجل بنبرة قلق:

- من يكون مفيستو؟، فقد سمعت ذلك الاسم كثيرًا منذ أن وطئت العقار ولا أعلم عنه شيئًا.

نظر له الرجل مليًا وكأنه يستشف إن كان يسخر منه أم يتكلم بصدق، ولكن نظرات الفتى الزائغة جعلته يتأكد أنه لا سخرية في الأمر!.

فكانت أجابته سريعة بعد لحظات التأمل بينهما قال له:

- إنه "مفستوفيليس"الشيطان الذي يظهر في هيئة مسربلة بالسواد ودائمًا يحمل الكتاب الأحمر اللون ليوقع فيه الأشخاص الذين يبيعون أرواحهم له كما فعل والدك وجميع العائلة، هل علمت الآن من هو مفيستو؟!.

نظر له الفتى بإعياء شديد وهو يقول:

- لو كان ما تقوله صحيحًا فما علاقتي أنا به؟، والدي كان بشريًا وكذلك والدتي واسم مفيستو أظنه لقب أطلق على من تدّعون أنه والدي، ليس أكثر من ذلك.

ضحك الرجل ضحكة عالية ولكنه قطعها فجأة وقد تحولت ملامح وجهه من البشاشة إلى الغضب، يحدثه بنبرة ممتزجة بالسخرية من سذاجته التي تظهر عليه:

- والدك لم يكن إلا مجرد جسد بشري يسكنه الشيطان الذي قد وهبه هيئته.

والدك الحقيقي من أعطاك مميزاته وإلا عليك أن تخبرني كيف قرأت الكتاب الذي بين يديك؟ وكيف عثرت على العقار؟..

ألم تره عند زيارتك للقصر؟

أنت مجرد وعاء خارجي فارغ سيكتمل ويمتلئ عندما تبصر الحقيقة بعينيك، فهذا اللقاء الثاني فقط بينهما.

كاد عقله ينفجر، لاسيما في حالة الإعياء التي تنتابه، كيف لهذا الرجل الغريب أن يعرف كل ما حدث! وكل ما يشعر به بداخله، نبهه عقله في لحظتها أن هذا الرجل ليس بشريًا بدوره، بل إنه يراهن بروحه على هذا...

قاطع تفكيره صوت الرجل بنبرته الغاضبة:

- من أشهر ستة سيأتي ميلاده المجيد وستدب فيه الحياة، وستأتي فترة يرحل بها ثم يبعث من جديد، سيكون منهم وليس منا.

هنا لم يحتمل الفتى ولم يستوعب ما يقوله وقد بدأ جسده ينتفض للحظات، صرخ في وجهه:

- هذه هي المرة الثانية التي تردد فيها كلمات غير مفهومة..

إما أن تفسر أو لتصمت وكيف تعلم ما رأيت في هلوستي؟!

بدون أن تبدو أي علامات انفعال نهض الرجل من مجلسه بهدوء وثقة والشاب أمامه يريح كفه غير المتشبثة بالكتاب على المنضدة كأنه يقاوم ألمًا شديدًا قد أتاه بغتة، وكان صوت الرجل بدأ يصل إلى مسامعه بإيقاع بطيء من شدة الصداع والدوار الذي يأكله من

الداخل بقوة:

- لا أستطيع هذا ولا ذاك، تفسيري سيضللك، وصمتي سيؤذيك، أنت قادر على التفسير وحدك، صدق أحلامك أو هلوستك كما تحب أن تسميها لكن عندما يتبين أن كل ما تشك به هو اليقين ذاته، وقتها فقط ستعلم من أنت.

ساد الصمت إلا من أنات الشاب الذي قارب أن يسقط رأسه على المنضدة، يضغط على صدره بالكتاب محاولًا أن يتنفس والرجل يميل نحوه غير مبالٍ بما يحدث له، همس بأن الكتاب الذي معه سيفسر له الكثير من الأمور، وقد تكون هذه أعراض حالة حضورهم عندما يقومون باستحواذ الجسد، وأخبره أيضًا مواصلًا همسه واقترابه منه حين سقط في نوبة من نوباته:

- لا أحد منا استطاع قراءة أو رؤية ما يحتويه هذا الكتاب من قبل وجميعنا نؤمن أن الذي يستطيع فعلها سيكون المنتظر.

من مسته الشياطين بسحرها ورؤاها.

صرخ الفتى بقوة، وسقط على ركبته مغلقًا الكتاب وبدأ جسده يرتعش، ضغط بكفيه على رأسه بقوة من شدة ما يشعر به من ألم وخرجت كلماته متقطعة:

- عن أي منتظر... - وأكمل وهو يحاول أن يخرج الكلمات سليمة ويلتقط نفسه الذي بدا يضيق -

- من أكون وكيف رأيتك في القصر مع والدتي ووالدي وجميعهم

أموات منذ سنوات.

- من قال أن من يكون من نسل الشياطين لا يرى الأرواح المعذبة؟ أنت منهم لذلك أنت تستطيع، فقط تحتاج محفزًا لعقلك لتتذكر كل شيء.

قالها الرجل بعدما أصبح أمامه وكأنه يعلم أنه لن يتحرك أو ينهض، ابتسم وقال له إنه كان سعيدًا بلقائه ويتمنى مقابلته ثانية عندما يدرك من يكون.

وقبل أن يلتفت ويرحل بخطوات غير ثابتة أخبره بنبرة صوت مزدوجة هامسة ومخيفة:

- لماذا لم تستنتج أنك من المحتمل أن تكون روحًا معذبة وهائمة فارّة من جسد شخص ميت!

تردد صدى ضحكاته واتجه نحو الباب تاركًا الشاب يتابعه ببصره لا يقوى على الحركة، وقد أحس بالبرودة تسري في أوصاله وبدأ الارتجاف يتزايد ويضربه بقوة شديدة ليطرحه أرضًا كالممسوس، رأى الرجل وقد وصل للباب وغادره سريعًا وقبل أن تظلم الدنيا في عينيه كان يؤكد داخل نفسه أنه ليس شبحًا هذه المرة، فهو رآه قبل أن تأتيه النوبة ولاحظ خطوات يصاحبها العرج في إحدى قدمي الرجل قبل أن يغرق في غيبوبته ويصل إلى قاعها المعتم تمامًا.

لم تداهمه المشاهد المتعاقبة التي تعود أن يراها، فهذه المرة شاهد مباني أوروبية ووجوهًا غربية تمر أمامه ثم تلك المرأة العارية التي تقبع فوق صدره تقفز فجأة أمامه ويعقبها جسم صلب يهوى

عليه ليفتح عينيه وكان على الأرض في الشقة والباب أمامه مفتوح على مصراعيه...

حاول النهوض، وبعد عدة محاولات استطاع أن يقف، التقط الكتاب والتفت حوله بعد أن رحلت عنه الأعراض التي تنتابه فجأة في أوقات مهمة، تحرك مسرعًا رغم الضعف والتعب الذي يشعر به، وزاده عطش شديد كأنه كان صائمًا لأيام، عبر الباب سريعًا وهو يفكر إن كان قد غاب عن وعيه لدقائق أم ساعات...

نزل مسرعا على درجات السلم، وقبل أن يكمل نزوله من الطابق الخامس اصطدم بشخص لم يتبينه، الإضاءة ضعيفة، لذلك ارتسم الفزع على ملامحه، دقق النظر أكثر ليعرف أنه صاحب العقار، تنهد لبرهة وسأله نبرة قلقة وصوت مرهق إن كان رأى شخصًا يهبط أو يصعد منذ قليل أو حركة غير طبيعية في العقار.

إجابة صاحب العقار النافية جعلت الشاب ينظر له بريبة ويسأله عما يفعله في هذا الطابق.

ضحك العجوز وقال له إنه رغم وقاحة السؤال وكأن صاحب العقار لا يحق له التجوال في عقاره كما يشاء إلا إنه سيخبره.

أخفض الشاب رأسه خجلًا لسؤاله واستمع له:

- أحسست بالذنب بعد مغادرتي لك آخر مرة لأني لم أمهد لك المفاجأة الخاصة بوالدك ووالدتك، شعرت أن لابد من الاطمئنان عليك، وعندما صعدت إلى شقتك وطرقت الباب ولم يفتح، أتى إلى

ذهني أنه قد تكون في إحدى الشقق الأخرى.

شرد الشاب ببصره لبرهة بعد أن أنهى صاحب العقار كلامه ثم تنهد معتذرا عن سؤاله بهذه الطريقة:

- إن ما يشغل بالي هو رؤيتي لرجل أعرج ذو شعر أبيض في الشقة بالأعلى.

اتسعت عينا العجوز ودق عصاه على الأرضية عدة دقات وسأله عن مواصفات الرجل..

أجابه بدهشة مستغربًا هذا الاهتمام المفاجئ؟!..

لكنه علم عندما ابتلع صاحب العمارة ريقه وأخبره بصوت هامس أن هذه المواصفات هي لشخص واحد فقط يعرفه.

لم ينتظر من الشاب أن يسأله من يكون وتابع بنفس وتيرة صوته الهامس الغليظ بأن هذه المواصفات تعود إلى المهندس، الذي انتحر شنقًا في شقته قديمًا...

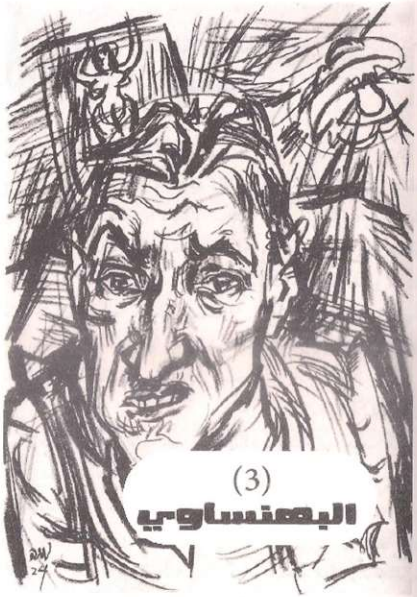
(3)
البهنساوي

الفصل الثالث
البهنساوي

كان وقع الكلمات على الشاب كالصاعقة بعد أن أكد صاحب العقار بأن الشخص الذي يسأل عنه مات مشنوقًا في شقته منذ عشر سنوات تقريبًا، كاد الكتاب الأسود أن يفلت من يديه قبل أن يستعيد توازنه في لحظات وصاحب العقار يتابع حديثه بصوته الهادئ الذي لا يبدو عليه أي انفعال رغم شدة نبرته وقد أشار للشاب بعصاه مشيرًا لينزلا كي يذهبا إلى المقهى خاصة أنها ما زالت التاسعة تقريبًا، صمت ونزل أول درجة مشيرًا له أن يتبعه بنبرة آمرة:

- من الضروري أن نتحدث عن الأمر هناك، فالقصة طويلة وتفاصيلها متعبة.

بدأ يترنح من الدوار والتعب، وأخذ يسب ويلعن كل ما حدث، كان جسده ينتفض مع كل دقة من عصا المالك التي تدق بإيقاعٍ منتظم يرتجف لها بدنه، تساءل في نفسه عن تلك المدة الطويلة التي تغيب بها عن الوعي في الشقة، كرر المالك دعوته للشاب للذهاب إلى المقهى، فهو يحتاج لتغيير جو هذه البناية، عليه أن يستنشق بعض الهواء العليل في الخارج، وفي وسط الضوء الأصفر الخافت المرتعش وعدم وجود نوافذ على الدرج يكاد الشاب أن يرى ابتسامته

منتظرًا موافقته ونزوله.

تحرك وتبعه رغم الخوف الذي ينتابه من إغماءة أخرى فهو أصبح مشتتًا لا يدري من يكون حتى لا يدري أي معتقد يتبع كل ما يؤمن به أنه يتحدث ويتنفس ويرى ويشعر بالألم...

وعندما صار بجانب صاحب العقار توقف بجانبه وأشار له ليتابعا نزولهما، وسأله عمن كان يسكن في الطابق الخامس.

تحركت العصا وبدأت تدق بإيقاعها الرتيب المفزع أحيانًا، تبعه بخطوات بطيئة أجابه بنفس الهدوء وكأنه كان متوقعًا سؤاله، أخبره باختصار شديد بأنها عالمة آثار وكان لها طفلان أحدهما ولد وقد ماتت هي وأولادها منذ سنوات بعيدة كاد الشاب أن يقاطعه حين شعر بنوبة إعياء قوية ستأتيه مع الدوار والمصاحب بتشويش طفيف في الرؤية، لكن وصوله لشقة الطابق الرابع وتذكره لما حدث له فيها، مع استمرار اهتزاز الأنوار شتتا تركيزه ونسي ما كان سيسأل.

أخبره العجوز أن هذه شقة والدته وزوجها الطبيب العقيم.

وقبل أن يقاطعه تابع كلامه بأن كان لها طفلان أيضًا.

توقف عند هذه الجملة بعدما أصبح بجانب شقة الشاب الذي أنهى الدرجات مستندًا على الحائط مذهولًا يغزو العرق جسده إثر شعوره بالصدمات التي يصاحبها الألم دائمًا وهذه المرة زاد عليهما الجوع والعطش كأنه يفقد سوائل جسده مع هذه الحالة، توقف بجانبه مستندًا للحائط، أخرج مفتاح شقته متسائلًا بوهن وكأن لسانه أصبح

ثقيلًا لا يقوى على تحريكه بسهولة بصيغة استفهامية:

- أحدهما أنا والأخرى أنثى؟! كان يدفع المفتاح في ثقب الباب مترنحًا لم يلمح خلالها الابتسامة التي ارتسمت على وجه صاحب العقار بل وصل له صوته بطيئًا حين فتح الباب محاولًا أن يستعيد توازنه منصتًا لكلماته:

- ذكي مثل أبيك، لأنك فهمت أن المنتظر سيكون ذكرًا وليس أنثى.

لم يفهم المعنى جيدًا ولم يهتم، أشار له بالجلوس وأن ينتظر حتى يدخل الحمام يغير ملابسه ويأكل شيئًا وينزلا مرة أخرى.

بالكاد تماسك حتى لا يقلق صاحب العمارة مما يشعر به من ألم في تلك اللحظة، بدوره رفض العجوز دعوته بأدب ومودة وأخبره أنه سينتظره في المقهى.

وتحرك دون أن ينتظر إجابة منه هابطًا الدرجات بسرعة أدركها الشاب من صوت طرقات العصا السريع وخطواته تلتهم الدرجات بسرعة حتى تختفي من مسامعه.

مازال شاردًا في الفراغ على عتبة بابه ليفيق من شروده على صداع شديد يباغته فجأة جعله يغلق عينيه من قوته، ليدلف إلى الداخل مسرعًا ويغلق الباب بعنف وضربات قلبه تتسارع بقوة وأنفاسه تطبق عليه بعنف حتى أنه لم ينتبه لسقوط الكتاب من يده.

كان يحاول أن يذهب إلى الأريكة التي تبعد أمتارًا قليلة عنه، لكنه كان يسير بصعوبة، ومع استمرار ارتعاش المصابيح الكهربية

بإيقاع متكرر حتى انقطع الضوء لثوانٍ قليلة ثم أنارت الأضواء المنزل مرة أخرى، رأى تلك المرأة أمامه على بعد خطوات...

قبض بكفه على قلبه بشدة وجلس في وضع الركوع في حالة تطورت وأصبحت نوبتها أشد قوة وفتكًا، ركضت المرأة نحوه بسرعة، أمسكت رأسه بكفيها، بدأ جسده في التشنج والتقوس مع ارتعاش الضوء مرة أخرى، قربت وجهها نحوه، وبصوت لا يخلو من نبرة الغضب حدثته ويداها ترجعان للخلف، بينما يتشنج جسده مثل ما يحدث في طقوس طرد الشياطين، وكأن جسده لم يعد ملكه:

- ما زلت تريد أن تعلم الحقيقة يا ابن الشيطان مفيستو.

كان هذا آخر ما سمعه قبل أن تصبح عيناه بيضاء، ورأسه في يد المرأة ليعم الظلام مع صوت ارتطام جسده في الأرض فاقدًا للوعي..

فتح عينيه مرة أخرى بعد وقت، كانت الرؤية مشوشة لثوانٍ عديدة، تلفت برأسه يمينًا ويسارًا ليكتشف أنه مقيد في وضعية الصلب على قائم معدني يتخذ نفس الشكل في شقة تشبه شقته تزين حائطها صور لراقصة، نقل بصره في أنحاء الشقة حتى وقعت عيناه على تلك المرأة التي قال له العجوز صاحب العقار أنها أمه، وقفت على مقربة منه وفي يدها الكتاب الأسود، وبجانبها ذلك المهندس الأعرج الذي قابله في شقة والده وامرأة أخرى تشبه التي يراها في الصور التي على الحائط، وقبل أن يتفوه بكلمة كانت المرأة قد انتبهت لاستيقاظه وشقت كلماتها السكون، نظرت له نظرات ثاقبة:

- إن ابن مفيستو الملعون استيقظ، هيا دعونا نبدأ الاحتفال سويًا.

ملأت صرخاته المكان بعد استعادته قوته، يشاهدهم بنظرات رعب بعد أن صمتت المرأة ودخان الراقصة التي تدخن يسبقهم ويتبعونه ثلاثتهم ببطء، أمامه على بعد أمتار في بهو شقة أدرك من الصور المعلقة بجانبه أنها شقة الطابق الأول.

كانت فارغة وصدى خطواتهم البطيء المنتظم يفزعه كلما اقتربوا منه، استمر في صراخه ورذاذ ماء يخرج من فمه، يكاد أن ينهار بكاء، متسائلًا بنبرة مرتجفة خائفة حول من يكونون وماذا يريدون.

لم تمنع توسلاته تقدمهم نحوه حتى أصبحوا أمامه تمامًا تتقدمهم المرأة، ومن خلفها الراقصة والمهندس ينظرون إليه بغضب، وهي ترفع الكتاب أمام عينيه وتشير له تسأله عما يراه في تلك الصفحات...

رأى المهندس برسم يشبهه مشنوقًا يتدلى من على سقف وهي تقلب الصفحات أمام عينيه ليرى رجلًا آخر يحترق وآخرى مصلوبة تشبه تلك الراقصة أمامه في نفس القائم المقيد إليه، والنيران تلتهمها، والمرأة تكمل تقليب الصفحات وتتحدث بعصبية تقول إنه مثل والده، وحده من يرى الرسومات والتعاويذ والطلاسم المكتوبة داخل الكتاب الأسود، واصلت كلماتها ونبرات الغضب تزداد حدة:

- لقد رسم تعاويذه وطلاسمه قبل أن نقتله.

وقبل أن يصرخ الشاب مرة أخرى أو يتكلم وضع المهندس بحركة

سريعة قطعة لاصق سوداء على فمه وأعقبها بأخرى على أنفه، والمرأة تتابع حديثها غير مبالية بما يحدث أمامها:

- خدعنا أبوك وجعلنا نوقع على الكتاب الأحمر، ونعاهد مفيستو بخدمته وعبادته مقابل أرواحنا، ولنا النعيم للأبد طالما ننفذ شروطه وقوانينه.

صمتت لبرهة تراقب الشاب الذي يحاول أن يصرخ وعيناه محدقتان فيها وجسده ينتفض بقوة لأنه يختنق ويحاول أن يتنفس، رمقته للحظات بنظرات غير مبالية بما يحدث له وتابعت بلكنة بها حسرة:

- لقد تم خداعنا ووقعنا على الكتاب الذي يملكه والدك، ولا يعرف مكانه سواه لقد عشنا معه سنوات رغد ونعيم ولكن عندما زادت المطالب حاولنا أن نتراجع عن تنفيذها؛ فأرانا أبوك ومفيستو الذي لم نره أبدًا وفتح جميع أبواب الجحيم.

اقتربت منه وأخذت تضرب بالكتاب على صدره وتتحدث:

- أبناؤه كانوا ستة، والمنتظر سيخرج بعد ستة، هذه هي علامات الشيطان وللأسف لم ندرك بعد موته وموت الخمسة أين اختفيت أنت، لقد فهمنا متأخرًا أن من يبيع روحه للشيطان يخسر دائمًا، ولكن عليه التأكد أن الأرواح المعذبة ستنتقم من ابنه كما فعلت به عندما حاول أن يجبرهم.

وفي تلك اللحظة ارتعشت الأضواء بغتة وبصورة متكررة والشاب بدأ يدخل في غيبوبة وبدأ بفقدان وعيه بالفعل تدريجيًا بعد ثوانٍ

قليلة من انتهاء المرأة من كلامها وتدلى رأسه على صدره، وآخر كلمات رددتها المرأة ظلت تتردد على مسامعه في الفراغ الأسود الذي يسبح فيه حتى اختفت تمامًا وعم السكون.

لم ير صورًا سريعة أو لقطات هذه المرة..

صوت غليظ يعرفه جيدًا اخترق سمعه ليفتح عينيه من جديد ببطء، نظر لوجه صاحب العقار الذي كان نائمًا على كرسي أمامه، انتفض من مكانه حين اكتشف أنه في منزله على الأريكة ولمح بطرف عينه وهو يجول ببصره في شقته الساعة المعلقة على الحائط المقابل وقد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل.

أخرجه صاحب العقار من صدمته بعد أن استيقظ من سباته:

- يجب أن تهدأ، أنت بحاجة للراحة والغذاء، فالحالة التي رأيتك عليها لم أرها من قبل.

حاول أن يستفسر بعد أن هدأت ملامحه وتمالك نفسه عن كيفية دخوله إلى منزله وما الذي حدث؟!..

تحرك صاحب العقار وحمل كيسًا من الطاولة أمامه وأعطاه للشاب، أخبره أنه يجب أن يأكل أولًا لأن جسده واهن.

عمّ الصمت بينهما لثوان قليلة قبل أن يلتقط العجوز الكيس من يده ليخرج ساندويتش، أكله بنهم يدل على أنه لم يأكل من وقت طويل، استغرق ثوانى ينظر إليه قبل أن يجيبه:

- جلست أكثر من ساعة في المقهى أنتظرك، وعندما تأخرت

صعدت إليك ولم تستجب لطرقات الباب فاضطررت لاستخدام سلسلة مفاتيحي الاحتياطية لجميع شقق العقار.

صمت مجددًا يتأمل الشاب المنتبه لكلامه، يأكل ما تبقى في الكيس من طعام ويهز رأسه ليكمل وكأنه قد استرد عافيته مرة أخرى.

ابتسم العجوز قبل أن يتابع:

- عند دخولي وجدتك في منتصف الصالة وكتاب أسود بجانبك، كنت راكعًا على ركبتيك وظهرك مقوس للأمام وكأنك تقفز وتتنفض ولا تدري بما يدور من حولك ولقد حاولت مساعدتك على الاستيقاظ ولم أستطع حتى توقفت عن الانتفاض من ذات نفسك وذهبت في نوم عميق.

لم يمهل الشاب ليتكلم أو يقاطعه بعد أن أنهى أكله، أشار إلى كتاب أسود على المنضدة:

- قمت بحملك للأريكة ووضعت الكتاب هناك - أشار بإصبعه تجاه المنضدة - والشاب يتابع بقيه حديثه.

أخبره أنه نزل لصيدلية قريبة لكنه وجدها مغلقة وفي طريقه اشترى بعض المأكولات الخفيفة وصعد إليه مرة أخرى وظل بجانبه حتى استيقظ.

وبمجرد توقف صاحب العمارة عن الحديث؛ نهض الشاب من مكانه وأخذ الكتاب وقال إنه يريد بعض الهواء طالما هو في كامل وعيه، يريد التحدث أكثر، فسأل إن كانا يستطيعان النزول للمقهى

والابتعاد عن هذا العقار المشئوم حتى بزوغ الفجر.

وافقه صاحب العقار سريعًا بنهوضه وتحركه خلف الشاب ليقطعا المسافة للباب سريعًا مع دقات العصا التي بدأ يعتاد عليها الشاب.

وخلال هبوطهما الدرج أخبره العجوز بأنه لن يشرب شيئًا فصحته لا تقوى على المنبهات، وأنه سيأخذ كوب الماء الذي سينزل مع مشروبه ليتجرع دواءه حتى يتمكن من التحدث معه حديثا قد يطول بينهما.

أسرعا الخطى إلى المقهى بسبب لفحات الهواء البارد ورذاذ المطر الذي بدأ بالنزول، عبرا بوابة العقار متجهين إلى المقهى الذي كان خاليًا تمامًا في هذا الوقت من الليل، وقد تعدى منتصفه بكثير.

جلسا متجاورين يفصل بينهما طاولة صغيرة.

دام الصمت للحظات حتى قطعه صوت عامل المقهى العجوز وهو يسأل عن الطلبات، نطق الشاب سريعًا طالبا فنجانًا واحدًا فقط من القهوة المضبوطة، ثم التفت لصاحب العقار الجالس بجانبه ووضع الكتاب الأسود على الطاولة، ثم نظر إلى العقار أمامه والشارع الخالي من المارة دون أن يتحدث حتى ذهاب عامل المقهى من أمامه، ثم توجه إلى صاحب العقار بالحديث بنبرة يشوبها التوتر والخوف أنه وجد هذا الكتاب في شقة من يُقال أنه والده، وأخبره بكل شيء حدث معه منذ مقابلته للمهندس حتى وجوده في شقة الراقصة وما دار سريعًا.

تساءل عن وجود راقصة كانت تسكن العقار سابقًا، وأزاح الكتاب ناحية صاحب العقار ليأخذه بدوره سريعًا ويقلب بين صفحاته دون أن ينبس بأي كلمة مع قدوم عامل المقهى ليضع الطلبات على الطاولة بينهما وينصرف..

عندها نظر إليه المالك مشيرًا إلى الكتاب بعد أن أغلقه قائلًا:

نعم كانت الراقصة تسكن الطابق الأول، وماذا عن هذا الكتاب إنه فارغ، مجرد صفحات بيضاء!

ارتشف الشاب فنجان قهوته الساخن دفعة واحدة بيد مرتعشة والعجوز يتابع كلماته:

لا أدري كيف ترى هؤلاء الموتى! أعتقد أن أرواحهم المعذبة بسبب والدك تريد أن تخبرك بشيء قبل انتقامها.

نهض الشاب من مقعده وقد بدا الغضب على ملامحه، انتزع الكتاب من يد صاحب العقار، وصاح به غاضبًا:

ألا ترى تلك الرسومات الشيطانية؟! لماذا تخفي عني الأسرار؟ يجب أن تخبرني من أكون؟، وما تلك الأرواح واللعنات التي تحل بي؟، والآن.

قالها وقد اقترب من العجوز وأمسكه من ملابسه بحركة مفاجئة جعلته يهتز ويرتطم بالطاولة جانبه ليسقط كوب القهوة من الطاولة محدثًا صوتًا مدويًا كسر هدوء الأجواء.

خرج العامل من الداخل ليشاهد ما يحدث من بعيد مستغربًا.

نظر إليه الشاب وكأن النار تتأجج من عينيه وصاح به:

هل هناك شيء؟ هذا أمر لا يخصك.

هز العامل رأسه باستعجاب وهمّ بالانصراف، لكن استوقفه الشاب وقد أخرج نقودًا من جيبه ووضعها على الطاولة.

أخذ الكتاب من يد صاحب العقار الذي كان ينظر نحوه بنظرات غاضبة قائلًا:

أعتقد أنك أصبحت مثل أبيك تمامًا، الجنون سيؤذيك ويؤذي من يقترب منك، الحقيقة ستصل إليك شئت أم لا، لكن عليك أن تجتهد فلا أريد نقض العهود مثلهم.

أراد الشاب أن يقاطعه، لكن العجوز قد نهض لحظتها مسرعًا بعصاه وانصرف، أخبره بأن المفاتيح معه وأنه قد أخبره بكل ما يستطيع قوله:

- دورك الآن لتكتشف الحقيقة ومن تكون.

قالها ولم يمهله أي فرصة ليقاطعه، قطع الطريق منصرفًا بعيدًا عنه بخطوات بطيئة تاركًا الشاب خلفه يرقب رحيله وسط الأمطار، اقترب العامل ليأخذ نقوده، فتحرك الشاب راكضًا خلف صاحب العقار يستوقفه معتذرًا له عن غضبه وما بدر منه..

أخبره العجوز أنه ليس حزينًا لتصرفه، لكنه بدأ يقلق عليه؛ فوالده قبل موته كانت تنتابه الرؤى والهلوسة.

أصبح الشاب بجانب العجوز الذي قال بصوتٍ هادئ:

- لا أنكر أن بعضها كان حقيقة، ولكن هناك القليل من الرؤى

المضللة، وما يجعلني أصبر هو الشبه بينك وبينه ولا أحب أن يكون مصيرك مثله.

نظر إليه الشاب وقد ترقرقت الدموع في عينيه ليخبره لأول مرة عن ذلك الشعور الذي يراوده:

- هل تعلم أني في تلك الليلة التي أتيتك بها كنت خارجًا من قبر!

نعم كما سمعت تمامًا، لقد وجدت نفسي أخرج من قبر، في مقبرة تبعد شارعين عن هنا، أتدرك صعوبة الأمر! هذا ما أتذكره من حياتي أني ولدت من رحم قبر، ربما بُعثت، ربما أنا لا أنتمي للحياة أصلًا، تخيل أن حارس المقبرة حين رآني فرّ فزعًا كأني ميتٌ حقًا!

وبدأ ببكاءٍ مرير آثار عاطفة العجوز، لكنه لم يتوقف عن صدمه حين قال له إن المقبرة المذكورة لم تعد تستعمل لدفن الأموات، بل هي أرض مهجورة أصبحت مكبًا للنفايات، ولا حارس لها.

- ربما كانت تلك هلوسة أو بسبب ما تمر به من تشوش في عقلك!

قالها وربت على كتفه ليتحركا معًا نحو بوابة العقار.

قبل أن يدخل الشاب أخبره العجوز عن طبيب جيد كان والده يتردد عليه كثيرًا، وبصوتٍ حانٍ قال وقد تعلقت عيناه بعينيّ الشاب:

- ربما تحتاج لمساعدة الطبيب، عيادته قريبة من هنا.

لم يترك له فرصة للرد، تركه وذهب بخطوات بطيئة، يحتمي من المطر بيديه والشاب يراقبه أمام العقار حتى اختفى عن نظره كأنما ابتلعه الظلام.

توقف بعدها لثوانٍ ثم تحرك إلى الداخل يقدم قدمًا ويرجع الأخرى وفي رأسه تدور أفكار كثيرة لا تتوقف، هل سيباغته الدوار مرة أخرى في شقته؟! هل ستتفرد به الهلوسة المفزعة والرؤى المجنونة بقية الليل؟!

بأقدام مرتجفة تقدم نحو درجات العقار، حاول أن ينفض من رأسه تلك الأفكار الشيطانية، أخذ يقنع نفسه وهو يصعد الدرجات ببطء أن ما يراه ما هو إلا كوابيس مزعجة، وتارة يقنعها أنه فقط فاقد للذاكرة وهذا ما يتسبب له بالتشويش.

ولكن يعجزه ويحيره صدق الرؤى التي يراها، زوجة الطبيب العاجز في شقته وصلبه في شقة الراقصة، حكاية أبيه الشيطان وأرواحهم المعذبة، كان قد وصل إلى باب شقته، وقد رأى آخر رؤية خاطفة عصفت بذاكرته عند توقيعه على الكتاب الأحمر في القصر مع صوت الرجل الغامض الذي أمهله ستة أيام، مد يده بأنامل مرتجفة مخرجًا سلسة مفاتيحه من سترته ووضع المفتاح في المكان المخصص له وقام بفتح الباب، لم يدخل مباشرة بل ظل يجول ببصره في الشقة ليتأكد ألا أحد ينتظره.

فكر في نفسه من الجيد أنه بعد سلسلة الأحداث الأخيرة أصبح لا يطفئ أنوار شقته بتاتًا، فهو لم يستقر بها منذ تطور كوابيسه والحالات التي تنتابه باستمرار بما لا يسره، خرجت تنهيدة ارتياح لرؤيته الشقة مضاءة وخالية مما جعله يتقدم للداخل ويغلق الباب خلفه.

كاد أن يجن عندما شعر بصداع رهيب وأمام المرآة توقف قليلًا يتأمل مظهره مستغربًا، لا يتذكر متى بدل ملابسه؛ فآخر مرة يتذكر بدلته الرياضية، أما هذا الجينز والمعطف فلا يدري متى قام بارتدائهما، لفت انتابه رزنامة معلقة على الحائط بجانبه تشير إلى تاريخ بيوم الأربعاء الثاني والعشرين من ديسمبر، لا يعلم لما تحرك آليًا نحو المنضدة بكل سرعة يتفحصها جيدًا حتى وجد ضالته في الصحيفة التي رفعها أمامه وهو يرى تاريخها بيوم السبت الموافق الخامس والعشرين من ديسمبر.

عاد سريعًا للنتيجة المعلقة بعد أن ترك الصحيفة تسقط من يديه.

ظل واقفًا يحاول أن يعتصر ذاكرته ليدرك ما دار خلال تواجده في القصر، لم تدم محاولته كثيرًا، نزع أوراق الرزنامة حتى يصل إلي يوم الأربعاء الموافق للثامن والعشرين من ديسمبر.

ابتسم لأول مرة لعلمه ما اليوم والتاريخ ومعرفة شيء مما يدور حوله، ظلت ابتسامته معلقة، يقلب بقية أوراق النتيجة حتى توقف عند يوم الجمعة الموافق للحادي والثلاثين من ديسمبر، أخرج محفظته سريعًا ورأى هويته، تاريخ ميلاده الموافق لتلك الليلة الأخيرة في السنة مع نهاية الأيام الستة، المهلة المحددة له ليعلم من يكون، أدرك أنه سيتجاوز عقده الثاني ليلتها، شرد لحظات سارحًا بخياله ضاربًا الهوية على يده الأخرى عدة مرات يفكر كيف أصبح مشتتًا أكثر!

لم يفهم شيئًا، تذكر الكتاب وهو ينظر ليده التي تحمله وقرر

أن يذهب إلى حجرته ليقرأ قليلًا لعله يفهم وفي الصباح يرى ماذا سيفعل إن توصل إلى شيء جديد.

مر للمطبخ في اتجاه غرفته وتناول زجاجة مياه من المبرد، قطع المسافة لحجرته مسرعًا ولم ينظر لركن في المكان؛ فالبرد كان ينتابه وبدأ يشعر أن الماء يغمره من ثيابه المبللة.

نظر إلى مخدعه ليجد منشفة وزيه الرياضي الأسود، خلع ملابسه وبدأ بتجفيف نفسه سريعًا جدًا، وارتدى الملابس الجافة بنفس السرعة مع برودة بدأت تجتاح بدنه ودوار خفيف ليس مثل كل مرة.

جلس على فراشه سانِدًا رأسه وظهره على السرير مهيئًا نفسه لقراءة الكتاب رغم الإرهاق الذي أنهك جسده، ولكن عقله أبى أن يتركه بلا تفكير.

أخذ يتذكر جميع الأحداث التي مرّ بها، زوجة الطبيب، المدرس، المهندس المنتحر، كلمات صاحب القصر عن الكتاب الأحمر وتوقيعه عليه، محتويات الكتاب الأسود في شقة الراقصة...

أدرك أن السر في داخله، بداية تصفحه كانت أسرع من تفكيره، فأخذ يقرأ ما فيه بتمعن رغم بعض الحروف التي ترافق الصور بلغة مبهمة والأرقام المكتوبة بأشكال غريبة، كان الكتاب يحكي عن شيطان وصفقة ستحول حياة من يتمها إلى الثراء وسينال ما يتمنى، بعض الصور تعرف عليها؛ فهي لأشخاص رآهم في كوابيسه، رسومات الوجوه كانت دقيقة والحبر الأحمر جعله يتخيل أنه مكتوب

بدماء البشر، فصورة المهندس متدلٍ من حبل وتحت الرسم عبارة تقول "شيطان المعمار سيشنق في شقته التي سيسكنها المنتظر".

وأرقام ولغات مبهمة وأشكال شياطين تذيل الصفحة، كان إحساسه متناقضًا وهو يقلب في أورقة الكتاب، مبهورًا وخائفًا في ذات الوقت، يمر على رسم الراقصة التي تحترق وتحتها عبارة تقول "شيطان اللهو يحترق من تدافع القرناء حوله" مع نفس أشكال الشياطين وإن اختلفت في بعض الصفحات قليلًا، وما زال الكثير من اللغة المبهمة تذيل كل صفحة تحتوي على رسم في الكتاب، ظل يقلّب ويشاهد الرسومات والصور التي تعرف على كثير منها، كما ذُيلت خاتمة الكتاب بتوقيع "مفيستو".

توقف لحظات مشيحًا وجهه بعيدًا عن الكتاب سارحًا في الفراغ أمامه، وقد فهم أن الكتاب يشرح طريقة موت كل ساكن وأي شخص يحتويه في رسوماته، المثير للسخرية أن الكتاب كُتب وتم تجهيزه قبل موتهم، وبالتأكيد حضروا ذلك، رغم هذا يبدو أنهم ماتوا بنفس الطريقة المذكورة!

همّ بالعودة للقراءة ليعرف كيفية موت من لم يعرف منهم ويحاول أن يفهم أكثر، لكنه توقف عند ورقة صغيرة مطوية بين صفحات الكتاب جعلته يضع الكتاب جانبًا ويلتقطها، فتحها سريعًا ليرى بداخلها اسمًا لطبيب وعنوان، شرد قليلًا

وحاول أن يربط بين ما قاله له صاحب العقار عن هذا الطبيب،

لكن الصداع عاد ليجتاح عقله كفيضان يغرق الأراضي والمساكن ويقتلعها من أماكنها.

بدأ الدوار يشتد وارتخى جفناه، وجسده ينزلق ليغوص في مخدعه أكثر، أغمض عينيه ممسكًا رأسه براحتيه من شدة الألم ليخترق مسامعه صوت صاحب العقار وكلامه عن الطبيب الذي قد يساعده، كصدى صوت يتردد ثلاث مرات في خواء غرفة الذكريات السابحة في عقله مع توقف الصداع والدوار فجأة.

بعد أن فعل به الصداع ما فعل فتح عينيه ببطء ليجد الغرفة كما هي بأنوارها المضاءة وبابها المغلق ولا يوجد غيره فيها، تنهد بارتياح وقد عزم قراره بأن يذهب صباحًا للطبيب الذي يملك عيادة خلف العقار كما أخبره العجوز..

هدأ قليلًا وارتاح لفكرته بالذهاب، إلا أن صوت باب غرفته الذي فُتح بصرير مزعج جعله ينتفض وتتجمد الدماء في عروقه، ينظر إلى الباب بنظرات خوف وفزع شديدين ولكنه لم يرَ أحدًا إلا حركة ظل على الأرض تحته جعلته يثبت نظره لأسفل، ابتلع ريقه ودقق النظر مع ارتعاش وخفوت الإضاءة في غرفته، أفزعته رؤية قطة سوداء واقفة تحت سريره تمامًا مخلفة ذلك الظل خلفها...

نهض متسائلًا عن كيفية دخول هذه القطة إلى منزله، وقبل أن يتحرك قفزت القطة على سريره ورمقته بنظراتها المشعة مع استمرار اهتزاز الإضاءة لتضفي مزيدًا من الرعب في قلبه، نظر

إليها ودقات قلبه بدأت في التسارع ولكن ما جعله يرتعد ويصرخ هو أنها فعلت أمرًا غريبًا جدًا، ابتسمت له ابتسامة بشرية قبل أن تنقض عليه، حمى وجهه وأغمض عينيه وصرخ بشدة، فتح عينيه مرة أخرى، فوجد نفسه في وضعيه النهوض على سريره، والكتاب ملقىً بجانبه وأشعة شمس الصباح تتخلل غرفته من بين الستائر، أدرك أنه كان يحلم، فتنهد بارتياح بعد أن رأى باب غرفته ما زال مغلقًا، ليؤكد أن ما رآه ما هو إلا كابوس سخيف ولأول مرة يشعر بأنه نام وراوده كابوس بدون أرواح ميتة.

ابتسم ونهض من سريره مقررًا أن يغتسل ويبدل ثيابه ويأكل شيئًا، ثم يذهب ليسأل عن الطبيب الذي ذكره له صاحب العقار، الكائن الحي الوحيد الذي يتكلم معه.

لم يأخذ ساعة من الزمن في جميع تجهيزاته التي كان قد قرر أن يفعلها قبل أن يغادر الشقة، لم ينسَ أن ينظر في الساعة التي قاربت على العاشرة صباحًا والنتيجة على الحائط في لمحة سريعة لليوم الذي يوافق الأربعاء، ويذكره بأنه قد بقي له ثلاث ليال فقط في رحلة بحثه عن ذاته.

كان يشعر بسعادة غريبة مع إغلاقه باب الشقة، غادرها في وقت صباحي وعادي كبقية البشر، كان لديه إحساس بالتحدي بأنه ربما اقترب من معرفة شيء، وساعده على ذلك أن صحته بدأت تتحسن هذا الصباح، شعر بالحيوية والنشاط المصاحب لمثل هذه

الأحاسيس السعيدة والتفاؤلية حين مر من بوابة العقار، توقف لبرهة يستنشق الهواء باستمتاع تاركًا أشعة الشمس تتخلل مسامه قليلًا قبل أن يكمل سيره متجهًا إلى الشارع الخلفي للعقار.

في تمام العاشرة صباحًا وقف أمام مبنى قديم لا يتعدى الأربعة طوابق في الشارع الذي يكمن خلف العقار الذي يسكنه، وقف ينظر إلى لوحة بلاستيكية خاصة بالإعلانات من النوع الذي يضيء، بارزة من إحدى نوافذ الطابق الأول المطل على الشارع تدل على وجود عيادة هنا، مكان اسمه كان منقوبًا فلم يستطع تمييزه، لكن حدسه أخبره في اللحظة والتو بأنه الطبيب المقصود، فكما سمع من الأرواح أنه لا يوجد ما يسمى صدفة.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على محياه لشعوره بصدق حدسه وسخريته في الوقت ذاته لأن الشياطين والأرواح لم تزره في آخر غفوة له.

توجه نحو المبنى بخطوات سريعة حتى عبر البوابة ومدخل المبنى ذي الأسقف العالية الارتفاع، ودون تردد صعد درجات السلم بنفس السرعة التي كان عليها لكنه هدأها قليلًا وهو يدلف إلى باب العيادة المفتوح، جال بنظره كعادته يتفحص المكان بنظرات سريعة ليلمح ما يشبه الممرضة في المظهر لكنها تقوم بأعمال السكرتيرة في نفس الوقت.

كانت تجلس على مكتب وبجوارها أوراق تفتحها فقط من باب

الشكليات ولكنها تتعامل مع تليفونها الجوال من أسفل المكتب، كانت تلتفت يمينًا كل لحظة ناحية ممر على بعد أمتار منها ومن الشاب الذي توقف في منتصف الغرفة تمامًا، ينظر للممرضة مبتسمًا بخبث لأنه أدرك من نظراتها الحذرة أن غرفة الطبيب في هذا الممر، وتلك النظرات الخاطفة بين حين وآخر ما هي إلا خوف من أن تضبط متلبسة تلهو بالهاتف ومشغولة بالرسائل في أوقات العمل الرسمية، عندما عادت بنظرها لأسفل المكتب نظر على يمينه ليرى ثلاثة أشخاص يجلسون على مقاعد جلدية يبدو أنهم مرضى ينتظرون أدوارهم للدخول وبجانبهم ممر يقابل الممر الآخر.

كان متوجهًا نحو الممرضة بعد أن أنهى تفحصه السريع، لم تلحظه لانشغالها بهاتفها، توقف أمامها طالبًا دورًا للكشف لكي يقابل الطبيب، لم تكن نظراتها إليه سعيدة فهو آخرجها من عالم آخر كانت غارقة معه، أخبرته أن عليه الانتظار بعد هؤلاء الأشخاص الثلاثة إذا أراد أن يحجز، تركها دون أن ينبس بكلمة وجلس على المقعد المقابل للممر الأيمن المواجه للحجرة التي يتوقع أنها تخص الطبيب يفكر بعمق فيما سيقوله للطبيب، هل يحكى له كل شيء بعد أن يعرف بنفسه؟ هل يعرف الطبيب شيئًا عن والده وصفقاته الشيطانية؟

وعند نهوض الممرضة توقف عن التفكير وتابع سيرها نحو الممر الأيسر حتى اختفت من ناظره في غرفة من الغرفتين في الممر.

بدأ يخمن وهو يبتسم ليضيع قليلًا من الوقت حتى يحين دوره ربما كانت متجهة إلى الحمام، بل لتحضير كوب مشروب ساخن.

دخلت امرأة ذات قوام ساحر مع أناقة لافتة أخرجته من أفكاره التي لا قيمة لها، نظر لوجهها المغطى نصفه بنظارة شمسية سوداء اللون كلون فستانها الذي يصل إلى ما قبل ركبتيها بقليل.

تابع خطواتها عندما وجدها تتجه مباشرة إلى حجرة الطبيب، ذلك الشعر الطويل وهذا الوجه قد رآه من قبل، وجهها مألوف له ولكنه لا يتذكر أين رآه خاصة مع تلك النظارة التي تأكل نصف وجهها، لم يلفت انتباهه صوت صرير الباب، لكن اتسعت عيناه حين خلعت نظاراتها الشمسية ونظرت له لثوانٍ قليلة قبل أن تدلف سريعًا إلى داخل غرفة الطبيب.

زادت دهشته عندما رأى وجهها كاملًا وأدرك أنها الراقصة التي ماتت حرقًا كما تقول الرسومات داخل الكتاب، نهض مسرعًا مع صوت انغلاق الباب دون أن يلتفت إلى أحد من حوله، واتجه إلى نفس الممر مسرعًا للغرفة التي دخلتها الراقصة وبدون مقدمات فتح الباب بعصبية ناتجة عن توتره وفزعه ولكنه توقف عندما رأى شخصًا يوليه ظهره ويفتح حقيبته القابعة على منضدة أمامه، ولا أثر لأي امرأة داخل الغرفة الصغيرة التي لا منفذ لها سوى المكان الذي يسده الشاب الذي وقف مصدومًا متفحصًا الغرفة.

وقعت عيناه على الطبيب الغاضب الذي التفت على صوت الباب

عندما فتحه ولم يمهل الشاب ليقول شيئًا.

سأله كيف دخل بدون المرور على السكرتيرة، وقبل أن يجيب الشاب، رأى على وجه الطبيب الذي صمت فجأة، علامات الدهشة والاستغراب وهو يحدق به، ثم تحولت لهجته في لحظات إلى نبرة هادئة بها ترحيب، طلب منه الدخول وإغلاق الباب.

تعجب الفتى لهذا التحول المفاجئ لوهلة ولكنه رغم ذلك دخل وأغلق الباب ليتيقنه بأن الطبيب قد عرفه وأنه في المكان المنشود.

كان يتلفت من حوله لعله يجد الراقصة مختبئة في مكان ما، تقدم نحو الطبيب الذي أشار له بالجلوس على كرسي خلف مكتبه، وظل يتابعه ببصره حتى جلس على الكرسي وهو يحك جبهته بعد أن داهمه الصداع فجأة عند جلوسه.

تحرك الطبيب نحو كرسي مكتبه وجلس عليه، أخبره بأنه كان الطبيب المعالج وصديقًا مقربًا لوالده.

خيم الصمت قليلًا على كليهما، أخرج الطبيب علبة سجائره وأشعل سيجارة بتوتر ينفث دخانها لفوق، يتحدث للشاب بكلمات هامسة قرأ من خلالها الشاب الذهول والفضول وما يدور في رأسه:

- لم أكن أصدق والدك لعشر سنين عن قصة ابنه المنتظر..

لم يعطِ الشاب فرصة ليقاطعه أوقفه بإشارة من كفه الأيسر التي لاحظ أن بها آثار حروق قديمة، تابع الطبيب همسه بتوتر:

- أنت تشبهه تمامًا، وأنا على يقين الآن أن أباك لم يكن مجنونًا

بل كان محقًا في كل شيء...

أطرق رأسه قليلًا وبدا عليه الندم والأسف، وأكمل كلامه بنفس الصوت الهامس:

- لقد كانت بصيرتي محدودة جدًا في تعاملي مع والدك.

التقط الشاب دفة الحديث بلهفة شديدة، متسائلًا إن كان يعرف كل شيء عن والده، وعن حقيقة تسميته بـ"مفيستو"

نظر له الطبيب مليًا ثم مد يده لمبرِّد صغير بجانبه وأخرج علبتيّ عصير، كان الشاب أول من بدأ في ارتشاف العصير ليعوض ذلك الإحساس بالإرهاق والدوار الذي يداهمه ببطء، نظر للطبيب الذي ابتسم:

- بالرغم من أن آداب المهنة تمنع إخراج أسرار المرضى لأحد ولكن بما أن والدك توفى وأنت الابن المنتظر له فسأخبرك ببضعة أشياء عما دار بيني وبين والدك أو كما كان يدعو نفسه "مفيستو".

لم يقاطعه الشاب طوال حديثه عن ذلك اللقاء كاتمًا آلام صداع شديد يفتك به كلما تقدم الطبيب في الحديث أكثر:

- سألت والدك في جلسة أخيرة معه بما يشعر، فأخبرني متنهدًا بأنه يشعر بأن شيطانًا يتملكه ويسير به نحو مساعدة الناس ليكونوا أفضل وأعلى سموًا ورقيًا، فهو يبدل أحوالهم من السيئ للأفضل وقد يزيدهم غنىً وعلمًا ومن المحتمل أن تتم وتحل عليهم اللعنات عندما لا تستوفى العهود المؤقعة بينهم.

كان الطبيب قلقًا من ملامح الشاب التي تفضح محاولاته في

إخفاء الألم وما يمر به لكي ينصت، يحاول أن يبقى ثابتًا متزنًا لكنه لا يقوى على الظهور بهذا المظهر والطبيب يتابع سريعًا إخباره عما حدث في ذلك اللقاء..

– حين سأله عن كيفيه فعل ما يقول عنه، كانت إجابته سريعة ومختصرة بل هادئة تحوي الكثير من الثقة قال أشياء عن توقيع عقد مع الشيطان، وقال إن الأمر ليس سيئًا كما يراه في الأفلام، بل الأمر في الواقع يجعلك أقوى وأغنى وتزداد الروح سموًا ومعرفة.

حاولت أن أساييره فهو يعتقد أن عبقريته وشهرته الكتابية بمؤلفاته التي توزع في جميع أنحاء العالم وقتها قد تكون سببًا لما هو فيه والقصص التي يخترعها في مؤلفاته لذلك أخبرته قليلًا أني لا أؤمن بوجود شيء كهذا لأنه مجرد خيال أدبي بدأه جوته مع بطله الخيالي "فاوست"الذي وقّع عقدًا مع الشيطان، وربما هو يصنع بطلًا خياليًا جديدًا مثلما يفعل معظم الكتاب على مر العصور.

كان الطبيب يغير من نبرة صوته فيعلو تارة وينخفض أخرى والشاب يبدو عليه الاستسلام التام لما يشعر به من قدوم قريب للنوبة، لكنه يحاول أن ينصت له باستيعاب عندما شرح له آخر ما دار بينهما في بقية اللقاء.

– كانت ضحكات أبيك "مفيستو"عالية ساخرة لم تتوقف حتى دمعت عيناه وهو يخبرني بلكنة تعالٍ يصاحبها الغرور بأن الشيطان أراد أن يقنع البشر بأن الأمر مجرد قصة على ورق، بل إن منهم من

اتخذ الأمر على أنه مجرد أسطورة لا تتعدى الصفحات التي تُقرأ.

أخبرني إن كان الأمر خيالًا وأوهامًا أو هلاوس سمعية وبصرية كما يدعي الناس، وأن بيع الروح للشيطان مجرد قصة، فعليه أن يفهمه لماذا يتم تداولها قبل فاوست بقرون عديدة والأمر موثق في كتب ومراجع دولية.

كانت تنهيدة الطبيب غريبة، سرح قليلًا وقد قطب جبينه متأملًا الشاب الذي تدور به الدنيا وبدأت تظهر على جسده رعشات، يلقي ثقله كله على الكرسي مسترخٍ تمامًا، وكل ما يستطيع فعله هو أن ينصت كأنه تحت تأثير منوم مغناطيسي يتلقى معلومات قبل أن يتم استيقاظه لتحفر في ذاكرته الفارغة والتي لا يعرف عنها شيئًا سوى ما يراه من كوابيس أو ما يروى له كما يفعل الطبيب الذي بدأ يتابع كلماته بصوت رخيم:

– إن هذا اللقاء الآن جعلني أؤمن به أشد الإيمان – صمت لثوانٍ وأردف معللًا –

– ذلك لأني أراك بعد كل هذه السنوات الطويلة كما قال لي والدك من قبل..

استمر بالحديث بلهجة آسفة متأملًا الشاب:

– كم كنت غبيًا! ليتني سمعت النداء، لقد همس لي والدك بكلماته الأخيرة وأخبرني سرًا عظيمًا – بدت على ملامحه ابتسامة لا تخلو من الخبث وهو يتحدث –

أخبرني أن أشخاصًا كثر منهم مشاهير حاليون وآخرون قدماء قد انضموا لذلك الحلف الشيطاني، لقد أتموا هذا التعاقد بالفعل مع الشيطان وبسببه نالوا الشهرة والثراء والمجد والقوة والخلود، وأخبرني عن عدد مذهل من أسماء العائلات من جميع بقاع الأرض والمسجلة على لوح كبير في قصر مفيستو بشجرة تحوي كل أسماء عائلتهم الحالية والقادمة، وختم حديثه معي بأن السنوات القادمة ستبين أنه كان يريد الخير لي، وأن ابن مفيستو المنتظر سيقابلني يومًا ما.

صمت قليلًا ونظر للشاب الذي لم يكن له دور إلا الاستماع بصمت يبدو عليه التشويش...

ليكمل الطبيب ما كان يرويه بحسرة:

– كان يريد أن يضمني للعائلة التي ستكتب في التاريخ كأول عائلة في هذه المنطقة العربية تؤمن بعهد مفيستو مقابل توقيع مني داخل كتاب بلون أحمر تزينه حروف لاتينية مذهبة كان يحمله معه، رفضت العرض وطلبت ألا يفتح معي الموضوع مرة أخرى.

ضحك الطبيب بأعلى صوته بعد أن توقف عن الكلام فجأة، والشاب يتشبث بسطح المكتب محاولًا أن يتزن بسبب الدوار الذي يلازمه منذ جلوسه والطبيب يردد جملة واحدة عدة مرات"من وقتها لم أره مرة أخرى".

أخيرًا بعد معاناة خرج صوت الشاب متألمًا ضعيفًا يخبره

بالأعراض التي تلازمه الآن، الهلاوس والنوبات والكوابيس...

قاطعه الطبيب بسرعة جعلته يبتلع بقيه الحديث ويستمع له وهو يشرح له أن الأعراض التي كانت تنتاب أباه قبل مدة في بدايات شهرته وصعوده للمجد هي نفس الأعراض التي تنتابه تمامًا.

تبادلا بعض النظرات والطبيب يخرج علبة دواء من درج مكتبه، بدأت رؤية الفتى بالتشويش وهاجمت التشنجات جسده بقوة، لم يتحرك الطبيب ولم يبدُ عليه القلق مما يراه أشار ببرود نحو علبة الدواء وأخبره بأن أباه كان يسخر من العلم، في بداياته نحو الغنى والشهرة، كان يأخذ الدواء بانتظام وحالته بدأت تتحسن إلى أن غاب فترة وعاد ولم يره ثانية طوال حياته..

علت وتيرة صوته بشيء من الحدة وهو يتأمل الشاب متحدثًا:

– كان والدك يقول أن الدواء يوقف مرحلة الاستحواذ الكامل لكيانه من قبل الشيطان، أخبرني أيضًا أن كل عقد من الزمان يهب لرعاياه ما يريدون ويطلبون، ويستقبل قرابينه، وإن أخلّوا بالعهد تحل عليهم لعنة وعقاب لعقد من الزمان، لذلك أكد عند مغادرته بأنه سيتوقف عن تناول الدواء نهائيًا وسيكمل مشواره بمفرده.

عند هذه اللحظة كان الشاب يضرب رأسه لثوانٍ على سطح المكتب حتى همدت حركته تمامًا، مما جعل الطبيب يتحرك نحوه ببطء حتى وصل بالقرب من رأسه الملقاة على سطح المكتب حتى لمس صدره وعيناه مغلقتان مما يدل على أنه غائب عن الوعي لا يشعر

بتقدم الطبيب.

لكن داخله كان يشعر بأنه في فراغ أسود كبير وومضات كهربية تتخلله ولقطات سريعة تمر ببطء في ذلك الفضاء الذي يسبح به في حالة اللاوعي...

سبورة أمامها امرأة كبيرة السن بهيئة أوروبية، تشرح وحولها أطفال صغار، اختفى المشهد وأعقبه ورقة نتيجة يطويها بيده في ركن غرفة رمادية كئيبة اللون، ورجل أوروبي عملاق يسحبه من قدمه على أرض خشبية يكاد يسمع صوت زحفه عليها لكن دون أن يشعر بشيء، وفجأة ذلك الجسم المعدني يظهر أمامه من الفراغ ويرتطم برأسه بقوة شديدة ليصرخ وينتفض فاتحًا عينيه في لحظة إخراج الطبيب إصبعه من فمه واليد الأخرى تسحب كوبًا مملوءًا لنصفه، استنتج من الماء الذي يبلله أن النوبة أتته والطبيب أنقذه.

مرت دقائق من الشكر والحديث الطيب بينهما، بعدها تحرك التفت، وقبل انصرافه ذكره الطبيب باستخدام الدواء مرة واحدة في اليوم، وأن يأتي له الأسبوع القادم ليرى إن كانت حالته تحسنت أم لا، ونبهه أخيرًا وبصوت عالٍ قليلًا بأن يسجل اسمه واسم الدواء في الخارج قبل المغادرة.

غادر الشاب غرفة الطبيب وأغلقها بطريقة سريعة بعد أن شعر بارتياح شديد، ونشاط دب في جسده مرة واحدة بعد الغيبوبة القصيرة التي مر بها داخل الغرفة، اتجه إلى مكتب السكرتيرة التي

كانت آتيه من الممر المقابل له تمسك في يدها كوبًا من الشاي كما توقع منذ وقت طويل عما تفعله في الجانب الآخر.

لم يبالِ بنظراتها نحوه وبطنها المنتفخة كحامل على وشك الولادة التي لم يلحظها من قبل.

كانت تنظر له مندهشة لقدومه من الممر الخاص بغرفة الطبيب حتى اقترابه منها لم يغير من معالم الدهشة على وجهها، وحتى حين سألها أن تسجل اسمه كما قال له الطبيب لتسجيل موعد لزيارة ثانية لم تتفوه وظلت تتابعه، أخبرها أن الطبيب يريده أن يأتي الأسبوع القادم وعليه أخذ موعد.

لم تجبه الممرضة وهي لا تزال تنظر له بذهول.

كانت عصبيته واضحة بسؤالها عما بها ولم لا ترد عليه. كانت لإجابتها وقع الصاعقة عليه، عندما أخبرته بصوت قلق ونظرات تحمل الكثير من الخوف بأن كل ما في الأمر هو أن الطبيب لم يأتِ بعد.

ارتجفت شفته السفلى بطريقة غير إرادية ولكنه أقدم على فعل عجيب ترك الممرضة فجأة واتجه بخطوات مسرعة إلى غرفة الطبيب مرة أخرى يمني نفسه أن تكون الممرضة تمزح معه.

عندما فتح الباب على مصراعيه بقوة ألقى نظرة متفحصة للغرفة الخالية تمامًا من أي شخص، وعلامات الدهشة والذهول تعتري ملامحه للحظات متحسسًا جيب سترته، ليتأكد من وجود علبة الدواء، اطمأن لأنه يمتلك دليلًا ماديًا يثبت أنه لا يتوهم!

تحرك سريعًا دون أن يلتفت للغرفة مرة أخرى واتجه إلى الممرضة وهو يقول لها بصوت محتد:

- هل لك أن تخبريني كيف لم يحضر الطبيب حتى الآن ورغم ذلك أمتلك منه علبة الدواء الخاصة بعيادته؟!.

قالها في نفس اللحظة التي أخرج فيها من جيبه علبة الدواء التي أخذها منه ويعطيها لها..

مدت يدها المرتجفة وتناولت علبة تمعنت فيها للحظات ثم قالت له وهي تتأمله بدهشة أكثر:

- بالفعل هى لطبيب هذه العيادة رغم أنها تباع في جميع الصيدليات، ولكن هذه العينة المجانية تعود إلى الدكتور.

صمت لبرهة لتسأله ما لم يتوقعه ويزيد صدمته أكثر، سألته إن كان أتى منذ أسبوع مضى، وألحقت بسؤالها تبريرًا بأنها جديدة في العمل فهي متواجدة هنا منذ يومين! واختتمت كلامها مشيرة للعلبة بأن الطبيب أعلمها بأنه يدون على العلبة تاريخ إعطاء المريض تلك العينة المجانية وأن التاريخ المكتوب عليها منذ أسبوع مضى.

كانت حركته تلقائية إذ اختطف منها علبة الدواء ليتفحصه سريعًا ويتأكد من صدق ما تقوله عن التاريخ المدون بالحادي والعشرين من ديسمبر، لم يستفسر بشيء آخر فالصدمة قيدت جميع أفكاره، وللحظات لم يحرك نظره عن العلبة، وبدون أي كلمات وداع أو شكر تركها تتأمله بنظرات استغراب، تحرك مهرولًا لمغادرة العيادة، ألقت

نظرة على الرجال الثلاثة الذين كانوا جالسين وكل منهم في يده مجلة منهمك في قراءتها ولا يعيرون لما دار أي اهتمام مع ابتسامة لاحت على ثغرها وهي تسمع صوت خطوات الشاب الراكضة تقطع الدرج في سرعة كبيرة.

بمجرد مغادرته باب البناية تسمرت قدماه على بعد خطوات قليلة من البوابة تبعها صرخة بطريقة لا إرادية خرجت منه حين نظر للسماء المظلمة والملبدة بالغيوم، أخرجه مما هو فيه توقف رجل عجوز على مقربة منه بعد تلك الصرخة القوية التي انطلقت منه منذ لحظات، ينظر إليه باستغراب من تحت نظارته، بادره الشاب سريعًا بسؤاله عن الوقت، لم تستغرق نظرات الاستغراب المطلة من العجوز نحوه إلا لثوانٍ ينظر لساعته أخبره أنها العاشرة مساء وسأله إن كان يحتاج لمساعدة ما؟

لو كانت ساعة العجوز معطلة؛ فالسماء لن تكذب!.

من المفترض أنه ذهب للعيادة الساعة العاشرة صباحًا، ومن المفترض أنه قابل الطبيب لمدة ساعة أو أكثر وغادر!..

عندما وصل إلى هذا الحد من الشرود والصدمة الجديدة التي تلقاها من معرفته للتوقيت ونظرات العجوز المريبة ناحيته انتبه أن يشكره ويطمئنه سريعًا على حاله بكلمات مقتضبة، ثم غادر من أمام الرجل العجوز الذي يهز رأسه ويضرب على كفيه ويرحل.

عاد لمدخل المبنى وكان على وشك الجنون والأفكار تغتال رأسه

بقوة مما جعله يريد أن يبكي من الحيرة والتخبط الذي يلقاه كلما اقترب من معرفة شيء عن أصله؛ فاثنتي عشرة ساعة كثيرة لوجوده في عيادة الطبيب، ولا يعقل للمرضى أن يبقوا منتظرين كل هذا الوقت، لابد أن يسألهم!

كان هذا الأمر الخط الفيصل الذي سيحافظ على ما تبقى من عقله، اجتاز الطابق الأرضي المظلم صاعدًا الدرجات التي ستقوده للعيادة ليصطدم بشخص يرتدي جلبابًا ويحمل عدة أكياس بلاستيكية ميزها من صوت ارتطامها بالدرج تتدحرج لأسفل ببطء.

لحظات ليست بطويلة مرت قبل أن يعتذر الشاب له، فوجئ بالشخص يتفحص ملامحه قبل أن يقوم بلملمة أشيائه المبعثرة أخذ الفتى يعتذر له ولكن الرجل ذو الجلباب رحب به وأخبره ألا شيء حدث وواصل الهبوط يجمع بعض الفاكهة التي سقطت من أحد الأكياس، مما جعل الشاب يتبعه ويساعده في التقاط ما سقط من الأكياس التي استقرت بسقوطها في الدور الأرضي، لمع البرق فجأة منذرًا بأمطار غزيرة، وأضاء وجه الرجل الأسمر ذي الملامح القروية، وقد وجّه كلمات ترحيب للشاب معبرًا عن سعادته برؤيته مرة أخرى هنا، ثم ربت على كتف الفتى مواسيًا ويقول له إنه للأسف جاء متأخرًا.

"عودة مرة أخرى وأي تأخير تقصده"كان سؤال الشاب سريعًا وخاطفًا ثم أردف "من تكون أنت؟ "

حدق الرجل الأسمر في وجهه ببلاهة ولكن ملامح الشاب المندهشة جعلته يدرك أنه لا يسخر ولا يتعالى عليه ويجيبه بهدوء وبلهجة مختلفة تدل على أنه من محافظة أخرى:

- أنا حارس هذا العقار يا سيدي، وأعرفك لأنك أتيت إلى هنا منذ أسبوع تقريبًا، وقد كنت في حالة يرثى لها من الإعياء فقمت بإسنادك وإدخالك إلى الطبيب و...

جعلت نظرات الرعب والحيرة التي اجتمعت في آن واحد على ملامح وعيني الفتى الحارس يتوقف لثوانٍ يطالع ملامحه مستغربًا من الرجفة التي أصابت مفاصل الفتى مع صوت الهدير القوي الذي تهادى كأنه متواطئ مع الموقف الصادم الذي تلقاه من كلام الحارس له، ليعطي جوًا من الرعب والفزع أكثر للشاب الذي لم يعد يفهم شيئًا بل الأدهى أنه بدأ يشعر بمرحلة الجنون وقد اقتربت من اجتياح عقله، لم تدم لحظات إلا واستعاد رباطة جأشه، تحسس مكان علبه الدواء وتذكر الممرضة، شرد لبرهة محاورًا نفسه بأنه سيجعلها تريه الملفات المسجلة للمرضى السابقين.

شعر بشيء من الراحة لقدرته على الاستمرار بالتفكير بشكل منطقي، ربت على كتف الحارس الذي كان ما زال يطالعه بذهول وحيرة والفتى يعتذر له مجددًا للعودة للعيادة ليسأل الممرضة مرة أخرى للضرورة.

لم يمهل الحارس ليقول شيئًا، وقد وقف يتابعه وهو ذاهب نحو الدرج..

لم ينتبه لنظرات التعجب في عيني الحارس وهو يتمتم بعبارة تساؤلية مختصرة "كيف سيقابل الممرضة مرة أخرى؟" بصوت وصل للشاب الذي لم يعره اهتمامًا ملتهمًا درجات السلم حتى اختفى عن أنظار الحارس.

قبل أن يصل للعيادة لمح بابها مغلقًا؛ فعزى ذلك لبرودة الجو، وعند وصوله إلى الباب، همّ أن يطرقه، لكن لفت نظره ما جعله يفتح فمه دهشةً، وانطلقت منه صرخة، بل حاول ألا يسقط مع تخبط قدماه في بعضهما فجأة وعيناه تتأملان اللافتة الورقية الملصقة على الباب بكلمات تنعي الطبيب الذي توفي منذ أيام قليلة، وقد كتب عليها التاريخ.

أدرك لم أخبره الحارس أنه جاء متأخرًا، باغته في هذه اللحظة صداع رهيب وبدأ نظره يزوغ كومضات تضيء وتنطفئ بطريقة متلاحقة، حاول التماسك، يشعر بثقل جفنيه مسندًا راحته على الحائط بجانب باب العيادة؛ يكاد قلبه أن يقفز من بين ضلوعه متأملًا تلك الورقة الملصقة مجددًا على الباب لثوانٍ قليلة مرت عليه صامتًا مذهولًا، كل ما يستطيع فعله هو الصمت والوقوف أمام الباب، ومئات الأسئلة التي تنهش عقله بلا أجوبة، أوقفته الصدمة لدقائق شابها القلق والتوتر والسكون التام من هول الصدمة التي نزلت عليه كالصاعقة وألجمته في مكانه، لكن صوت الخطوات التي تصعد على الدرج وتصل مسامعه أخرجته من جموده محاولًا أن يستعيد تركيزه،

استنشق الهواء وزفره بشدة عدة مرات متلاحقة حتى انتبه لوصول الحارس ليصبح خلفه، التفت مصطنعًا الهدوء على ملامحه؛ ليلمح وجه الحارس الأسمر الذي توقف على أول الدرج المؤدي إليه ينظر إليه بحيرة وريبة في ذات الوقت، وقبل أن يسأله في شيء بادره الشاب سريعًا باستفساره عما حدث للطبيب.

وقف الحارس لحظات قليلة، رفع يده التي تحمل كيسًا بجانب جلبابه، وهرش في رأسه قليلًا وعلى وجهه ابتسامة عريضة أقرب للبلاهة ويجيبه بلهجته القروية أن الدكتور قتل في منزله منذ يومين، وجدوه جثة متفحمة مع ثلاثة أشخاص والممرضة في العقار والنيران أخذت كل عائلته.

ثم قال بلهجة يائسة:

– بعد تلك الحادثة التي حدثت للطبيب ستغلق العيادة وتصبح البناية خالية بلا سكان.

أخذ يهز رأسه ولم ينتبه إلى علامات الارتباك والتوتر التي بدأت تعتري الشاب وهو يتعداه ويسير في الممر الذي يؤدي لدرجات الطابق الذي يعلوه، أكمل حديثه بتلك النبرة الحزينة وبحسرة شديدة:

– سينقطع مصدر رزقي بعد إغلاق العيادة وخلو العمارة نهائيًا من السكان.

بعد أن أصبح أمام عتبة الدرجات قال بصوتٍ خفيض:

عائلة "البهنساوي باشا" بالتأكيد ستغلق المبنى بعد خلوه وينتهي عملي.

لم تمر كلمة البهنساوي على أذنيه مرور الكرام، فخرج صوته سريعًا إلى الحارس قبل أن يتحرك للصعود ليوقفه ويثبات فيه بعض الرجاء والاستعطاف؛ استأذنه بأن يعطله لبعض الدقائق ليجيب عن تساؤلاته وسينصرف فورًا بعدها.

رفع الحارس كتفه بحيرة، فسأله الشاب عن علاقة عائلة البهنساوي بهذا البناء.

كانت تلك الابتسامة الفطرية البلهاء ما زالت مرتسمة على ملامحه رغم صوته الحزين وهو يجيب إجابات سريعة متلاحقة لم تروِ ظمأ "الشاب ".. بل تركته يتخبط بالحيرة أكثر، عندما خرجت الكلمات من فم الحارس:

- البهنساوي اسم الشارع، ويقال أنه قديما منذ عقود كثيرة وقبل وفاته شاع بأنه امتلك نصف أراضي وعقارات المنطقة... تابع مكملًا عندما رأى إصغاءً وعدم مقاطعة من الشاب بأنه مجرد حارس جديد لم يكمل بضعة شهور هنا في البناية.. وبنفس نبرة الحسرة السابقة قال إنها آخر ليلة له هنا وأخبره أيضًا أنه يستطيع الاستفسار أكثر من الصيدلي في الشارع المقابل، فهو من جاء به منذ أسبوع.

لم يعطِ للشاب أي فرصة أخرى لسؤاله؛ أكمل صعود الدرجات بخطوات ذات إيقاع منتظم تاركًا حيرة وشرودًا تطلان من وجه الشاب الذي وقف لبرهة يفكر في كل ما قيل له، اتخذ قراره بالنزول ويبدو عليه الترنح كالسكارى من هول ما سمع، تخدر جسده الذي

يهبط الدرجات بآلية وفي عقله تدور حرب من الأسئلة المحيرة بلا إجابات، لم يشعر إلا عندما أصبح في الشارع شبه الخالي من المارة مع استمرار الطقس السيئ والأرض التي ابتلت من جراء انهمار الأمطار عليها بشدة وأسئلة تدور وتدور في رأسه، لم لا يتذكر شيئًا؟! حتى اسمه يشعر كأنه يسمعه لأول مرة!

لا يتذكر شيئًا عن ماضيه وأصله، لقد أوشك أن ينهار من كثرة التفكير والحيرة، ومع هطول الأمطار التي تنهمر عليه بشدة انتبه أنه أصبح خارج البناية، يطالع السماء التي تزأر بقوة هذه الليلة بكل أسلحتها، قرر أن يقطع ذلك الشارع الجانبي ليعرج على الصيدلية التي دله عليها الحارس قبل ذهابه للعقار الذي يقطنه.

صوت خطواته المسرعة في الشارع الخالي من المارة الذي يتردد صداه مع اصطدامه ببقع الماء التي أغرقت الشوارع مع اعتصار رأسه من الألم جعله يسرع الخطى أكثر والأسئلة ما زالت ترافق خياله.

"كيف لا يتذكر سوى ثلاثة أيام فقط من بعد رؤيته ذلك المالك العجوز؟! هل كان هنا قبل أن يسكن العقار؟.. يستكشف نفسه؟ وما تلك الأشباح الميتة التي أصبحت تلاحق خطواته!.."

وقبل أن تنفجر رأسه من كل تلك الأسئلة التي تنهمر على عقله دون أن تروي ظمأه للمعرفة، بل أصبحت تزيده ارتباكًا وحيرة، صوت باب معدني قديم يتم غلقه شق السكون حوله ليخرج مما كان فيه ويوجه بصره نحو الصوت ليرى شابًا في نهايات عقده الثاني يجلس

في وضع القرفصاء يغلق باب محل معدني يملأه الكثير من الصدأ، ومع تزايد قطرات المطر الكثيفة والتي لا يبالي بها الفتى الذي يقف في منتصف الشارع الجانبي المظلم يتأمل الشاب يضع قفلًا من الطراز القديم ليغلق الباب المعدني...

التفت بعد انتهائه من تثبيت القفل المعدني ونهوضه ليجد الفتى بجانبه في يده علبة دواء يوجهها نحوه، لم يرتبك الصيدلي واكتفى بتأمله جيدًا وعندما همّ أن يخبره الفتى بشيء كانت إجابته قد سبقت بأنه قد أغلق الصيدلية الآن..

لكن الشاب أخبره أنه فقط يريد الاستفسار عن هذا الدواء، وإن كانت له معرفة بذلك الطبيب وعيادته التي توجد في آخر الشارع.

التقط الصيدلي العلبة منه وأخرج نظارته الطبية، نظر إلى الشاب والسماء في نظرة خاطفة قبل أن يرتدي نظارته ويطالع المكتوب داخلها لثوانٍ قليلة..

هز رأسه وقال إنها أدوية تخص مرضًا نفسيًا يسمى الانفصام ولا تصرف إلا بإشارة طبية، رفع رأسه نحو الشاب بعدها وظل يتأمله من تحت نظارته الطبية التي امتلأت عدستها بالمياه ليكمل كلامه بعد أن ميّز وجه الفتى جيدًا:

- لقد تذكرتك فقد وجدتك ملقىً على الأرض بجانب الصيدلية منذ أسبوع تقريبًا، حملناك أنا وبعض الناس الطيبين ونقلناك للعيادة...

أشار لوجه الشاب وأخبره بأنه لا ينسى الملامح أبدًا خصوصًا

تلك الوجوه المميزة..

وقبل أن ينطق بالمزيد قضم حديثه الحركة الخفيفة التي بدرت من الشاب المذهول مما يسمعه والتي لاحظها الشاب الذي بادر بمد يده بعلبة الدواء، موجهًا كلامه للفتى الذي التقط بدوره العلبة ولسعة البرد والصدمات التي يتلقاها جعلته يرتجف منصتًا لبقية حديث الصيدلي:

- لقد قُتل الطبيب منذ أيام ويجب أن تتابع مع طبيب آخر.

وأخبره أيضًا أن الدواء يدل أنه مريض جدًا ويحتاج للمتابعة. ومع تزايد الأمطار قام الصيدلي بإنهاء اللقاء بوضع غطاء رأسه وتحرك منهيًا حديثه بأن الدواء قد يسبب التشويش والهلاوس وفقدان الوعي إذا أهمل، ويجب أن يؤخذ ثلاث مرات لمن يعانون ذلك المرض.

كانت الكلمات الأخيرة للصيدلي تتردد على مسامع الشاب الذي يتأمل تحركه، لم يمهله فرصة لأي استفسار آخر، ذهب في اتجاه سيارته التي تبعد أمتارًا قليلة عنهما.

وقف وقد زادت حيرته، هل هو حقًا مريض بالفصام، وكل ما يحدث مجرد هلاوس مرضية؟!

زاد هطول الأمطار التي أغرقته تمامًا لينتفض جسده من البرودة تزامنًا مع الومضات التي ضربت السماء بعنف لتخرجه من شروده وترجعه للواقع من جديد لتنير المكان لوهلة أمامه مع صوت سيارة تنطلق من خلفه تحذره أنه أصبح وحيدًا في الشارع الذي غلفه الظلام، تحرك فجأة من مكانه مهرولًا كأنه لص ويوجد من يطارده، قام بقطع

بقية الشارع المؤدي إلى العقار دون أن يلتفت إلى الخلف حتى وصل لباب العقار واجتازه بسرعة وملابسه المبتلة تقطر على الدرج الذي يقطعه بسرعة متجهًا للطابق الثالث، مع نظراته التي بدت زائغة وحاله الذي تبدل عما كان عليه في الصباح، وذلك الشعور بالألم في رأسه وإحساسه بالدوار يزيدان ويتوغلان داخله مما شاهد الليلة.

توقف عند الباب يحاول أن يتماسك ويقاوم ذلك الدوار الرهيب والصداع الذي يعتصر رأسه، وقبل أن يخرج مفتاحه وصل إلى مسامعه خطوات تصعد الدرج بانتظام، لتشد انتباهه قليلًا وهو يتابع صوتها حتى توقفت تحته تمامًا، وصوت مزلاج باب يفتح ويغلق مما جعله ينتفض من مكانه وينزل متسحبًا على الدرج مقاومًا التشويش الذي بدأ يقتحم بصره ونظراته، لينفض جسده مرة أخرى بفزع هذه المرة مستمعًا بذهول لصوت موسيقى بيانو قادمة من داخل الشقة رقم (٢) التي أصبح أمامها الفتى والخوف الذي بات لا يفارق ملامحه منذ اقترانه بهذا العقار، تذكر فجأة المفاتيح التي معه، أخرجها بسرعة ووضع أحدها في المزلاج وفتح الباب..

أصابته الدهشة متناسيًا ذلك الدوار والرعشة اللذين هاجماه بقسوة، وقف مكانه لحظات إذ رأى أمامه في الشقة مدرس الموسيقى يجلس في آخر الشقة على مكان مرتفع بدرجة عن بقية أرضية الشقة، كان أمامه بيانو ضخم لونه أبيض ناصع والمدرس يرتدي طقما بنفس اللون مع شعره الأبيض الناعم المنسدل على جبينه مبتسمًا للفتى

المتسمر في مكانه مع صوت عزف الموسيقى الذي تخلل روحه لحظتها من عذوبته ونعومته مما جعله يتقدم كمسحور بعد دفعه الباب لينغلق غير مبالٍ بصوت انغلاقه، مواصلا تقدمه الحذر والتعب يجتاح بدنه بشراهة مما يجعله يبدو مترنحا في خطواته، وملابسه المبتلة تقطر على الأرضية وهو يتلفت يمينًا ويسارًا يطالع الجدران البيضاء الناصعة حوله، حتى أصبح في منتصف الطريق بينه وبين مدرس الموسيقى؛ ليجد على يمينه كرسي أسود من النوع الفاخر وعلى يساره في منتصف البهو الذي يقف مذهولًا عنده، وضعت آلة سينمائية قديمة الطراز والتي تعرض الأسطوانات، تفصل بينه وبين الحائط المواجه له في آخر البهو.

توقف صوت الموسيقى، ليصله صوت الرجل الصادر من خلف البيانو يحدثه بصوت هادئ رخيم يتخلل العقل ببطء شديد كمنوم مغناطيسي في حصة تطبيق لعمله والفتى ينهار على الكرسي بجانبه بعد أن حل عليه الإرهاق وضيق التنفس الذي يضربه قبل كل نوبة تصيبه، يستمع للصوت الهادئ الساحر:

– الوقت قد شارف على الانتهاء وما زال عليك إيجاد من يساعدك قبل انقضاء المهلة.

لم يفهم ما يحدث أو ما يسمع وجسده المنهك غير قادر على الحركة والكلام، وذلك الغريب الذي سمعه جعله يصمت ولا ينطق بشيء بعد أن صمت المدرس، تأمله جالسا على المقعد، فشعر – بل

تيقن - أن الشاب أصبح غير قادر على تحريك أطرافه مع شعور بألم شديد يضرب عنقه، يحاول تحريك رأسه ناحيته بصعوبة وببطء بعد ما بدأ يشعر بأن وزن رأسه أصبح طنا وعنقه لا تقوى على توجيهه.

لكنه لمح ابتسامة المدرس خلف البيانو، والذي لم يطرف له جفن خلال نظراته الثاقبة اتجاهه، ومن خلفه لوحة ساحرة بألوانها وتصميمها الذي يدل على مدى قدمها، جذب انتباه الفتى لم ينتبه لها من قبل، لوحة تمثل كبشا تضربه الصاعقة فوق جبل وبجانبه سبع سنبلات وتحت الجبل رجلان أحدهما ممسك بحجر ملطخ بالدماء والآخر ملقى على الأرض التي تتشرب دماءه وعلى مقربة منه غراب يدفن آخر ميت، الخطوط والألوان المتداخلة في الصورة أعطت للوحة رونقا وسحرا مع ذلك التشويش الذهني والحالة المزرية التي يشعر بها الشاب وكل عضلات جسده أصبحت مرتخية ولم يعد قادرا على الكلام أو الحركة كأنه في حالة هبوط حاد في الدورة الدموية؛ مراقبا المدرس بعيون تكاد أن تنغلق.

يتفوه المدرس ويشق الصمت بكلماته التي بدت صارمة بها القليل من الحدّة:

- القرابين قدمت لتصبح المُخلص، أنت مثل أبيك تمامًا، لم يكن يتحرك من مكانه وتنتابه الرؤى وكان يقابل الشياطين والملائكة حتى الأرواح خبيثها وطيبها كان يراها، لم أصدقه إلا عندما أصبحت هائما بلا جسد...

أعقب جملته الأخيرة بضحكة وجسد الشاب منهار تمامًا على الكرسي ورأسه مواجه لآلة العرض التي اشتغلت مع الضحكات العالية التي تردد صداها بين جدران هذه الشقة لتعرض على الحائط أمامه مشهدا مصورا قديما بلا صوت..

رجل يشبهه تمامًا وزوجة الطبيب بجانبه تحمل طفلًا وسط دائرة وحولهم خمسة أطفال جاثون على ركبهم في وضع القرابين وكل طفل وراءه شخص يمسك بيده سكينا..

صورت الكاميرا وجوههم، وقد تعرف الشاب على بعضها، يقاوم تلك الغيبوبة التي تجتاحه وهو بلا حراك على الكرسي.

المهندس والراقصة، المدرس، الطبيب وسيدة أخرى لم يتعرف عليها، ثم تبعها مشاهد متقطعة يصاحبها عزف البيانو الناعم الخافت مرة أخرى، وعيناه ما زالت معلقة على ما تعرضه الشاشة وصوت مدرس الموسيقى الذي شق الأجواء بهدوء هذه المرة:

- كنت أعتقد أنه مجنون ومدّعٍ، كان يتوهم زيارة الأماكن دون أن يبرح مكانه مثلك تمامًا، أحيانًا تأتيه الرؤى المستقبلية أو الغيبية، وأوقات أخرى يعرف أسرارًا قد لا يعلمها أحد، نعم هي هبة..

صمت لبرهة ثم أردف:

- هبة، لكنها أحيانًا قد تصل بمن يمتلكها إلى الجنون.

ساد الصمت بعدها والمدرس يزيد من حدة الموسيقى ويجعلها حزينة مبكية مع المشهد الذي يُعرض على الشاشة ويتابعه الشاب

المستسلم لما يدور حوله، خمسة أطفال يذبحون ببرود وقطرات من الدماء تتناثر على جسد الطفل الذي تحمله زوجة الطبيب وبجانبها امرأة تعرف عليها مما أفزعه حين رأى وجه الممرضة في كادر مقرب، حاول أن يصرخ لم يستطع والظلام بدأ يداهم عينيه وجفنيه الثقيلين بشدة مع استمرار الدوار، يشاهد بملامح مرعوبة الدماء التي بدأت تملأ الحائط وارتفاع صدى الضحكات الهستيرية الصادرة من مدرس الموسيقى...

وقبل أن يغلق الشاب عينيه ويستسلم للحالة التي يمر بها، شاهد سطح السقف يغرق بالدماء التي تتساقط بقطرات كثيرة ومتتالية على وجهه ليغلق عينيه بشده ويهز رأسه من الخوف، ومع استمرار ارتطام الدماء على وجهه بعنف والمشاهد التي تجتاح مخيلته المظلمة وإن لم تطل، صورة لنافذة في طائرة وسماء وسحب، وفجأة يرى الجسم الصلب يهشم رأسه مع جفونه التي استجابت أخيرًا لمحاولاته المستمرة لفتح عينيه، صرخ بقوة ليجد نفسه على الأريكة في شقته ودفعة من المياه تندفع نحو وجهه لينفضها بهزّ جسده عدة مرات متتالية بسرعة، متأملا المالك العجوز أمامه، ينفض جسده رعبًا وفزعًا ويتلفت حوله.

تأكد أنه في المنزل والساعة على الحائط تشير إلى الثانية عشرة والضوء المتسلل من الشبابيك في شقته جعله يدرك أنها الظهيرة، نظر باستغراب لملابسه الجافة وانتقل بنظره سريعًا إلى المالك

الذي ربت على كتفه وأخبره أنه قرر المرور للاطمئنان عليه قبل ذهابه للبنك، فلقد أصبح واحدًا من العائلة ومنهم، صاحبها ضحكة خفيفة يرافقها السعال الخفيف من العجوز، تابع حديثه متأملا الفتى الذي ينظر له بدهشة وفمه مفتوح لشدة الصدمات التي تنتابه بقوة لا يستطيع الاستمرار معها، منصتًا لما يقوله العجوز:

– أنت محظوظ، فعند صعودي وجدتك ملقى على باب شقتك المفتوح، نصفك السفلي في الداخل ومنبطح على وجهك في الخارج، وسلسلة المفاتيح كانت بجانبك تمامًا..

سأله الشاب سؤالًا غريبًا

– ما هو اليوم؟!

أجابه العجوز بذهول

– مازال اليوم الأربعاء؟!

وقبل أن يتبعه بالتاريخ كان الفتى قد قاطعه ولم يبالِ بما قاله العجوز عن اليوم ويتلعثم وتوتر بدأ يحكي له دون توقف كل ما دار معه..

لقطات سريعة مختصرة في دقائق قليلة وصف فيها ما حدث له مرورًا بالعيادة وأحداثها والصيدلي ومقابلة المدرس ومشاهدة الأطفال يذبحون وعن وجوده كطفل كما يعتقد في ذلك الطقس الشيطاني..

أنصت له المالك باهتمام وابتسامة خفيفة ترتسم على ملامحه كلما تقدم الفتى في الحديث حتى توقف عن الكلام تمامًا.

جاء هنا دور العجوز ليلتقط طرف الحديث سريعًا بلهجة إعجاب ويخبره أن كل يوم يمر يزداد إيمانه به مثلما كان مؤمنًا بقدرات أبيه وقبل أن يقاطعه الفتى، أشار له متابعًا بأنهما سيتحدثان كثيرًا في المساء بعد أن ينهى مشوار البنك الخاص به، وهمّ أن ينهض لكن الفتى بلهجة استعطاف أراد أن يفهم أكثر لأنه كاد أن يجن.

لم يرد العجوز أن يجعله متحيرًا أكثر من ذلك وأخبره بعجالة في دقائق أن أباه كان له جانب غير مظلم فهو صديقه الذي لا يخفي عنه شيئًا، رغم أنه في البدايات كان سعيدًا بتقديم القرابين البشرية وقد بدأها بإخوته الخمس وانهال عليهم المال والشهرة وزادت تجارتهم واستثماراتهم في كل المجالات لقد امتلكوا النفوذ وأصبحوا من علية القوم حتى جاءت ليلة رأس السنة الميلادية في نهاية العقد الثالث من اتباعهم وخدمتهم لمفيستو ومن يومها حلت اللعنة على الجميع في كل شيء، منذ اتفاق العائلة على التخلص منه حتى يتوبوا عما فعلوه.

وأنهى حديثه بكلمات مرحة ليغير ذلك الجو المرعب المفزع الذي ينتاب الفتى، طلب منه ألا يتناول الغداء لأنهما سيتناولانه معًا عند عودته، وأكد له أنه الشيء الحقيقي الملموس في عالمه.

زادت ابتسامة المالك حين نهض متأملًا الفتى الذي يهز رأسه إيماءً بالموافقة أنه بانتظاره...

راقب رحيل المالك بخطوات ثابتة مع دقات عصاه المنتظمة حتى وصوله للباب وفتحه. وقبل أن يصبح بالخارج التفت إليه وأخبره أن

كل ما يدور في رأسه صحيح.. وأن ليس عليه أن يقلق، لأنه سيعلم الحقيقة كاملة في وقتها بل إنه فعلا المخلص الذي سينهي اللعنة ويعيد أمجاد العائلة.

كان العجوز قد أغلق الباب فور إنهاء كلماته ليترك الشاب لجنونه، وصوت طرقات العصا وخطوات العجوز تبتعد ويخفت صوتهما شيئًا فشيئًا حتى يختفيا تمامًا.

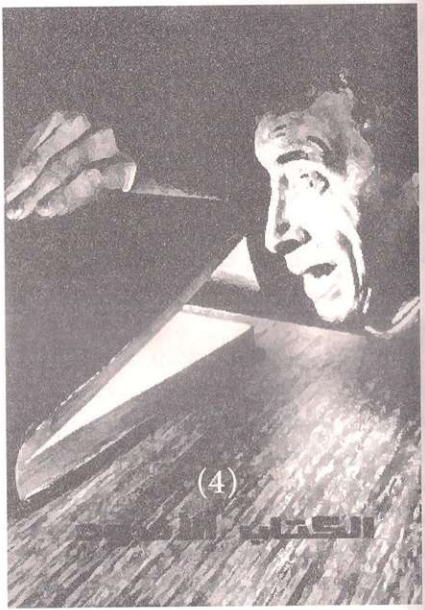
(4)

الفصل الرابع
الكتاب الأسود

مع اختفاء صوت خطوات صاحب العقار، أدرك أن الأمر به خلل ما؛ فارتمى على الأريكة التي تتوسط شقته وأمسك رأسه وقد انتابه صداع فظيع كاد أن يعصف بما تبقى من عقله، تذكر حديث العجوز الذي أخبره فيه أن اليوم ما زال يوم الأربعاء، رغم أنه من المفترض أنه عاش يومًا كاملًا في زيارة الطبيب الميت منذ أيام!

هل كل ما حدث وهم، كابوس أم مجرد هلاوس سمعية وبصرية داخل عقله؟

الحيرة كانت تعتري ملامحه، والأسئلة تتصارع في عقله بلا هوادة؛ ها هو بنفس الملابس التي كان يرتديها أثناء ذهابه للعيادة، ولكنها ليست مبتلة على الإطلاق من جراء الأمطار التي كانت تنهمر عليه، كل شيء حوله يخبره أنه كان في غيبوبة مؤقتة؛ ولكنه عاش أحداث يوم كامل وكأنها حقيقة. فجأة؛ تذكر شيئًا جعله يعدل من موضعه للجلوس وضع يده في جيبه ليخرج علبة الدواء، وتبعتها تنهيدة ارتياح، تفحصها جيدًا بسرعة ليتأكد من شيء سيرد له عقله، لكنه أحبط عندما وجد اللاصق الورقي الذي عليها جديدًا ولا أثر يدل أن قطرات مطر قد لامسته من قبل!

والتاريخ المكتوب عليها بالفعل منذ أسبوع مضى..

كاد أن يجن بالفعل؛ إنه لا يتذكر شيئًا عن الأسبوع الماضي؛ بل كيف لم يرَ تلك العلبة إلا الآن بعد الكابوس الذي راوده؟!..

الصداع داهمه بقوة أشرس من قبل ولكن ذلك لم يمكنه من النجاة من عدد من الأسئلة المحيرة المتعاقبة التي تضرب رأسه بقوة، أمسك رأسه براحتيه على الأريكة وتذكر كلام العجوز عن الرؤى للماضي أو الرؤى المستقبلية؛ قد تكون زيارة الطبيب رؤية من الماضي!

ولكن المشكلة التي ستجعله يفقد عقله وهو يغمض عينيه ويلقي برأسه الذي ما زال يمسكه براحتيه بعنف، أنه لا يتذكر هذا الماضي!

علبة الدواء التي لا يعلم كيف قفزت إلى جيبه أثناء نومه تخبره أنه كان بالفعل عند الطبيب منذ أسبوع، إذن أيعقل أن كل ما رآه وعاشه هي أضغاث أحلام!.

عند هذه اللحظة كان قد اتخذ قراره، ونهض مترنحًا مع إحساسه بزوال الصداع قليلًا واتجه مباشرة دون تفكير ليخرج من الشقة مقررًا بأن يذهب للتأكد بنفسه أن الطبيب مات بالفعل كما قال له العجوز، ومثلما رأى في تلك الرؤية الأخيرة.

نزل مسرعًا يقطع الدرج ولكنه توقف أمام الشقة رقم ٢.

والتي كانت تخص مدرس الموسيقى، لا يدري لمَ تحسس جيبه وأخرج مفاتيحه ووضع المفتاح في ثقب الباب، كل ذلك في لحظات

معدودة مع صوت صرير خفيف يرافق الباب الذي يفتح ببطء؛ ليتوقف فجأة بنظرات مليئة بالدهشة، يتأمل من مكانه الفراغ بداخل الشقة الخاوية تمامًا؛ فلا أثر لوجود بيانو أو لوحة أو أي أثاث، بل إن الأرضية مغطاة بالأتربة وكأن قدما لم تطأها منذ زمن!

أغلق باب الشقة في ذهول وأكمل طريقه للهبوط مترنحًا قليلًا لخارج العقار..

كل شيء أصبح لديه مختلط بالخيال والهلوسة، لم يعد يعلم إن كان يحلم أم يهلوس أم أنه الواقع فعلا، حتى تفكيره في هذا الأمر الآن يجعله متشككا إن كان داخل حلم سخيف سيستيقظ منه بعد قليل..

عقله يكاد يجن من فرط المداخلات عند خروجه من باب العقار ودون أن يلتفت حوله أكمل طريقه نحو العقار الذي أمضى يوما كاملا فيه، لكن داخل كوابيسه، قطع صوت تفكيره الذي سيجعله يفقد عقله وصوله أمام بوابة المبنى الذي به عيادة الطبيب النفسي، لم يندهش لرؤيته ذلك القفل الحديدي الصدئ على البوابة، وتلك اللوحة الخشبية التي تحوي ملصقا ورقيا كُتِب عليه " العقار للبيع.. وعليه رقم هاتف للتواصل مع ورثة البهنساوي."

توقف للحظات ليتأكد من معلومة حارس العقار عن البهنساوي التي أخبره بها في الكابوس الأخير من كوابيسه الحقيقة التي يعيشها كواقع ملموس ومسموع، لم يقف كثيرًا أمام العقار قبل أن يخرج هاتفه المحمول ويسجل الرقم المكتوب على الملصق، ناقلا بصره

بينهما، وبمجرد كتابة الرقم على هاتفه ضغط زر الاتصال، قفز فزعًا من رؤية الاسم مسجلا في هاتفه بالفعل تحت اسم "البهنساوى".

بدأت الحيرة وعدم الفهم والدوار والصداع عملهم كما يحدث كلما وجد مفاجأة...

إنه نفس الرقم الذي اتصل به عندما كان في طريقه للقصر، هذا ما خطر له حين تحرك بعيدا عن العقار، وقطع الشارع في اتجاه الصيدلية التي زار صاحبها في كابوسه الليلة السابقة، كانت الأفكار والحيرة تتلاعبان برأسه وتتقاذفانه فيما بينهما كأطفال تلهو بمرح في مكان خالٍ من أي شيء.

ما زال لا يتذكر شيئًا، ويشعر بالارتباك، ويحس أنه ينازع الموت؛ لا يعلم متى سجل هذا الرقم أو كيف لم يأت في خاطره أن يبحث في ذاكرة الأسماء مرة أخرى منذ آخر مرة استعمل فيها الهاتف، نظر إلى الهاتف الذي كان في يده، وهم أن يتأكد من محتوياته؛ إلا أنه تعثر بحجر صغير فتوقف عما كان ينوي فعله، كاد أن يسقط إلا أنه تماسك وسب بصوت خافت، قطع آخر كلماته حين رأى على مرمى بصره وعلى بعد خطوات قليلة أن الصيدلية مغلقة، ولكنه لمح ورقة معلقة على الباب جعلته يقترب أكثر، مسح قطرات العرق المرسومة على جبينه وقرأ أن الطبيب النفسي وابنه الصيدلي قد توفيا إلى رحمة الله، وقد وُضع عنوان للعزاء...

تراجع ببطء شديد للخلف ممسكًا رأسه براحتيه من قوة الصداع

الذي هاجمه؛ رغم عدم استغرابه مما رأى، لكن المفاجأة التي صدمته هي أن الصيدلي كان ابن الطبيب، فكلام العجوزعن مقتل الطبيب وبعض أفراد عائلته في العقار الذي يملكه صحيح.

لم تفارقه الأسئلة حتى مع نوبة الصداع التي تضربه بقسوة والتشنج الذي بدأ يصاحبه، حتى أنه لم ينتبه لصوت النفير ولا إلى السيارة التي صرخت مكابحها على بعد خطوات قليلة منه، كان انتباهه متأخرًا؛ فقد لمح مقدمة السيارة لكن بعد فوات الأوان والسيارة تصدمه وتلقيه على الأرض لتصدم رأسه ويغيب عن الوعي...

مرت غيبوبته هذه المرة دون رؤىً أو مشاهد لا يعلم عنها شيئًا، لا يعلم كم استغرق قبل أن يفيق وهو يشعر بارتجاج يتخبط جسده، حاول الرؤية ليجمع شتات عقله فأدرك أنه داخل سيارة بجوار كرسي السائق، دقق النظر بجانبه بعد أن استعاد وعيه ونشاطه مرة واحدة، ليجد فتاة جميلة ذات شعر كستنائي قصير وبشرة بيضاء صافية، وعينين بلون السماء، كانت تلتفت إليه مرارًا وفي عينيها نظرة هلع زادتها جمالًا فوق جمالها، لم تستغرق تلك النظرات المتبادلة بينهما لحظات قطعها حركة أثارت دهشة الفتاة؛ حين قرص ذراعه ولطم بكفه على وجهه عدة مرات قبل أن يمسك برأسه الذي ما زال الصداع مستقرًا على حدودها يجتاحه وقتما يشاء!

سألها بصوت يشوبه الوهن أين هو!.. وكيف جاء إلى جانبها...

أخبرته أنها من صدمته عندما قفز فجأة أمام سيارتها، وأتبعت

بأنهم أيضًا في الطريق لأقرب مستشفى لعمل الفحوصات اللازمة...

ساد الصمت لثوانٍ بينهما، مجرد التفاتات سريعة ناحيته بين الثانية والأخرى لتراه يتحسس، ويحرك أطرافه بطريقة تتم أنه لا يشعر بأي ألم جراء تحريكها...

أخبرها أنه سليم معافى ولا داعي لذهابهما للمستشفى ويمكنها أن تنزله في مكان...

قاطعته قبل أن يكمل محاولة إقناعها بالعدول عن قراره، وأن يذهب للفحص، لكنه أصر على عدم الذهاب مما جعلها تبتسم وتتحول لهجتها للهدوء والاطمئنان ووافقته لكن بشرط أن يوافق على قبول دعوتها للغداء فهي متجهة بالفعل لتناوله، لم يجب بلسانه؛ لكنه هز رأسه بالموافقة، أحس أنه لا مفر من القبول فوافق ونظر إليها؛ بالفعل جمالها أخاذ لدرجة أنه تساءل هل يستطيع أحد ممن تعرفهم أن يرفض لها طلبًا!

أبعد نظره عنها بخجل وتابع الطريق أمامه، كان الطريق شبه خالٍ من المارة، تحركت السيارة في شوارع جانبية لم تأخذ بضعة دقائق لتتوقف السيارة أمام مطعم يتخذ مساحة فيلا واسمه بلغة أجنبية على لافتة تدل على فخامة المكان وذوقه الراقي، شرد قليلًا متأملًا المطعم من الخارج، حتى سمع صوت باب السيارة من جانبه يفتح وصوتها تمازحه بأنهما سيأكلان في الداخل وليس هنا.

شعر أن ابتسامة فرحة ارتسمت على وجهه، حتى أنه تساءل إن

كان يعرف معنى الابتسام من قبل سكنه في العقار المشئوم!

لم يتحدثا وهما يترجلان، كانت تسبقه ببضعة خطوات ويقطعان الممر الصغير الذي على جانبيه مساحة خضراء ليست بالكبيرة لفتت نظره قليلًا أثناء سيره حتى وجد نفسه بداخل المكان بجانب الفتاة بعد عدة خطوات من الباب الذي فتحه أحد العاملين مرحبًا بهما عند دخولهما.

وقف للحظات مندهشًا بتلك الديكورات الباهظة التي تملأ المكان، ورقى العاملين والزبائن القلة الذين يراهم في المطعم.

فكر أنه ربما لأول مرة يقارن نفسه بكل هؤلاء، يحاول أن يشعر بأنه شخص طبيعي؛ فربما كانت له حياة جميلة ومستقرة قبل كل هذا، فلم لا يحاول رغم صعوبة الأمر؛ فهو حقًا ما زال يشعر أنه كائن غريب!

مرت لحظات على اندهاشه وتفكيره بكينونته حتى مجيء النادل الذي انحنى نصف انحناءة مرحبًا بهما واقتادهما بعدها إلى طاولة في أقصى المكان...

جلس متوترًا أمامها فهو لم يعتد هذه الأماكن، لم يعتد الزحام، بالأحرى لم يعتد الجلوس مع أحياء منذ فترة، راودته ضحكة ساخرة إذ فكر أن هناك احتمالًا أيضًا أن يكون كل هؤلاء أموات، ضحكة صامتة سرعان ما تلاشت...

- أنا علياء.

هكذا بدأت حديثها معه مبتسمة له ابتسامة جذابة انتزعته من أفكاره وتوتره الملحوظ، لتتقابل عيونهما للحظات قبل أن يرد عليها معاودًا الابتسام لها كنوع من أنواع رد الجميل، ويخبرها بصوت خافت عن اسمه كما رآه في هويته سابقا.

- أنا مخلص.. مخلص منتظر.

كما توقع فقد رأى علامات الدهشة في عينيها؛ فعزى ذلك في داخله أنها من اسمه الغريب، ولكن دهشتها ونظراتها لم تدم طويلًا لتتفجر في وجهه بذهول كلغم مخفي في طريقه، وتم الضغط عليه وهي تسأله صارخة مما جعل زبائن الطاولة الأخرى ينتبهون لهما:

- أأنت ابن عائلة منتظر التي كانت تعيش في العقار الملعون؟!

اتسعت عيناه في دهشة ويسألها كيف عرفت...

- إن هذا مجال عملي؛ فأنا أعمل صحفية في قسم الجرائم والألغاز الغامضة، وأتابع هذا العقار من فترة منذ أن تم قتل جميع سكانه بواسطة رجل كان يطلق على نفسه اسم "مفيستو".

انتفض من مقعده عند سماعه لجملتها الأخيرة، مما جعل جميع من حوله ينظرون إليه بتعجب حتى "علياء".

كانت ملامحه تُصدق على تعجبهم، لملم شتات نفسه وعاود الجلوس وهي ما زالت تنظر له بدهشة!

كان يتأملها وعقله مسافر في رحلة شكوك وأوهام ولعنات أرواح معذبة تفترس خلايا تركيزه في تلك اللحظة، وتملكه شرود في بعض

النقط المظلمة التي بدأت بإضاءة أجزاء مبهمة في عقله، والده هو من قتل السكان؟..

صاحب العقار قال غير ذلك...؟. هل هناك أرواح معذبة تطارده وتأتى لزيارته لتنتقم...؟!..

لاحظت علياء شروده فنادته ليلتفت إليها نافضًا تلك الهواجس من رأسه، متأملًا وجهها وشفتيها التي تتحرك هامسة تسأله عما به، ولم ذلك الشرود والارتباك الذي يعتريه.

أوقفها التفاته المفاجئة، ينظر حوله للحظات، بعد أن اطمأن أن الجميع عاد لما كان يفعل من همس، أصوات الملاعق وتضارب السكاكين في الأطباق كانت تزعجه، تشعره بالرجفة والرهبة، عاود النظر إليها بنظرات متخبطة وبصوت هامس مرتعش تحدث:

- لم أكن أعرف معلومة أن ذلك المدعو "مفيستو هو القاتل؟!.. وقد فوجئت بتأكيدك على أني ابنه، كما...

قاطعته بكلمات أسف تعتذر له بإخباره هذا.

بإشارة منه وابتسامة خفيفة على وجهه وبعض الشك والحيرة على ملامحه قال:

- لا بأس بذلك.

واستأذنها بنبرة هامسة بالذهاب إلى الحمام، نهض من مقعده بمجرد أن هزت رأسها بابتسامتها الرقيقة التي لا تفارق وجهها؛ ترجل من أمام ناظريها، ملتفتا ناحية النادل واتجه إليه بخطوات

بطيئة معدلًا ثيابه، توقف لبرهة دون أن يلتفت؛ ليأخذ نفسًا عميقًا يستعيد به قوته ورباطة جأشه، متجهًا إلى أقصى المكان حيث يقف النادل الذي كان يتابع بنظره بعض الورقات في دفتر يحمله بيد وباليد الأخرى يمسك بها قلمًا يكتب به على بعض الصفحات التي يقلبها بسرعة.

لم ينتبه من توقف مخلص بجانبه إلا عندما أخرج صوته الهادئ بسؤاله عن مكان الحمام، في تلك اللحظة انتبه النادل له وبابتسامة محترفة وبثقة لعامل يعمل في المكان منذ فترة طويلة، أشار باليد التي تحمل القلم خلفه على بعد خطوات قليلة في نهاية الممر الذي يشير إليه؛ مال مخلص برقبته مع القلم ليشاهد بابين في نهاية الممر، وصوت النادل الهادئ يخبره بأن الباب الذي على اليسار خاص بالرجال.. لكن "مخلص" التفت إليه سريعًا وكأن معرفة الحمام لا تعنيه كثيرًا؛ فهو يريد أن يعرف شيئًا يدور في رأسه، سأله بطريقة سريعة وهو يميل أكثر ناحيته هامسًا:

– هل يوجد أحد يجلس معي على الطاولة؟

نظرات النادل تغيرت للذهول وقسمات الدهشة اعترت ملامحه متفحصًا ملامح "مخلص" الباردة، ونظراته الجامدة في انتظاره لسماع إجابة، مما جعل النادل يجيبه بنبرة هادئة وإن اختلفت بثباتها قليلًا بالإيجاب مع إيماءة سريعة برأسه لتأكيد إجابته!..

لم تخرجه من دهشته صوت التنهيدة الصادرة من "مخلص" التي

تنم عن شعور بالسعادة يغمره، ولكن وقع الأمر لا يزال غريبًا على ملامح النادل الذي لم يصدر منه أي رد فعل صوتي أو حركي عندما تحرك من أمامه بابتسامه سعيدة تملأ وجهه، تاركًا إياه في شعور بالغرابة والتعجب، تابعه يذهب بخطوات سريعة نحو باب الحمام حتى اختفى من أمام النادل تمامًا، وعاد إلى ما كان يقوم به سابقًا حتى أنه لم يلحظ خروج مخلص السريع!

لم يتغيب إلا دقائق، مارًا بجانبه عائدًا إلى الطاولة مرة أخرى مبتسمًا، فالأمر بالنسبة له على الأقل حقيقيّ هذه المرة!

جلس معتذرًا على التأخير؛ فطمأنته مبتسمة بأنه لم يتأخر من الأساس، شكرها على لطفها ثم دعاها ليكملا حوارهما متسائلًا إن كانت تسكن قريبًا من العقار المشئوم – كما تسميه – وإن كانت تستطيع مساعدته لإيجاد نفسه.

– أنا أسكن على بعد شارعين من هذا المطعم خلف العقار المشئوم.

أنهت كلماتها وأشارت له بابتسامة متسائلة بدورها عن مكان سكنه؛ ضحكة خافتة صدرت منه، وهو يجيبها:

– أنا أسكن في العقار المشئوم ذاته.

نظرت له بشغف شديد معبرة عن حسدها له بأنه يسكن هناك، وكم من مرة خططت أن تدخل العقار لتروي شغفها كصحفية!

كان كلامها ساحرا وهامسا جعله يتكئ على خده الأيمن يتابع كلامها عن تلك الرغبة، وسوء حظها في تحقيقها؛ فصاحب العقار

رغم أنه كان مختفٍ لفترة طويلة، إلا أنه ظهر فجأة منذ شهر تقريبًا واختفى مرة أخرى منذ عشرة أيام أو أكثر!

عدل من وضعه؛ فصمتت لبرهة وهو يفكر أيخبرها عن العجوز أم يتابعها!

صمت مستمعا لها تتحدث بصوتٍ هادئ وبلكنتها الغربية في نطق بعض الحروف، التي تضفي لصوتها إثارة غريبة:

– حاولت مرة واحدة أن أقابله وأعرفه بنفسي، لكنه رفض بتاتا دخولي؛ رغم أنه من المفترض أنه يعرفني ويعرف والدي جيدًا منذ زمن...

قطع كلامها النادل الذي أتى لأخذ طلباتهم...

أمسك مخلص قائمة الطعام التي أمامه وكذلك فعلت،

ثوان معدودات واقتربت ومالت عليه "علياء" تهمس له مشيرة إلى صنفين من الطعام أحدهما نباتي والآخر من صنف اللحوم مع بعض المقبلات، ابتسامة لاحت على ثغره وهو يحاول كتم علامات الدهشة من طلبها رغم جسمها النحيف مشيرا إلى النادل الذي انحنى أمامه يكتب في الورقة ما يمليه عليه، ثم انصرف...

نظر إليها مخلص بدهشة متفحصا جسدها؛ ليخضب وجهها خجلًا، ضحكت وقالت بصوتٍ مثير:

لا تنظر إليّ هكذا؛ فأنا آكل بشراهة رغم حجمي الصغير.

– غمزت له وهي تقول – أحب أن أرضي غرائزي وأشبعها، نصفها

الإنساني والآخر الحيواني!..

ضحك مخلص على عبارتها الأخيرة، وأخبرها أن الحجم لا يعبر إطلاقا عن الشراهة حتى نوعية الطعام ليس لها علاقة بالتصنيف الذي قالته وأكمل أن هذا خطأ شائع يقع فيه معظم الناس.

قطعت حديثه وأمسكت إحدى يديه بحركة عفوية، وسألته هامسة:

– أين كنت تعيش في السنوات الماضية؟..

أخبرها مباشرة وبهدوء وقد وضع يده الأخرى على يديها كأنه استسلم لتلك اللمسة التي أمدته بعاطفة افتقدها بشدة، أطرق رأسه لأسفل هامسا:

– لا أعلم؛ لا أعلم أي شيء عن ماضيّ، أين كنت وكيف قضيت طفولتي، ذكرياتي، وسنوات دراستي، كل هذا مسدل عليه ستار أسود قاتم في عقلي، أحيانًا ينزاح هذا الستار للحظات ولكني لا ألمح ما يروي عقلي.

تابع كلامه وإن ارتفعت وتيرة صوته قليلًا:

– كل ما أعلمه عن حياتي جيدًا هي فترة أسبوع تقريبًا، الفترة التي قضيتها في العقار، أو تحديدًا اللحظة التي وجدت نفسي هناك داخل العقار، قبل ذلك لا شيء!

لا يدري لماذا توقف عند هذا الحد ولم يخبرها أنه قابل صاحب العقار؛ ربما هاجس الريبة والشك والحيرة هو ما دفعة لذلك والمعرفة من تلك المرأة الحقيقية التي ظهرت له من العدم كما وجد

نفسه من العدم أو من المستقبل...

قطع تلك اللحظات قدوم النادل وعلياء تتأمله بنفس الابتسامة الرقيقة التي لم تفارق وجهها وصوت الأطباق التي تضع أمامهم تسيدت الموقف وقطعت جميع الهواجس والأفكار التي اقتحمت رأس مخلص، راقب رحيل النادل غير مبالٍ بنظرات علياء، وأشار لها بأن يبدآ في الأكل.

كانت فرصة لمخلص ليعيد ترتيب أفكاره في تلك الدقائق الطويلة التي تناولا فيها الطعام دون حديث، ومن بين لحظة وأخرى كان يتابع نهمها في الأكل وكيف تتنقل بين هذا الطبق والآخر وتأكل بسرعة ونهم، وعندما أحست أنه يراقبها، رفعت رأسها نحوه؛ مما جعله يبادرها بالحديث حتى يخفي أنه كان يختلس النظر:

- أرجو أن تحدثيني أكثر عن قصة هذا العقار بالتفصيل.

وضعت السكين والشوكة في الطبق شبه الفارغ أمامها، وأمسكت المنديل في نفس اللحظة بانسيابية وثقة وكأنها كانت منتظرة منه أن يسألها هذا السؤال منذ فترة، مسحت شفتيها برقة وفركت إصبعيها، وبدأت حديثها بإخباره أنها تمتلك القصة كاملة عن هذا العقار ولكن في ملفات بحثها التي عاشت سنوات تعمل عليها وتحتفظ بها في قصر والدها القديم، وليس في مسكنها المستأجر خلف العقار!

- يمكنني أن أريك كل شيء.

نظرت له بطرف عينها لتلمح لهفته، وأردفت غامزة بعينها:

- لكن ما سأفعله من أجلك سيكون بمقابل.

عمّ الصمت قليلًا، تأملها مفكرًا شاردًا، ماذا قد يكون المقابل الذي ستطلبه ثمنًا لهذه المعلومات؟..

لكنها لم تدعه يفكر طويلًا عندما أخبرته أن المقابل هو دخولها العقار؛ أن يجعلها تتجول فيه كيفما شاءت!

فكر مليًا يتأملها بنظرات ريبة وحيرة، بالنسبة له هي صفقة مربحة جدًا وبها سيعلم كل ما خفي عنه من حقائق لم يعلمها؛ فصاحب العقار لا يخبره الحقيقة كاملة وأرواح القتلى والهلاوس التي يراها تتحدث معه بطريقة الألغاز!..

لم لا يوافق؟!.. هكذا لم يأخذ بضع لحظات بينه وبين حوار نفسه الداخلي الصامت قبل أن يخبرها بموافقته بأن هز رأسه وابتسم لها..

ظهر في عينيها بريق النصر وكأنها فازت في معركة كانت تخطط لها طويلًا، لاحظ أيضًا أنها عادت تأكل مرة أخرى بعد تلك الفرحة التي ظهرت في عينيها بعد موافقته، وهو يتابعها تقضي على طبق اللحوم كاملا وتركت نصف الطبق النباتي الآخر، مما جعله يضحك ساخرًا ويخبرها أن الجزء الحيواني هو المتسيد في تلك اللحظة حسب تصنيفها، وتابع ببعض الجدية سائلًا إياها عما إذا كانت تعيش بمفردها أم مع أهلها.

هذه المرة لم تترك الأدوات من يديها وكانت تمضغ قطعة لحم

باستمتاع وتنظر له بنفس الابتسامة وبعد أن ابتلعتها أغمضت عينيها من اللذة:

– أعيش بمفردي، لأني الباقية من العائلة، لقد كنت في الخارج ولم آت إلا منذ شهور، وسأعود مرة أخرى بعد أن أنهي بحثي ورسالتي!

ضحك مرة أخرى وحدثها ممازحًا:

– لقد توقعت هذا؛ لأنه لو كان أحد آخر يعيش معك فإنه لن يجد ما سيأكله.

ضحكت مع ضحكاته التي بدأت تعلو، حتى انتبهت وتوقفت عن الضحك، نظرت حولها لبعض الطاولات التي لفت انتباههم علو الصوت، مالت برأسها ناحيته وهمست ضاحكة تطلب أن يعطيها رقم هاتفه، رد بابتسامة وتلفت حوله يتابع لحظات انشغال الزبائن في طاولاتهم وتحسس جيبه مخرجًا هاتفه، مال نحوها وبخجل أخبرها أنه لا يتذكر رقمه، ضحكت ضحكة قصيرة وأتبعتها بأرقام أملتها عليه ليسجلها عنده على هاتفه وبدأ بتسجيل ما يسمعه، وبمجرد أن توقف صوتها ضغط على زر الاتصال صدم مما رأى، وكتم شهقة كادت أن تفلت منه؛ فقد كان رقمها مسجلًا بالفعل عنده تحت اسم "علياء البهنساوي"

أحس بالدوار يجتاح عقله مرة أخرى، ولكنه تمالك نفسه بسرعة تثير الإعجاب وكأنه تعود على الصدمات

التي جعلته صلبا رافعا رأسه من على شاشة الهاتف ليسألها

بثبات وحذر عن اسمها الكامل ليسجله.

أجابت وهي تنهي طعامها تمامًا وتمسح فمها بالمنديل بصوتها الناعم أن يسجله باسم "علياء البهنساوى "نظر إلى الرقم مجددا فوجد أنه قد تم تسجيله أمس فى نفس الموعد تقريبًا!

لحظات قليلة من الصمت سادت الأجواء وعلياء تتابعه شاردا بنظرة نحو شاشة هاتفه، لا تعلم أن في رأسه تدور مئات الأسئلة المربكة المحيرة ومنها رقمها المسجل عنده منذ أمس وكيف وهو لم يغادر العقار!

لم تأخذه الحيرة كثيرًا ليعاود النظر إليها ويسألها إن كانت هي بنت البهنساوى صاحب نصف عقارات المنطقة والشارع المسمى باسمه!..

أجابته سريعًا بالإيجاب وتابعت بأن والدها يملك بالفعل نصف عقارات المنطقة منذ زمن بعيد وأنه كان صديق والده أيضًا صاحب الأرض أو العقار الذي بني عليها...

قطعت كلامها فجأة وابتلعت حروفها حد الاختناق عندما لاحظت مخلص قد تبدلت ملامحه وبدأ ينظر إليها بارتياب وشك؛ لتكمل حديثها مفجرة كلامها بصوت يشوبه بعض الحدة وهي تشير له بيدها نحوه:

– أعلم أن والدي ظلم الكثيرين وأنه أخذ كثيرًا من العقارات غصبًا واقتدارًا وقد تكون بالنصب والاحتيال بمساعدة والدك والعائلة!..

صمتت قليلًا تتأمله بنظرات غاضبة رغم ملامح وجهه التي بدأت

تلين وقبل أن يقاطعها تابعت كلامها بنفس اللهجة الحادة:

- لكنني لست مثله ولو كان الأمر كذلك فمن حقي أن أظن بك الظنون أنك مثل أبيك والعائلة التي تجهل تاريخها؛ ولكني لم أفعل.

خرج اعتذاره في لحظة نهاية جملتها وساد الهدوء والسكينة الأجواء بينهما للحظات، وإن لم تبتعد نظرات تأملهما لبعض وفي قرارة نفسه يأسف على سذاجتها؛ فالمسكينة لا تعلم عن والدها سوى أنه ظالم فقط، لا تعلم أنه كان خادم والده الشيطاني.

وصاحب العقار وكل العائلة كانوا أطرافًا أساسية في صفقة شيطانية وعهود بالدم على كتاب ملعون أحمر!..

حاول تغيير الموضوع بأن يأخذ منها وعدًا بلقاء آخر، فأخبرته أنها لا تعرف مواعيدها حاليًا فهي سوف ترحل قريبًا عائدة إلى الخارج مرة أخرى.

- تستطيع الاتصال بي في أي وقت تشاء وإن لم أرد حينها بالتأكيد سأعاود الاتصال في أقرب وقت ممكن، وحين تكون جاهزًا لزيارة قصر والدي القديم ولدخولي العقار، أخبرني وسآتي إليك، سأريك تاريخ عائلتك ربما تكتشف نفسك التي لا تعرفها.

وأنهت كلامها طالبة منه أن ينادي النادل لكي يرحلا...

لم يعارضها وأشار إلى النادل الذي هز رأسه بأنه سوف يأتي بالفاتورة وعندما التفت لها وجدها أخرجت مالا وضعته على الطاولة، ليدور بينهما جدال للحظات أصر فيها على

الدفع، ولكن لكنتها الحازمة ببعض الرقة التي تطغى عليها أقنعته بأنه ضيفها هذه المرة وأن هذا أقل شيء للاعتذار عن صدمها له بسيارتها، وفي المرة المقبلة يمكنه أن يدفع...

قطع حوارهما صوت رنين هاتفها؛ فاستأذنت في الرد...

نهضت مبتعدة حتى اختفت عن أنظاره مع قدوم النادل وهو يضع الفاتورة أمامه ويتركه ليرحل عنه في لحظات..

طال الوقت ولم تأتِ، أتى النادل مرة أخرى ليأخذ الحساب،

نظر له مبتسمًا وأخبره أنه سينتظر عودة صديقته للدفع، رد عليه النادل وقد تغيرت ملامحه للدهشة دون أن تفارقه نفس:

- تقصد الرجلان اللذان كانا يجلسان معك وليس الفتاة!

نظر له مخلص بدهشة وخاطبه بحدة:

- بل الفتاة يا رجل... لم يكن معي رجلان!

الفتاة التي كنت أجلس معها وأنت الذي استقبلتنا على باب المطعم الخارجي، تذكر جيدًا فقد يكون نظرك قد خانك.

تنحنح النادل بخوف متأملا "مخلص" كمن ينظر لمجنون:

- سيدي.. لقد دخلت من باب المطعم وبالفعل كنت في استقبالكم ولكن لم يكن معك أي فتاة، كنتم ثلاثة رجال فقط!.

لو كانت الصدمات تصفع لاحمرّ وجهه من شدتها وقوتها وأثرها الشديد على وجهه..

لم تمر لحظات حتى ملأ صراخه المكان ينعت النادل بالكاذب،

كررها أكثر من مرة ملوحا بيده في الهواء مما جعل الزبائن يلتفتون لهما وينظرون للشاب بنظرات استغراب ودهشة

والنادل يرد عليه بخجل ملتفتًا يمينًا ويسارًا، أخبره بأنه لا يكذب ودليله أن طلباتهم كانت ثلاثة أطباق رئيسية وبالفعل تم تناولها!

كان رد فعل مخلص سريعًا، بتحركه المفاجئ متجهًا للطاولة المجاورة لهم التي يجلس عليها رجل وقور وامرأته يتابعون حوارهما باهتمام واللذان انتفضا عندما مال مخلص برأسه على الرجل يسأله بصوت يكاد يكون باكيا:

- عذرا سيدي.. من كان يجلس معي على هذه الطاولة؟!.

كانت إجابة الرجل صادمة للشاب رغم الابتسامة التي حاول أن يرسمها على وجهه تخفيفا على الشاب وهو يؤكد على كلام النادل بوجود رجلين كانا يجلسان معه، وأخبره بأنهم كانوا يتحدثون ويتناقشون بصوت عالٍ.

لحظات صامتة مرت عليهم والشاب عيناه جاحظتان من الصدمة يتأمل الرجل الذي تابع كلامه بصوت خافت أنه

بإمكانه أن يدفع له الحساب أن لم يكن معه المال الكافي.

تراجع مخلص بظهره حينها من الدهشة دون أن ينطق بحرف حتى جلس على طاولته مرة أخرى ثم نظر إلى النادل وأغمض عينيه لبرهة ليفتحها ثم يلتقط النقود من على الطاولة ويضعها على الطبق الذي به الفاتورة وينظر للنادل الذي مد يده لالتقاط الحساب، أوقفه متسائلا:

- آخر سؤال وسأنصرف، هل كانت لأي من الرجلين أوصاف مميزة؟

أجابه النادل بخوف وبصوت متردد:

- نعم.. كان أحدهما عجوزًا أشيب يعرج على قدمه اليسرى والآخر يده محترقة تمامًا...

امتلأ قلب مخلص بالخوف والفزع عند سماعه هذه الأوصاف وفي عينيه نظرة رعب، نهض مسرعًا دون أن يتحدث واتجه نحو باب الخروج مسرعًا ومئات الأسئلة تدور في عقله تجعله يتحرك دون أن يدري أين ستأخذه قدماه؛ فهذه الأوصاف تخص شخصين لا ثالث لهما!..

المهندس المشنوق، وطبيب العيادة النفسية!

توقف خارج المطعم ناظرًا إلى السماء التي أوشكت شمسها على الغروب وتحسس ثيابه ليخرج هاتفه، همس لنفسه ببعض الأمل أن يتأكد من كل شيء حتى لا يصاب بالجنون، بحث سريعًا في الأرقام حتى وجد رقمًا مسجلًا باسم علياء، ضغط على زر الاتصال بخوف، سمع صوت الرنين القادم من الناحية الأخرى حتى أتاه صوتها تنطق باسمه وتسأل عن حاله.

تنهد مستريحًا لبرهة على الأقل الأمر صحيح، وها هي تعرفت عليه.

تحول صوته إلى نبرة بها بعض الحدة والرجفة وهو يسألها:

- لم غادرتِ المطعم وأين أنت الآن؟

أجابته بصوت تشوبه الدهشة مستفسرة عن أي مطعم يقصد؟

رد عليها سريعًا، وقد بدأ صوته يحتد بالغضب:

– المطعم يا علياء الذي كنا نتحدث فيه الآن عن العقار وقصر أبيك.

صمت خيم لثوانٍ بينهما قبل أن يخرج صوتها مرتبكا وبنبرة مرتجفة تقول:

– تقصد أمس؟! عندما التقينا بعد أن صدمتك وتعارفنا سويًا في سيارتي، لم نذهب إلى أي مطعم!

صمتت قليلًا ثم أردفت:

– حين رأيت رقمك ظننت أنك جاهز للقاء ثانٍ لنذهب إلى قصر والدي، وأعرفك على تاريخ عائلتك.

خيم الصمت للحظات طويلة بعد عبارتها الأخيرة ليتردد صوتها في أذنه مرة أخرى تسأله إن كان بخير، وهل تمر عليه الآن إن كان في العقار.

أجابها أن بإمكانها المجيء بعد ساعتين؛ لأنه في الخارج ذاهب لأمر مهم وسيعود بعدها للبيت.

أرادت أن تسأله عن وجهته، لكنه لم يمهلها وأغلق الهاتف، تحرك سريعًا في الشارع متخبطا كمن مسه الجنون يقطع الشوارع الجانبية يفكر في أشياء كثيرة، والصداع الذي بدأ يفتك برأسه حتى وصل لنهاية الشارع، ليتوقف قليلًا ليتفحص المكان من حوله ليحدد اتجاهه، رأى العقار على بعد أمتار قليلة منه مما جعله يتحرك مسرعًا ويكاد يكون أقرب للهرولة دون أن يلتفت للمارين في الشارع حتى وصل للبوابة، دلف سريعًا يقطع الدرجات بسرعة، وعند باب

شقته سمع خطوات وباب يفتح من فوقه مما جعله يتحرك سريعًا ويقطع الدرجات بسرعة رهيبة حتى يصل إلى الطابق السادس ويجد باب الشقة رقم ستة مواربًا.

اقترب بحذر نحوه ودفعه ببطء، انتفض فجأة، لكنه تمالك نفسه عندما وجد صاحب العقار يجلس على تلك المنضدة المستطيلة بجانب المكتبة القديمة...

ابتسم له العجوز وأشار له بالدخول، أخبره أنه كان سوف يتصل به لأنه لم يجده في شقته وأنه أحضر الطعام الذي وعده به وقرر أن يتفحص بعض الشقق حتى يصل، وعندما تأخر كان سيتصل به.

أنهى كلامه والشاب يدخل الشقة ويغلقها خلفه بعد أن هدأ قليلًا والتقط أنفاسه، مر أمام الطاولة ولا يعلم لماذا شدته تلك المكتبة التي لا يتذكر أنه رآها المرة السابقة عندما كان بها، في الركن على بعد خطوات من الطاولة، تقدم مخلص حتى أصبح أمام العجوز، وتوقف بجانبه يفصل بينهما المائدة فقط..

كان يشعر بدوار خفيف عندما التفت في مواجهة العجوز، أول ما استحوذ على انتباهه؛ لفافة من الورق الأبيض مفتوحة على المنضدة ورائحة لحم مشوي تنفذ منها، ظل صاحب العقار يتأمله، أخرج تنهيدة واتكأ على عكازه في وضعية تشي ببدء حديث مطول كعادته، مشيرًا نحو الطعام بإشارة لم يتأخر مخلص في تلبيتها فورًا؛ بل لم ينتظر كلمات العجوز ليقول أي كلمة؛ اختطف قطعة من اللحم

المشوي بسرعة وضعها في فمه وبدأ بمضغها بتلذذ غريب وكأن تلك الأحداث التي حدثت أنسته أنه لم يأكل منذ فترة؛ رغم أنه كان منذ قليل في المطعم!

أخرجه صوت صاحب العقار من لذة التذوق والاستمتاع المختلط بالحيرة؛ أعاد نظره للعجوز ليلاحظ حقنة بجانبه على المائدة، وقبل أن يبتلع قطعة اللحم كانت كلمات صاحب العقار قد خرجت وكأنه يقرأ ما يدور داخل رأسه من بعض الأسئلة المحيرة والشك:

– لفت انتباهك المكتبة، الحقنة، ظنون داخلك تنهش روحك.

صمت قليلًا يتأمل مخلص يلتقط قطعة أخرى ويأكلها ويهز رأسه يتحرك بخطوات واهنة، ويفرك إحدى عينيه بيده مشيرا بيده الأخرى للعجوز حتى يكمل حديثه بعد أن أصبح أمام المكتبة نافضًا كفيه، التقط كتابًا من داخلها مع صوت العجوز متابعًا كلامه بهدوء:

– لقد انتابتني نوبة سكر تم تداركها في بدايتها بحقنة أعطيتها لنفسي...

تنهد وأخذ نفسًا ثم أكمل:

– تحتوي المكتبة ستة مؤلفات لوالدك، والبقية هي كتبه ومراجعه وبحوثه التي كان يبحث عن أسرارها وكتب سحر وبرديات؛ كنوزه التي أوصلته للمجد؛ منذ عشرين عامًا وصل بعائلته للأمجاد والقوة لكن...

صمت وهو ينظر للشاب الذي كان يتفحص أحد الكتب وقد بدأ يشعر بصداع، وتنميل داخل بدنه وعضلاته يجتاحه، وكأن طبولا تدق

داخل رأسه جعلته لا يشعر بتوقف العجوز عن الكلام؛ فقد خطفه عنوان فصل من الرواية"مفيستو المخادع".

ليخرجه مما فيه ويسرق انتباهه تصفيق من العجوز وهو يشير له ويخبره أنه مثل والده شغوف بالقراءة واللغات والأديان والعلم والروحانيات...

تابعه مخلص بنظرة وعلامات الحيرة والدهشة على وجهه مما يسمع عن والده:

– كان يقول للعائلة أن من يخدم مفيستو ويفي بعهده ينال المجد والعلم والقوة، فيهب ويغدق عليهم من النعيم عقدًا من الزمان وكل شيء له قوانينه وقرابينه...

توقف ثوانٍ يبتلع ريقه بصوت متقطع والشاب يغلق الكتاب ويعود للكرسي أمام الطاولة وعند جلوسه بدأ جسمه يرتجف من منكبيه قليلًا، والعرق يتسرب من مسامه مع استمرار ابتسامة العجوز معبرًا عن اندهاشه بهذا التشابه بين الفتى ووالده:

– لم يرَ أحد غيره أعراض الاستحواذ، ممن كان يهبهم الرؤى المستقبلية والمتخفية، لكن عندما تقع الخطيئة وتخترق القوانين؛ فهناك عقاب يمتد لعقدين من الزمان، تتوقف الهبات والمنح فيهما...

أنهي كلامه والشاب يجلس أمامه واضعًا الكتاب بجانبه على الطاولة ويتناول قطعة أخرى من اللحم ويأكلها وقد بدأ الدوار يجتاحه، لكنه يريد أن يملأ معدته التي يشعر بفراغها، في محاولة

منه أن يفيق وقد قرر أن يستمع حتى ينهي العجوز كلامه لذلك أشار له برأسه ونظرته ليتابع، وكالعادة كأن العجوز بخبرة السنين التي عاشها، وكونه الناجي الوحيد من تلك المذابح التي حدثت في العقار والعقود مع والده، فكان يجيب وينفذ ما يتمناه الشاب في داخله وهو ينظر إلى عنوان الرواية "اعترافات شيطان تائب".

دق على الأرض بالعصا بقوة عدة مرات متتالية ليلفت انتباه الشاب، وقد نجحت المحاولة وجعله ينظر إليه مباشرة،

التقت عيونهما للحظات، فرآه مخلص بحاجبيه الأبيضين،

ورأس الحية الفضية في عصاه السوداء يتحدث بحدة قليلة مشيرا للرواية قائلًا:

- لقد كانت الأخيرة من أعماله، الوحيد من رأى مفيستو وحمل الكتاب الأحمر، من وصل للمستوى السادس الذي لم يصله إلا قلة لا تعد على أصابع الكف الواحد.

توقف عند هذا الحد وكان مخلص قد توقف عن الأكل ويمسك رأسه بكفيه محاولًا إيقاف صداع رهيب اجتاح رأسه وحاول أن يحكي له عن علياء والمطعم لكن شيئًا داخله اخبره أن يستكشف كل شيء وحده أولًا؛ فالظن والشك أصبحا يلازمانه خاصة مع هذا الدوار والحالات التي بدأت تسكن وتستحوذ كل ذرة وخلية داخله، لقد استطاع أن يخرج أول كلماته منذ دخوله الشقة بصوت متقطع:

- من البهنساوي؟ ومن قتل من؟ هل مفيستو قتلهم أم هم قتلوه

ثم لعنوا وقتلوا؟

التقط العجوز الكلمات المتعثرة ليغزلها بإجابات مبهمة كما اعتاد الشاب، لكن هذه هي المرة الأولى التي يشعر أن الحالة تنتابه في حضوره لتجعله ينصت لدقات العصا ويخبره أن والده كان عبقريا، وقد يكون الوحيد الذي أدرك أن هناك مرحلة سابعة وهي مقابلة الوحش.

لم يمهل مخلص الذي تدلت عنقه مجاهدًا للاستماع لكلام العجوز المستمر عن والده...

- البهنساوي كان دخيلًا على العائلة وحاول كشف الأسرار، وقد يكون السبب الرئيسي لما حدث لوالدك منذ عشرين عامًا مضت.

صمت قليلًا وسأله إن كان لاحظ من قبل أن رقم سبعة يمثل الكثير في الحياة؟!

في تلك اللحظة هز رأسه وقال بصوتٍ واهن:

- أشعر أني ولدت منذ ستة أيام فقط، ولا أعلم شيئًا عن الوقت والمكان، إنني تائه متخبط في الطريق، أريد فقط شعاع نور ينير عتمته!.

توقف بعدها قليلًا وبدأ برفع رأسه والصداع يزول من داخلها ببطء وكأنه كان في نوبة على وشك الانتهاء، وبدأت الحيوية تجري في دمه وقلبه يهدأ من الخفقان والتوتر...

فاستغل العجوز لحظات اليقظة تلك، في محاولة لجعل الحديث أكثر تشويقا بطريقته الساحرة في الإلقاء والحديث:

- إنها أعداد أيام وقد تكون أسابيع أو شهور وربما سنوات..

السماء والأراضين عددهم سبعة.. المشيئة عدد حروفها سبعة وهكذا الشيطان والإنسان.. الرذيلة والفضيلة.. الميزان والخطيئة، إنه رقم الكمال ولكي يرتقي إليه أحد يجب أن يقابل الوحش وينتصر عليه، وهذا لم يصل إليه إنسان طوال العقود السابقة والحالية!.

صمت قليلًا موجهًا نظره نحو مخلص، أخبره أنه يطابق والده؛ جسده وعقله مهيئان لاستقبال ورؤية العالم الآخر، وأن عائلة البهنساوي ملعونة لآخر ذرياتها..

تنهد ورفع رأسه قليلًا ناظرا للسقف وقال:

- ثمة فرق بين شياطين نخشاهم لأنهم بالأصل شياطين ..

وبين شياطين نقترب منهم؛ لأنهم بالأصل آدميون.

كان كأنه يقرأ ويمتص ما بداخل رأس الشاب من أسئلة ويحاول أن يجيبه لكن بحذر؛ فهو أيضًا لا يريد أن ينقض العهود:

- أبوك يا مخلص كان سابع العائلة وأنا صاحب الأرض، وللأسف كان من الموقعين في الكتاب الأحمر، يجب أن تجده ففيه خلاصك وخلاصنا، ولا تسمع لكلام أشباح قتلى، فأرواحهم النجسة تريد تضليلك، استمع لصوت نفسك وقد تساعدك روايات أبيك...

امتلكنا المال والسلطة والفنون والأدب وكل ما تتخيله امتلكناه لمدة عقدين من الزمان، وكل هذا وأنا مراقب، تحملت العقاب عقدين آخرين وأنا صامت..

لا أريد أن أخسر حياتي في نهاية الأمر، رغم عقمي وعدم وجود

ذرية لي، إلا أني سعيد لوصولي لهذا العمر وأنا الوحيد الباقي، كل هذا لأني لم أشارك في شيء، وكنت أراقب فقط؛ أراقب بصمت!

أنهى كلامه ببحة أقرب للحزن والبكاء وعندما حاول أن يقاطعه مخلص، قاطعه رنين الهاتف؛ كان صوت هاتف مخلص الذي ملأ المكان برنينه المرتفع...

نظر إلى هاتفه ثم إلى صاحب العقار ليخبره أنها علياء.

ابتسم العجوز دون أن يتفوه بكلمة وأشار له بالإيجاب.

ضغط مخلص الزر الأخضر واضعًا الهاتف على أذنه ليسمع صوت علياء تخبره أنها في انتظاره أسفل بيته في الموعد المتفق عليه، لم يندهش من عدم تذكره للأمر؛ فما مر به من أحداث في الأيام الفائتة جعله يتقبل أي شيء!

أخبرها أنه في طريقه إليها، ثم أنهى المكالمة.

ظل العجوز ينظر له مبتسما وكأنه يعلم ما يدور برأسه، وقبل أن يتفوه مخلص بكلمة عاجله صاحب العقار قائلًا:

- هل تساءلت يوما إن كانت حياتك التي تعيشها بكل تفاصيلها هي مجرد أسطورة تقرأها الأمهات ليلًا لأطفالها منذ قديم الزمن؟ ماذا لو كنت بطل كل ما يخيف النفس البشرية ويجعلها تجن وتحزن وتصاب بالاكتئاب؟!

نظر له مستغربًا ما يقول، متسائلًا بداخله عما تعنيه هذه الكلمات ولكن صاحب العقار لم يعطه فرصة لإكمال نهر الأسئلة الجاري في

عقله، نهض من مقعده معلنًا مغادرته ليتفقد بقية شقق العقار.

قام مخلص ليفتح له الباب وسأله لم هذه الكلمات في هذا التوقيت؟!

توقف العجوز أمام الباب المفتوح وهو يوليه ظهره قائلًا له ألا يثق بأحد من عائلة البهنساوي؛ لأنهم كانوا سببًا من أسباب موت والده وإفلاس عائلته.

أجابه مخلص أنه لا يعرف حتى من عائلته!

ضحك العجوز وأخبره أنه سيعلم كل شيء قريبًا، قال ما لديه ثم غادر الشقة تاركًا الشاب حائرًا في معنى كلمات العجوز المبهمة، والتي تزيد من إحساسه كل يوم أن هذا العجوز يعرف أكثر مما يقول، لكنه خائف من شيء ما؛ شيء قاتل!

غادر مخلص شقة والده نازلا الدرج ليقابل علياء التي يعلم أنها ستكون ساخطة من تأخره عليها...

وصل للطابق الخامس ليجد باب الشقة رقم (٥) مواربًا، ينفتح وينغلق بصوت صرير مخيف، كاد أن يكمل طريقه لأسفل متجاهلًا هذا الأمر ظنًا منه أن صاحب العقار بالداخل، كما أخبره قبل نزوله، لولا أن وجد الباب يفتح فجأة عندما وصل أمامه، استوقفه مشهد جمد الدماء في عروقه؛ مقعد متحرك في آخر بهو الشقة، تجلس عليه امرأة عجوز ذات شعر أبيض، تنظر له وتبتسم، بالإضافة إلى ضوء الشقة المتقطع الذي أضاف للمشهد رعبًا خاصًا!

اقترب من الباب ووقف أمامه ليتأكد من صحة ما رآه، همّ بالدخول؛ لكن استوقفه شيء جعله يتسمر في مكانه مرتجفًا؛ رجل ملثم يمسك بوعاء أتى من خلف السيدة التي استدارت برأسها، لتنظر إليه ثم عادت لتبتسم لمخلص كأنها لا ترى ما يستوجب قلقها!

مشهد غريب سريالي كاد يعصف برأسه، ولكن ما حدث بعد ذلك جعله يدرك أن كل ما حدث في اللحظات السابقة ما هو إلا بداية لجنون أعظم؛ فقد قام الملثم بإفراغ الوعاء على رأس العجوز وجسدها؛ حتى بدأت تضحك بصوت خافت، ثم أشعل عود ثقاب...

وقف بضع ثوان وهو يمسك به مشتعلًا، وينظر إلى مخلص، ثم فجأة ألقى به على السيدة التي اشتعلت كأنها كرة نارية قادمة من جوف تنين أسطوري!

فتح مخلص عينيه بارتياع، لكن رد فعل العجوز جعل عينيه تتسعان أكثر حتى كادت تخرج من محجرهما؛ فقد بدأت تضحك بشكل هستيري كأن الأمر أثار بهجتها!

أمسك الرجل الملثم بمقبض الكرسي وجره إلى الخلف، ليدخل به لغرفة جانبية، وصوت ضحكات المرأة ما زال يخترق أذنيه.

أراد أن يدخل ويتبعهما، لكن الشقة احترقت فجأة، وبشكل كامل، ورأى خيطًا من النار آتٍ من آخر البهو في اتجاهه مباشرة وكأنه صاروخ يستهدفه هو، حاول أن يتراجع لكنه لم يستطع من الخوف، وقبل أن يصل اللهب إليه ارتد الباب منغلقا ليصدمه في رأسه

ويسقطه أرضًا.

نهض بسرعة، لينزل الدرج مهرولًا ويخرج من العقار لاهثًا، وجد علياء منتظرة في سيارتها وعلامات الاستياء بالفعل بادية على وجهها لتأخره، فتح الباب بسرعة وركب بجانبها كأنه هارب ووجد الملاذ.

علامات الفزع على وجهه جعلت ملامحها تتحول من الغضب إلى القلق وهي تسأله عما به، ولم يبدو بهذه الصورة المثيرة للشفقة، هرب بعينيه ولم يجبها؛ تذكر كلمات صاحب العقار حين نصحه ألا يثق بها، أخبرها أنه مر بموقف عصيب ولا يريد التحدث به.

هزت رأسها متفهمة الأمر، ثم أدارت محرك السيارة، بعد أن هدأ قليلًا سألها عن وجهتهما، صمتت لحظة وتجهم وجهها، أخبرته وهي تدير رأسها عن الطريق أنها ستريه حقيقة عائلته ووالده اللذين لا يعرف عنهما شيئًا.

أحس بثقل في رأسه، لكنه عزا ذلك للأحداث التي مر بها، نظر للطريق من خلال الزجاج المغلق وأفكاره تحلق كعنقاء بعثت في الألفية الجديدة لا تجد لها سكنًا أو صديقًا؛ أخيرًا سينال شرف معرفة حقيقة نفسه وسر رؤيته للأموات الساكنين معه في العقار، والذين لا يعلم سر غضبهم كأنه قد تسبب بقتلهم!

تساؤلات عديدة تجتاح عقله المشتت، هل والده هو الجاني أم المجني عليه؟ أمامه احتمالان لا ثالث لهما: الأول كما قال له صاحب العقار أن والده قُتل على يد السكان، والآخر كما قالت له علياء، بأن

والده قاتل بدم بارد.

لفت انتباهه الطريق الذي تمر به السيارة؛ طريق يذكره بشيء ما؛ التفت لعلياء متسائلًا عن وجهتها، فأخبرته أنها في الطريق إلى قصر والدها، لتريه ما أخبرته به.

عاد لينظر من خلال الزجاج ونوبات الصداع تزداد حدة، رأى تلك الصخرة التي تشبه المقعد والتي جلس عليها عند زيارته للقصر الملعون، غادرت علياء الطريق الرئيسي ودخلت في طريق فرعي ممهد كأنه صنع خصيصًا ليصل إلى قصر والدها، وبالفعل؛ لاح القصر في آخر الطريق؛ ليصدم مخلص؛ إذن، لم يكن يتوهم ذلك في أول الأمر، وما حدث داخل القصر لم يكن ضربًا من الخيال، أو ربما ما رآه كان حلمًا أو رؤيا مثل غيرها من الرؤى التي تراوده، أو كما يسميها نوبات جنون...

عاصفة من الأفكار المتضاربة اجتاحت رأسه، قاطعها توقف السيارة أمام القصر، ليفتح الحارس البوابة لعلياء، لكن مخلص فاجأها بترجله من السيارة بسرعة ونظراتها المتسائلة تلاحقه.

وقف أمام اللوحة الرخامية التي تحمل اسم المالك الذي رآه من قبل "البهنساوي" اسم توسط اللوحة معلنًا بقوة اسم صاحب القصر، طاردًا كل الشكوك والمخاوف التي تعبث برأسه...

رجع للسيارة مرة أخيرة، وجلس في المقعد بجوارها غير مبالٍ بالشرح والرد على نظراتها المتسائلة، كأنه آلة لا هم له إلا معرفة

الحقيقة قبل أن يتوقف عن العمل.

فتحت البوابة وبدأت السيارة بالتحرك وسط طرقات محاطة بأشجار مهملة يعرف كل تفاصيلها، كان يعلم جيدًا أن كل ما يحدث له ويراه هو علامات لإيقاظ عقله، لكن كون هذه العلامات تأتي من قِبل أرواح معذبة؛ فهذا أمر لا يستطيع تحمله،عليه أن ينظم أفكاره ويبدأ بترتيب قطع البازل المتناثرة بداخل عقله؛ ليجد الخلاص كما قال له صاحب العقار.

سمع صوت علياء تحثه على الدخول بعد أن وقفت، يعلم أنه رآه من قبل، لكن هذه المرة يراه بوضوح، وبعينٍ فاحصة أخذ ينظر إلى تفاصيله؛ قصر مبني على طرازٍ قوطيّ مرعب، على جدرانه رءوس ماعز، وأشخاص بقرون، يبتسمون وفي أياديهم ما يشبه الشوكة، وفي أعلى القصر تمثال لجسد بشري غريب، في وضعية الجلوس، وعلى رأسه قناع لوجه ماعز، بيده كتاب، وباليد الأخرى يشير إليه.

قصر كفيل بكل تفاصيله المرعبة ليلًا أن يحول الأحلام إلى كوابيس أبدية.

أفاق مخلص من شروده على صوت علياء تدعوه للدخول، صعدا معًا الدرجات الرخامية الضخمة، ووقفا أمام باب عملاق يتذكر هو تفاصيله جيدًا؛ نفس الشكل والهيئة، لكن مع عدم وجود ذلك الحامل النحاسي الذي كان يحوي كتابًا أحمر!

أخرجت علياء مفتاحًا كبيرًا من حقيبتها، وفتحت الباب، لكن بدون

صرير هذه المرة، دعته للدخول فلبى دعوتها وقلبه يخفق بشدة.

نفس التماثيل والتحف القوطية المخيفة، والبهو الشاسع بأعمدته الرخامية باهظة الثمن.

وقبل أن تشير له لمكان يجلسان فيه، وجد نفسه يتحرك في المكان متجهًا ناحية اليسار، ليجد نفسه في ذات الوضعية التي كان جلس فيها من قبل مع والدها مع اختلاف أنه لم يجد مقعدين فقط؛ بل عدة مقاعد مذهبة تتوسطها منضدة على شكل امرأة عارية تتخذ الشكل الجنيني...

لحقت به علياء وقد بدت على وجهها علامات الدهشة، تسأله كيف له أن يعرف هذه الغرفة، رغم عدم مجيء أحد إلى هنا من قبل.

التفت إليها ناظرًا لها بهدوء عجيب، عكس كل ما يدور بداخله من براكين فكرية، سألها منذ متى يمتلك والدها هذا القصر؟.

لكنها طلبت إليه أن يجلس؛ لأن الحديث بينهما سوف يطول، فأطاعها وجلس...

استأذنته للحظات ثم عادت وبيدها كأسان من العصير المثلج، ودورق ماء، أحس أن عليه أن يروي ظمأ جسده قبل عقله، وبالفعل مد يده وشرب بعضًا من العصير ثم نظر إليها لتبدأ...

ابتسمت وبدأ حديثها بأن قالت له أن يتماسك لأن ما ستقوله قد يسبب له عدة صدمات؛ لذلك ستبدأ من البداية.

نظر إليها منصتًا دون أن يتفوه بكلمة، لكنها رأت في عينيه ذلك

الرجاء بأن تتحدث، أخذت نفسًا عميقًا ثم بدأت بالحديث...

"بدأت معرفة مفيستو والبهنساوي في منتصف خمسينات القرن الماضي، عندما كان الأول يدرس في الخارج، والبهنساوي كان مع زوجته الألمانية لقضاء عطلة شهر الزواج الأول، بدأ الأمر حين تشاجر البهنساوي مع شرطي في وسط العاصمة؛ بسبب جهله وقتها بقواعد المرور المتبعة لديهم، كاد الشرطي أن يعتقله لولا أن ظهر مفيستو وتنحى بالشرطي جانبًا، لا يعلم البهنساوي ماذا أخبره الرجل، لكنه لاحظ تراجع الشرطي بخوف ليشير لهم بالمرور، وأعاد له جواز السفر بكل احترام. من هنا بدأ التعارف، ومع مرور الأيام أصبحا صديقين مقربين.

كان المثير للدهشة أن مفيستو أخبر صاحبه أن صداقته ستفتح له أبواب النعيم هو وزوجته، وبالفعل؛ لم يمر يوم على كلامه وكان البهنساوي قد تلقى خبرًا أو بالأحرى وصية من رجل أعمالٍ أمريكي مشهور، يطالب فيها بنقل كل ثروته تلقائيًا إلى البهنساوي، وكل هذا بلا معرفة سابقة أو أسباب مقنعة، لكن من لا يقبل كل هذا البذخ!

من يومها بدأت صداقتهما بالتطور إلى حد الأخوة، وقبل رجوع البهنساوي إلى بلده بعدة أيام، اصطحبه مفيستو لمقابلة شخص يدعى"أنتون"، كان اللقاء في بناء جديد شبه مكتمل، بما يشبه دارًا للعبادة وإقامة الصلوات..."

مالت علياء بجذعها للخلف متنهدة، ليلاحظ مخلص لأول مرة

ذلك اللون الغريب لعينيها حين انعكست عليها الأضواء المذهبة في سقف الغرفة، ليمتزج بلونهما الأزرق الباهت، كانت لمعة تذهب العقل لولا أنه لا يشعر بعقله من الأساس.

عادت لحديثها المسترسل لتصف ذلك الرجل المدعو "أنتون"كما لو كانت معهم في ذلك الوقت:

"كان أنتون شابًا في منتصف العشرينات، ذا عينين حادتين ثاقبتين، لا يرتدي إلا الأسود الذي يلائم روحه السوداء، ولديه قدرة على الإقناع كعجوز متمرس.

بدأ مفيستو ذلك اللقاء بتعريفهم على بعضهم البعض، وبعدها بدأوا الحديث بتهنئة أنتون للبهنساوي على الثروة التي حصل عليها، أخبره أنها بداية ثراء لا مثيل له، لكن بعد أن يشكر من ساعده في هذا الأمر.

استغرب البهنساوي الأمر، فهو لم يكن يعنيه إلا تلك الثروة، لكن أنتون وفر عليه الكثير من الأسئلة حين أخبره أن من ساعده هو الشيطان!

أجل؛ لقد كان الشيطان هو من أوحى لرجل الأعمال أن يعطيه تلك الثروة، وأخبره أنه ينتظر منه الشكر والعرفان والولاء ليعطيه أكثر.

لقد اختاره الشيطان من بين الكثير من البشر ليدخل الدائرة – حسبما قال له أنتون – وأنه سيدخل عالمًا آخر لو قبل الأمر، عالم ليس عليه أن يخاف فيه من شيء ولا يحسب فيه لأحد حساب، سيفعل كل ما يحلو له دون ضوابط، فهو تحت قانون الشيطان!

كان البهنساوي يستمع فقط، لم يرد التفوه بكلمة حتى يستمع إلى كل ما لدى أنتون من كلام، وقد فعل؛ أخبره أنهم في صدد تكوين طائفة جديدة؛ ليست بطائفة دينية، وهذا ما كان يميزها؛ حيث لا تجبرك على ترك ديانتك!

أخبره أيضًا أنها مجرد طقوس للاعتراف بالشيطان وخلوده للأبد، وأنه أكثر المخلوقات إخلاصًا، ولم يكن هذا الكلام -حسب قوله - مخالفًا لأي كتاب سماوي!

شعر البهنساوي وقتها بالتوجس وتساءل عن الثمن.

وقتها ضحك مفيستو بشدة، وابتسم أنتون طالبًا من مفيستو توضيح الأمر، فجمدت ضحكته وعلا الجمود وجهه وهو يوضح له الأمر...

أخبره أن العرض مجاني، بل هو الرابح، وأن الأمر لا يتطلب إلا بعض القرابين من حين لآخر.

انفعل البهنساوي وهو يقول أنه لن يشارك في قتل وإزهاق الأرواح وتلويث يده بالدماء، فأخبره أنتون أن القرابين ليس بالضرورة أن تعني القتل، وأن بإمكانه التنصل من الأمر إن طُلب منه ذلك.

كأن البهنساوي كان ينتظر مبررًا ليشعره بالراحة، ويوافق دون شعور بالذنب، وافق وبارك الأمر، فتصافحوا وأخرج مفيستو من معطفه كتابًا غريبًا ليس كأي كتاب، بغلاف خشبيّ أحمر قانٍ، مكتوب على واجهته كلمات غريبة؛ فسأل البهنساوي عنه، ليخبره أنه كتاب لتفعيل العقد مع الشيطان الأعظم، وكل ما يحتاجه هو توقيعه؛ أمسك

بالقلم وفكر قليلًا ثم وقّع أسفل النقطة المشار إليها..."

توقفت علياء عن الحديث لتسكب كأسين من العصير وتعطي واحدًا لمخلص الذي تناوله ورأسه يكاد ينفجر من الألم بعد كل ما سمعه، ارتشف من العصير متأملًا الفتاة ترفع شعرها الكستنائي القصير وتزيحه خلف أذنيها، حركات بدت له درامية مبالغ بها، لا شيء منطقي في حياته؛ فكيف يكون هذا الجمال منطقيًا؟!

همّ بالتحدث لكنها أشارت له بالتوقف، أخبرته أنها ستجيب عن كل تساؤلاته بعد أن تنهي قصتها، ونبهته أن ما لديها أشد وقعًا على روحه، فعليه أن يكون مستعدًا لأسوأ الأمور.

هزّ رأسه كأنه ينفض ثقل جفنيه، متحديًا أيّ غيبوبة أو نوبة تفكر بمهاجمته في هذا الوقت، وأشار لها لتستأنف حكايتها، فابتسمت بتصنع وأكملت:

«بعد توقيع البهنساوي على الكتاب ووضع خطه مع الشيطان، عاد إلى بلده مع تعليمات من مفيستو بشراء قطعة أرض قريبة من عقار محدد، أخبره وقتها بعنوانه وتفاصيله، وطالبه ببناء قصر كبير لا يمائله أي قصر ليسكن فيه مع زوجته الصحفية الألمانية، فنفذ ما طُلب منه، اشترى قطعة الأرض وبدأ ببناء القصر الذي أصبح جاهزًا في أواخر الخمسينات، تزامنًا مع عودة مفيستو، وشرائه للعقار الذي أشار إليه من قبل لقربه

من الأرض التي اشتراها البهنساوي، بعدها بدأ مفيستو بتسكين

شقق العقار بسعر زهيد، لكنه كان يتبع سياسة غريبة وغامضة في اختيار السكان؛ فقد كان يقابلهم كما يقابل رب العمل موظفيه، ويعرف المناسب لذلك، استغرق عامًا لاختيار خمسة أشخاص فقط ليسكنوا ذلك العقار، واختار هو لنفسه الشقة الأخيرة في الطابق السادس...

فيما بعد، عرف البهنساوي أن مفيستو اتبع تلك الطريقة لمعرفة من لديه استعداد لبيع روحه للشيطان في مقابل الشهرة أو المال أو الجنس، أو أي شيء آخر، اختار بالفعل أشخاصًا رأى فيهم ذلك الاستعداد لفعل أي شيء مهما كان محرمًا للوصول إلى هدفه، ومع توقيع عقد التمليك كان كل منهم يوقع أيضًا في الكتاب الأحمر لبيع روحه!

كانوا خمسة أشخاص عاديين، لا أهمية لهم، لكنهم أصبحوا كل شيء!

مهندس أتى من أطراف المدينة، لا يملك قوت يومه، ومعلم موسيقى موهوب لكنه ناقم على من هم أقل منه كفاءة وأكثر منه شهرة ونجاحًا ولا يجد سبيلًا للوصول مثلهم، راقصة ترقص في ملاهٍ ليلية سيئة السمعة وتنتظر الفرصة للوصول إلى علية القوم، وطبيب فقير وزوجته الحسناء، والأمر من فقره هو عقمه، لا سند له ولا ولد، رغم ذلك كانا يعملان معًا أكثر من ستة عشر ساعة يوميًا لسد أجرة سكنهم، وأخيرًا، عالمة آثار سُرِق منها اكتشافها وتم اتهامها بالكذب والادعاء عندما طالبت بحقها..

نماذج مختلفة من المجتمع لكنهم متفقون على وجود هدف أوحد، وهو فعل أي شيء للوصول إلى القمة، مهما كان الثمن!

كان مفيستو قد انتهى من تسكين العقار، وبدأ بالاتفاق مع البهنساوي لبدء أول حفل، لتقديم أول قرابين الطاعة إلى شيطانهم المعظم في ليلة رأس السنة المتممة لعام ١٩٦١ وبداية العام الجديد.

في تمام الساعة التاسعة أغلقوا بوابة العقار من الداخل تجنبًا لدخول زوار غير مرحب بهم، ثم بدأوا في إقامة أول طقوسهم الشيطانية، سكان الشقق الخمسة، ومفيستو والبهنساوي وزوجته، كانت تلك الزوجة مشكلة تؤرق البهنساوي؛ حيث إن الأمر لم يكن يروقها، لكنها كانت تفعل ذلك على مضض رغبة بالثراء والحياة الرغدة فتستسلم للأمر.

قبل ذهابهم للحفل فعلت ما لم يكن لأحد أن يتوقعه، أخذت معها ودون علم زوجها آلة تصوير فوتوغرافية، رغم التحذير المعلن بعدم توثيق تلك الحفلات بأي وسيلة كانت، حتى لو كتابة، ورغم ذلك خالفت التعليمات، بذلك الحس الصحفي وروح المغامرة التي تسكنها...

بدأ الحفل كأي حفل عادي، شرب ورقص وموسيقى وتهاني، لكن عند دقات الساعة الثانية عشرة بدأت الطقوس وخطوات التقرب إلى الشيطان، تراجع البهنساوي وزوجته للخلف، تراجعوا باشمئزاز وشعور بالغثيان مما يحدث من مجون، أفعال محرمة وقبيحة بين بعضهم البعض، الكل يمارس الجنس مع من يشاء وبلا حدود، مما جعلهما يتساءلان كيف تورطا في هذا!

رغم شعورها بالتقزز إلا أنها أمسكت آلة التصوير وبدأت بالتقاط

بعض الصور في الخفاء، وقلبها يرتجف خوفًا من اكتشاف أمرها الذي مر ولحسن حظها بسلام...

فيما علم البهنساوي أن هذه القرابين تتم مرة واحدة كل عشر سنوات، مقابل العيش في رخاء وثراء طوال هذه الفترة حتى يأتي موعد القربان مرة أخرى بعد عشرة أعوام في ليلة رأس السنة، مع تعليمات بماهية القرابين، قرابين تصاعدية في متطلباتها وصعوبتها، وهذا ما علمه البهنساوي فيما بعد...

بعد الاحتفال الأول وطيلة عشر سنوات عاشت عائلة مفيستو في رخاء، وتكاثروا وتناسلوا نظير الأفعال المحرمة فيما بينهم، وكأن هذه مكافأة الشيطان لهم...

خمسة أطفال لا يعلم أحد لمن ينتمون تحديدًا، كيف وقد مارسوا تلك الليلة كل أنواع الشذوذ والفجور في شكل جماعي غير آدمي!

وفي تلك الفترة أيضًا عاشت عائلة البهنساوي في ترف؛ رغم امتناعهم عن تلك الأفعال، لكنهم كضلعٍ مؤسس لم يكن باستطاعة أحد منهم الإطاحة بهم.

بدأ مفيستو والبهنساوي تلك الفترة بشراء العقارات والأراضي المحيطة بهم؛ استعدادًا للمخطط الأكبر في إقامة مجتمع صغير يضم المنتسبين لطائفتهم..."

اعتدلت بجلستها مجددًا، تنظر مباشرة لمخلص الذي كان ينصت محاولًا البقاء على قيد العقل، دون أن تسحبه نوباته نحو الظلام،

وقفت علياء وتحركت قليلًا بالمكان، وهو يراقب خطواتها مستسلمًا، شعر أن جسدها الضئيل يملأ المكان، لا شيء غيرها، لم يعد يميز تلك الأنوار المتداخلة والتي شعر أنها امتزجت بعلياء التي بدت كطيفٍ مضيء يتحرك حوله...

اقتربت منه حتى أصبحت خلف مقعده، انحنت قليلًا لتهمس في أذنه:

– ومرّ عقدٌ من الزمن سريعًا جدًا، وحان وقت تقديم قربانٍ جديد.

وعادت للجلوس مجددًا مقابل مخلص، واضعة ساقًا فوق الأخرى وبدأت بسرد تلك الحكاية كأم تروي قصة لطفلها:

"ذهب مفيستو إلى قصر البهنساوي لتذكيره بوجوب تقديم قربان، وهو قتل واحد من أفراد العائلة الشيطانية، تقربًا وإخلاصًا للخالد!

انتفض البهنساوي مذكرًا مفيستو بأنه ومنذ البداية رفض تلويث يده بالدم، وأنه لن يفعل ذلك مهما كان الثمن.

ضحك مفيستو وأخبره أن ما فعلوه طوال السنوات العشر هو أسوأ بكثير من القتل، وأن عليهم إكمال الأمر للنهاية وإلا سيعانون لعنة الفقر ومن بعدها الموت.

كرر البهنساوي رفضه وبشدة، وأعلن أنه خارج اللعبة من الآن، لكن مفيستو أخبره وحذره أن الأمر ليس هينًا كما يعتقد، وأنه سيرغم على ذلك شاء أم أبى وبأي طريقة، ثم خرج من القصر غاضبًا، تاركًا البهنساوي في حيرة من أمره، لا يعرف كيف يخرج من هذا المأزق، وما يمكن أن تخبئه له الأيام المقبلة...

حدث زوجته بما دار بينه وبين مفيستو، أخبرها أنه نادم على كل شيء ولن يشارك في قتل أحد، هنا دارت فكرة في عقلها، ظنت أنها وسيلة الخلاص التي ستهدم كل ما خطط له من سنوات، وبالفعل؛ بالاتفاق مع زوجها وبدون علم أحد، هاتفت صديقًا صحفيًا يعمل في صحيفة ألمانية ذات مصداقية وشأن كبير، أخبرته أن لديها ما سيجعله من أوائل الصحفيين بهذا السبق الذي سيقدمه، اتفقا على موعد وقدمت له تلك الصور التي التقطتها في الحفل الأول، مع رسالة مكتوبة تشرح جميع تفاصيل هذه الطائفة بجميع درجاتها الست..."

انتقلت بالحديث لسؤال مخلص إن كان يعرف شيئًا عن تلك الدرجات، أم أن عليها أن تشرح الأمر.

كان الدوار يزداد حدة، وبدا ذلك على ملامحه، كان سيخبرها أن صاحب العقار أخبره عنها، لكنه عدل عن الأمر وقال إنه قرأ عن ذلك في روايات والده...

هزت رأسها متفهمة ثم عادت لسرد تلك الأحداث:

"بعد إرسال الصور للصحفي، انتظروا انتشارها في الصحف الألمانية والعالمية ووسائل الإعلام لفضح ذلك المخطط والتخلص منه للأبد، لكن ما حدث لم يكن متوقعًا على الإطلاق؛ فقد كان ذلك الصحفي منتميًا للطائفة ذاتها، وبعد استلامه للمظروف أبلغ السادة بالأمر، وأُرسلت تلك الصور والرسائل لمفيستو حتى يتصرف على الفور.

لم يضيّع مفيستو تلك الفرصة الثمينة ليضرب كل العصافير

بحجر واحد، معاقبة البهنساوي وزوجته، والحصول على مكافأة ورضا الشيطان بتقديم القرابين من العائلة..."

وضحت علياء لمخلص ما يقصد بالعائلة أنه كل من ينتمي للطائفة، ليس بشرط وجود قرابة دم أو نسب...

"وفي ليلة رأس السنة الميلادية المتممة لعام ١٩٧١ وحسب تقارير الشرطة، فقد هاجمت جماعة من الملثمين قصر البهنساوي، وقتل هو وزوجته بطريقة بشعة، قيّدت القضية ضد مجهول، بالمقابل عاش مفيستو وعائلته عقدًا آخر من الزمن كملوكٍ على الأرض، ازدهرت أعمالهم، امتلكوا القوة والنفوذ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكلٌّ كان على قمة مجال عمله... حتى تحققت النبوءة..."

قالت جملتها الأخيرة وقد لمعت عيناها حتى شعر مخلص بقشعريرة سرت في كل جسده؛ كأنه استشعر الأمر، أنصت مقاومًا بقوة أكبر ذلك الدوار الذي يلازمه، أنصت بكل جوارحه لكلماتها...

"تحققت النبوءة وأتيت أنت، من رحم امرأة فاتنة؛ زوجة الطبيب العقيم، لكنك كنت المختار من بين كل الأطفال الذين أتوا في العائلة؛ لأنك ولدت من نسل مفيستو، وضعتك أمك في الشهر السادس؛ شهر مقدس لتلك الطائفة، لا يولد فيه إلا من نفخ في روحه الشيطان – كما يقول إنجيلهم الشيطاني –

«عندما يحين الوقت.. سنغمس أنفسنا في الدم المختلط.. سنكتب على إكليل الشوك فوق جبينه – ابن الشرّ المطلق – إله

العبيد.. ملك المستضعفين.. الأمير المنتظر"

كانت تلك نبوءة يرددونها أيها المنتظر، في كل طقوسهم وتراتيلهم، يهتفون للمنتظر..

نبوءة مرعبة، يدّعون أنها كتبت بواسطة الشيطان السابع، أو كما يسمونه"الوحش».

نبوءة تقول"سيأتي الظلام على الستة ومن الشهر السادس، سيولد حامل النور، ليبعث النور من جديد، ستقدم له القرابين البشرية ليصبح ملك العبيد "

عند ولادتك أحبك الجميع بلا استثناء إلا أباك، كانوا يشعرون أنه يحضرك لشيء عظيم، أكبر من مجرد طائفة، أمر شيطاني شديد السواد، وكأنه قادم من الشيطان نفسه، تصرفاته وأفعاله معك كانت تدل على ذلك؛ أحيانًا يأخذك لحجرته، ويغلق الباب من الداخل؛ فيسمعون تلاوات غريبة وتعاويذ بلغات غير مفهومة، أضواء غامضة كانت تنبعث من أسفل باب الغرفة، وأصوات مبهمة وضحكات لا تشبه صوت والدك، فيخرج أخيرًا وهو يحملك ويبدو عليه الإرهاق كأنه خارج من قلب الجحيم مباشرة...

قبيل ليلة رأس السنة بعدة أيام اجتمعوا مجددًا لمعرفة قربانهم الجديد؛ لتمجيد ابن الستة، وإعطائه مفاتيح القوة الكونية يجب عليهم التضحية بالأطفال الخمسة، يتوجب ذبحهم والتمثيل بجثثهم، ووضع أشلائهم في أرجاء المنزل ويغرق بدمائهم، وليبدأ عهد جديد

من حكم البشر والسيطرة على عقولهم...

حاول أفراد العائلة الاعتراض، والتحدث إلى مفيستو، لأن الأمر أصبح لا يطاق، لا يمكنهم ذبح هؤلاء الأطفال، قالوا إنهم شاركوا في قتل البهنساوي حتى لا يفضح أمرهم، أما الآن فالأمر يختلف تمامًا، ولا يقبله العقل، لكنه زجرهم وأخبرهم أن هذا الأمر ليس موضع جدال ونقاش، وما عليهم إلا التنفيذ...

كانوا قد أخذوا عهدًا على أنفسهم ألا يتم الأمر، وألا يقدموا أي قرابين بشرية مجددًا، فاتفقوا على إخفائك بعيدًا عن مفيستو؛ فعدم وجودك يعني عدم وجود سبب للتضحية؛ في الليلة السابقة لليلة رأس السنة أخذوك من مهدك وأخفوك في مكان لا يعرفه أحد، واجتمعوا بعدها بمفيستو على أمل أن يفكر بالأمر جيدًا.

أدهشهم وقتها هدوءه وتقبله للأمر، غير مدركين ما كان يضمره؛ ففي الليلة الأخيرة وعند الساعة الثانية عشرة قدم قرابينه الخاصة بقتل جميع سكان العقار بمن فيهم الأطفال الخمسة، لقد كانت مجزرة حقيقية بيد شيطان حقيقي، فعلها تقربًا لسيده حتى يعثر عليك، لكنه لم يوفق في ذلك، ولم يتلقَ أي إشارة على قبول قربانه، وحلت عليه اللعنة حتى قفز من شرفة شقته منتحرًا وهو يضحك بأعلى صوته كما قال أهل المنطقة في ذلك الوقت، ومنذ ذاك الوقت والعقار مهجور حتى ظهرت أنت.."

- قالت الكلمات الأخيرة وهي تنظر له بتحدٍ لا يعرف مغزاه – ثم تابعت:

- عليك الآن تحمل لعنات والدك كما هو مذكور لديهم؛ أن من سيأتي من نسل الشيطان سيكون عليه أن يكمل المسيرة، أو يحرق كتاب الشيطان الأحمر كقربانٍ أخير.

رغم كل تلك الصدمات التي تلقاها من حكاية لا يمكن أن يصدقها عقل، إلا أنه بقي صامدًا، تساءل بينه وبين نفسه، كيف لها أن تعرف كل تلك الأحداث بتفاصيلها، ومن أين لها أن تعرف عن الكتاب الأحمر!

بعد أن أنهت حديثها، انحنت لتتناول كوبًا من الماء وتشرب، تنظر له مبتسمة، رافعة حاجبها من خلف الكوب، كأنها تدعوه ليسأل ما يشاء...

لم يخيب أملها، أخذ نفسًا عميقًا، وأغمض عينيه لثوانٍ وقد بدأ الرؤية تتشوش...

بدأ بسؤالها عن كيفية معرفتها لكل تلك الأحداث، من قبل ومن بعد موت والديها، وأين كانت وقت مقتلهم؟.

نظرت له مليًا بصمت كأنها تستعيد شيئًا من الذاكرة، ثم شرحت له الأمر:

"من تدابير القدر وسخريته أن تخلق حياة من رحم الموت؛ وهذا ما حدث، عندما قتلوا عائلتي لم يعلموا أن أمي كانت في شهرها السابع من حملها بي، وكانت تخفي الأمر، اكتشفت الشرطة الأمر واستطاع الأطباء إنقاذي رغم موت أمي، وليتهم لم يفعلوا ذلك؛ لم يكن لي أقارب ولم يعرفوا شيئًا عن أبي؛ لذا أخذتني جدتي لأمي في ألمانيا وتولت عائلتها تربيتي حتى سن السادسة؛ فقد تم وهبي للطائفة التي كان

يعتنقها والداي، وبدورهم هم ينتمون لها، نشأت بينهم، رأيت هناك ما رأيت من أهوال يشيب لها الولدان، أمور لن تتخيل أنها موجودة حتى في أقذر عمق أسود في عقل مريض مختل، أخبروني بما حدث لوالدي لكن من منظورهم هم، شيء بداخلي لم يصدقهم، فقررت مجاراتهم والخوض معهم ليتاح لي دخول غرفة الأرشفة..."

هنا استوقفها متسائلًا عن ماهية تلك الغرفة؛ فأجابته بأنها غرفة تحتوي ملفات لكل شخص منتسب إليهم؛ ملفات تحتوي على كل التفاصيل عن حياتهم، نشأتهم، نقاط ضعفهم وقوتهم، طريقة انتسابهم للمجموعة، تطورهم في سلم الدرجات في الجماعة، وغيرها من التفاصيل التي لا يمكن الحصول عليها إلا من تلك الغرفة التي لم أكن لأدخلها إلا بعد الوصول للدرجة الرابعة بعد اجتياز ما قبلها بنجاح؛ لذا قررت أن أسلم روحي للشيطان، وأفعل ما يريد لأصل إلى ما أريد، فعلت كل ما هو فاحش، كل الفجور الذي يمكن أن يتخيله عقلك؛ حتى نجحت ودخلت غرفة الأسرار التي مكنتني من معرفة كل ما قلته لك، كانوا يوثقون كل التفاصيل بدرجة مرعبة، ما جعلني أدرك أن الشيطان في صفهم؛ بل إنه هو من يعمل لديهم وليس العكس!

قررت وقتها أن أعود إلى هنا لأنتقم من كل من ينتمي إلى تلك العائلة، بعد إقناعهم أني أريد العودة لإعادة إحياء هذه الطائفة من جديد، واختيار من يناسبها من أشخاص، وافقوا وعدت بالفعل،

ووجدتك أنت، وقتها أصابني التشويش؛ فقد وجدت عكس ما كنت أنتظر، نقيّ بروح صافية، كقديس تقي ولد من رحم عاهرة!

كيف لي أن أؤذيك أو أنتقم منك وأنت لا تعلم شيئًا عن عائلتك أو عن نفسك؟!

حتى بعد أن أخبرتك، لا يمكنني إلا رؤيتك كملاك يحاول الصعود للسماء، لكن أجنحته قصفت، فلا أنت قادر على الارتقاء ولا قادر على التأقلم مع البشر!»

بدأ جسد مخلص بالاهتزاز، يرتجف بشدة وهو على علم أن النوبة كادت تصل لأعلى مستوياتها، لكنه قاوم، لأول مرة يشعر أن بإمكانه المقاومة والصمود، سألها بكل رجاء عن إثبات مادي واحد، دليل يثبت أن والده ملعون من السماء كما تدعي.

ابتسمت وأخبرته أنها ستجعله يرى بعينيه، استأذنته لدقائق، غادرت الغرفة لتتركه وحيدًا يقاوم ما برأسه من جنون يكاد يفتك بعقله من فرط التفكير، حتى أظلمت الدنيا من حوله؛ لولهة ظن أنها غيبوبته المقيتة قد نالت منه، لكنه فوجئ بنور أتى من خلفه، وانعكس على الحائط أمامه، مع صوت علياء التي أتت وأخبرته أنها وأثناء وجودها في غرفة الأرشفة استطاعت أن تعثر على الصور التي التقطتها أمها بواسطة آلة التصوير التي أخذتها في الحفل الأول لهم، وقتها قررت سرقتها وسوف تعرضها الآن له ليرى ما كانوا يفعلون!

اقتربت حتى أصبحت بجانبه، وبدأت بعرض الصور، تراجع فزعًا من هول ما رأى؛ صور متتالية تعرض أمامه للعائلة، عراة وبأياديهم كئوس تمتلئ بسائل لا يظهر لونه إلا بالأسود، لكن كان بإمكانه أن يميز في بعض الصور أنها دماء!

صور أخرى توضح مدى مجونهم، لقطات لأمه مع أبيه، وأخرى للراقصة مع مدرس الموسيقى، والطبيب مع عالمة الآثار، وصور أخرى وقد تبادلت الثنائيات، بشكل منفر لا تقبله أعراف ولا أديان ولا حتى الفطرة الإنسانية...

أحس بالغثيان بالإضافة لذلك الصداع الذي يرافقه، أراد أن يقاوم، لكنه رأى مشهدًا أرعبه؛ ليس في الصور؛ بل متمثل أمامه في علياء، التي تمسك كأسًا به سائل أحمر، وتضحك بجنون وقد بدت أنيابها التي تقطر دمًا، وتسأله بصوت فحيحي مرعب عن رأيه فيما رأى.

حاول النهوض والهرب من المكان، لكن جسده لم يطعه، أراد الصراخ، لكن شيئًا ما يسد حلقه فلا يطيعه صوته، نظر لعلياء بنصف إدراكه، وعينيه الزائغتين وهي تفك أزرار قميصها، وتنزع ثيابها حتى أصبحت عارية تمامًا، وتقترب منه، مالت باتجاهه، اقترب وجهها من وجهه، حتى انفلتت منه تلك الصرخة المكبوتة...

فتح عينيه ووجد نفسه في شقة والده في الطابق السادس، نظر ليجد نفسه متكئًا على المنضدة وأمامه كتاب مفيستو بنفس الوضعية، رفع رأسه مندهشًا، جاحظ العينين...

تفاجأ مرة أخرى بصوت صاحب العقار على باب الشقة، يوليه ظهره، ويقول له"يبدو أنك غضبت مني مجددًا أثناء حديثنا كعادتك وكما كان يفعل والدك، ولكنه مثلك كان يستيقظ ولا ينطق بشيء، رغم أني أعرف أنه كان يرى الكثير في هذه الغفوة...

نظر إليه مخلص وعقله ما زال مشتتًا لا يستوعب ما حدث، ولا يدرك كيف لا يزال هنا.

ولكن العجوز أكمل قائلًا:

- سأتفقد بقية شقق العقار، إن احتجت لأي شيء ستجدني في إحدى الشقق، تذكر أن اليوم هو آخر يوم لك كما أخبرك البهنساوي، اليوم هو الخميس؛ فلتحاول أن تعتصر عقلك لتجد خلاصك المتمثل في الكتاب...

اتسعت عيناه بعد أن استمع لحديث العجوز، وتساءل عن صحة كلامه بالنسبة للأيام؛ فقد كان يجلس معه يوم الأربعاء، والآن يخبره أنه الخميس، كيف لغفوة بسيطة أن تنقل الأحداث ليوم كامل!

نظر إلى هاتفه ليتأكد، وبالفعل كان يوم الخميس، وكأن آلة زمنية اغتصبت منه يومًا كاملًا، نظر ناحية الباب الذي خرج منه صاحب العقار وفكر فيما قاله، كيف له أن يجد شيئًا لا يرى له أيّ سبيل، وكأنه شخص أبكم مطالب بإلقاء قصيدة أمام جمهور غاضب...

أيقن أن الحل يكمن في روايات والده كما قال له العجوز، فقط عليه بالقراءة والتركيز رغم كل نوباته وتعبه، خلاصه يكمن بين دفات

تلك الكتب الشيطانية الموجودة أمامه، والتي لا يعلم ماذا تحوي بعد، ولكنه مجبر على قراءتها كطالب لديه امتحان بعد أربع وعشرين ساعة فقط؛ امتحان نتيجته حياة أو موت!

بدأ بتصفح الكتب سريعًا قبل أن يبدأ بقراءتها، ستة كتب تكمل بعضها، لاحظ بين صفحات أحد الكتب ورقة صفراء، فتح الكتاب فوجدها صفحة مطوية مهترئة، من جريدة يعود تاريخها إلى أوائل السبعينات،، تفحصها ليعرف إن كان لها علاقة بتلك الأحداث أم أنها استخدمت كفاصل بين الصفحات لا أكثر؛ أخبار عن مباراة كرة قدم شهيرة، وأحداث سياسية بارزة كانت محور حديث العالم في ذلك الوقت، قلبها على الناحية الأخرى؛ ليجد خبرًا عليه علامة بدائرة حمراء؛ خبر عن حادثة قتل بشعة في أطراف المدينة، في قصر رجل يدعى البهنساوي، أدى إلى مقتله وزوجته الصحفية من أصل ألماني، وابنتهما علياء البالغة من العمر عشرين عامًا!

شهق بقوة وهو يتراجع بمقعده حتى سقط على ظهره، نهض واضعًا يده على فمه، وهو ما زال ممسكًا بورقة الجريدة التي تحتوي على صورة للبهنساوي وزوجته وابنته؛ الفتاة التي من المفترض أنه قابلها وجهًا لوجه وتحدث معها...

أسقط الورقة من يده وهو يمسك بجانبي رأسه، ويصرخ بكل ما أوتي من قوة، لم يعد يفهم شيئًا، ولكن هذه المرة الأمر فاق قدرته على الصمود، أخذ قراره بالذهاب لصاحب العقار؛ فهو وحده من

يملك الإجابات، سيطالبه بالإجابة عن كل تلك التساؤلات وإلا سيصل به الأمر لاستخدام القوة..

لملم الكتب الستة وتناول الورقة من الأرض، وخرج من الباب الذي كان لا يزال مفتوحًا، واتجه لطريقه لمعرفة كل تلك الألغاز ومفاتيحها التي يدرك أنها كلها في جعبة ذلك العجوز...

الفصل الخامس
الليلة الاخيرة

نزل مخلص مهرولًا على الدرجات، متخذًا القرار بإجبار العجوز على قول ما يعرفه من معلومات تخص هذا المنزل والعائلة المقتولة، التي لا تكف أشباح أفرادها عن الظهور له، لكنه فجأة توقف في الطابق الخامس، ابتلع ريقه عندما وجد باب شقة عالمة الآثار مفتوحًا، والأنوار مضاءة بالكامل، ولا يوجد أيّ أثر لأي حريق!

أغمض عينيه ثم فتحها مرة أخرى ليتأكد أن ما يراه ليس وهمًا، بل هو واقع حقيقي رغم غرابته، وقبل أن يسترسل في خيالاته وأفكاره، سمع صوت سعال صاحب العقار من الداخل، مع صوت طرقات عكازه على الأرضية يداهم مسامعه وعقله، مما جعله يتشجع ويدخل الشقة بخطوات حذرة مترددة، أخذ ينادي بصوتٍ مرتفع وهو يخطو بداخل الشقة، ربما ليطرد مخاوفه حتى وصل منتصف الشقة؛ ولكنه توقف فجأة بعد أن سمع صوت انغلاق الباب بعنف، متزامنًا مع ارتعاش وذبذبة للإنارة... التفت للخلف بسرعة في محاولة للخروج لكنه فوجئ بذلك المقعد المتحرك الذي تجلس عليه السيدة العجوز، أمامه مباشرة كحاجزٍ يحول بينه وبين الخروج، ارتجف خوفًا في بداية الأمر؛ إلا أن شيئًا في ملامح العجوز وابتسامتها الهادئة الطيبة

طمأنه قليلًا، طلبت منه برجاء أن يجلس معها قليلًا...

تراجع للخلف كأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي وجلس على أقرب مقعدٍ اصطدم به، متأملًا العجوز ذات الشعر الأبيض المجعد، والبشرة الحنطية التي كثرت فيها التجاعيد دون أن تخفي ذلك اللمعان في عينيها الضيقتين، منصتًا لصوتها المتهدج، بنبرة العجائز المميزة:

– اجلس يا صغيري، واهدأ؛ فأنا لم أتحدث لأحد منذ موتي...

تقبل الأمر بهدوءٍ غريب، هو نفسه لم يعهده من قبل، وكأن لسان حاله يقول"وما الفرق، كل من أحادثهم أموات، وربما كنت أنا مثلهم ولم أكتشف ذلك بعد!"

شعر بنظرة الامتنان في عين العجوز وهي تدنو بمقعدها منه بنظرة ملائكية وتقول بصوتها الحاني:

– أنا أعرفك منذ كنت طفلًا، لكنك يا صغيري لا تعلم شيئًا ولا تتذكر شيئًا...

ابتسم محدثًا نفسه بطريقة مجنونة:

– ماذا لو عرفت أني أعرف أكثر مما تظنين أيتها الشمطاء؟! أعرفك منذ كنت باحثة مغمورة، حتى أصبحت في مصاف العلماء، أعرف عن عهدك مع الشيطان، وعن لعنة روحك المعذبة.

دار كل هذا الحديث في عقله وهو متجهم الوجه، مع نصف ابتسامة جانبية ساخرة، ولا يبدو عليه أي انفعال آخر، مما جعلها تتحدث بابتسامتها اللطيفة المتسعة:

– لقد حملتك بين يدي وأنت صغير، أحببتك جدًا، لكن شاءت الظروف أن تبتعد بسبب شخص هو الآن في الجحيم بالتأكيد...

تغيرت ملامحها الهادئة بشكل مفاجئ، ليعلو صوتها بنبرةٍ غاضبة حانقة، وصرخت بصوتٍ مرعب وقد اقترب وجهها من مخلص:

– إنه الملعون؛ والدك الملعون مفيستووو...

تراجع للخلف فزِعًا؛ حاول النهوض للهرب من الجحيم المرعب الذي افتتحت بابه للتو، لكنه فوجئ أنه غير قادر على الحركة، وكأن شللًا أصاب أطرافه وثبته في مكانه وجعله غير قادر على الحركة!

من جديد عادت العجوز لهدوئها بشكل نسبي، كمجنونة مزاجية تتبدل شخصيتها وملامحها كل حين، هدأت لكنها لم تستعد تلك الابتسامة لتكمل حديثها:

– لقد قتل مفيستو كل سكان هذا البناء من أطفال وبالغين، إلا أنا؛ لأنني في وقت تلك المذابح تعرضت لحادث سير أقعدني؛ مجرد حادث سيارة جعلني قعيدة للأبد...

عشت كل هذا العمر في هذه الشقة حتى تم قتلي منذ سنتين فقط!.. قتلني شخص أنت تعرفه جيدًا...

التزم صمتًا لطالما التزمه في مثل هذه المواقف، وكأنه أدمن كل تلك الغرائب والعجائب التي تحيطه، وتلك الحالة التي بدأت في السريان داخله، لكن ما زالت الحيرة تأكله من ذلك التناقض ما بين كلام العجوز وشبح علياء التي أخبرته بمقتل جميع السكان في

ذلك اليوم المشئوم؛ فأيهما أصدق، راودته ضحكة ساخرة متسائلًا بتعجب "حتى الأموات يكذبون؟".

فكر أيضًا رغم التشويش والتشتت الذي يصيب أفكاره بمن تقصده العجوز!..

من هو القاتل الذي يعرفه جيدًا؟!.. إنه حتى لا يعرف نفسه!.

وضحك مجددًا من مزاجه الساخر لهذا اليوم وهو يجاهد الدوار الذي بدأ عمله معه.

ولكنه فجأة أدرك للحظة شاردًا فيها في الفراغ بأنه لا يعرف إلا شخصًا واحدًا، يلازمه منذ أن جاء إلى هنا؛ إنه مالك هذه البناية الملعونة، والذي يلتصق به في جميع تحركاته...أمسك مجددًا بجانبي رأسه، وأغمض عينيه بشدة عساه يتغلب على الصداع الذي أحس به كضربات معول يحفر في أرضٍ صماء!.

نظرت إليه العجوز بصمت كأنها تعلم ما يدور بداخله من صراع، فتح عينيه فجأة وسألها بصوت متقطع كأنه ينازع من أجل إخراجه، عن هوية ذلك الشخص؟!..

- أخبرني أولًا، أين كنت قبل أن تأتي إلى هذا العقار؟ وماذا تذكر من حياتك السابقة؟، هيا حدثني يا صغيري...

كان هذا جوابها، وسؤالها أيضًا، هزّ رأسه نافيًا يفرك وجهه بكلا كفيه كمن يستفيق من النوم، وأخبرها أنه لا يذكر شيئًا على الإطلاق، مجرد هلوسة ورؤى لا يدرك لها معنى سوى الجنون...

ضحكت قليلًا وأخبرته بأنه سيفاجأ بما سيراه الآن...

صمتت وصمت بدوره فاتحًا عينيه بتساؤل قبل أن تسترسل في حديثها:

- أعلم أنك رأيتني أحترق حية، وأن من حرقني شخص ملثم، فعل فعلته بكل برود كأنه قاتل محترف، أتدري؛ سأريك الآن ذلك الشخص، لكن عليك أن تحذر منه فيما بعد! غمزت وهي تقول كلماتها الأخيرة ثم انطفأت الأنوار وساد الصمت والظلام في أرجاء الشقة... صوت لهاث وأنفاس فقط، يخالطها صوت دقات قلبه التي بات يسمعها كأنها في حلقه!..فجأة أضاء مقعدها، كشعلة في كهفٍ مظلم، لاحظ وجهها الذي ظهر بفعل تلك الإضاءة، تبتسم له ابتسامة تنبئ بالكثير من المفاجآت...

من قلب الظلام ظهر خلفها ذلك الرجل الملثم، يحمل وعاءً كما رآه في المرة السابقة، وكما فعل في تلك المرة؛ سكب ذلك السائل القابل للاحتراق على العجوز، أشعل عود الثقاب ووقف متحديًا مخلص بنظراته...

حاول أن ينهض ويمنع ما سيحدث أمامه، رغم إدراكه ألا طائل مما سيفعل، لكنه حاول ولم يفلح، وكأن جسده قد أصابه الوهن وخذله...

استمرت نظرات الملثم كأنه يشمت بضعفه، مد يده لقناعه، وبدأ بنزعه عن وجهه، فتح مخلص عينيه جيدًا رغم ثقل جفنيه ليرى من هذا الغامض المتخفي وراء قطعة قماش.. وما إن نزع الرجل لثامه،

حتى تهدجت أنفاس مخلص وشعر بالاختناق، لم تعد أنفاسه ملكه، وهرب الدم من عروقه من هول الصدمة، صدمة مرعبة ازدادت رعبًا بصرخات العجوز التي استحالت عيناها إلى اللون الأحمر كأنها شيطان رجيم، بصوتٍ مرعبٍ لا يحتاج إلى أي تأثيرات خارجية أخذت تصرخ:

- أنت.. نعم أنت قاتلي، أنت يا ابن الشيطان من قتلني منذ عامين...

نقل بصره بهلعٍ بينها وبين الرجل الماثل خلفها؛ كأنها وضعت مرآة ليرى انعكاسه؛ إنه هو بكل تفاصيله، حتى بتلك الابتسامة الجانبية...

رمى عود الثقاب على المرأة التي صرخت هذه المرة؛ صراخًا يليق بألم الحرق حيًا، اخترق صوت صراخها المرعب أذنيه، وبدأ هو بالصراخ متشبثًا بجانبيّ مقعده، محاولًا النهوض بلا جدوى!

فجأة أظلم المكان للحظات طويلة واختفت العجوز وشبيهه، وتلاشى صوت الصراخ، وقبل أن يفكر، أو يعتقد أنها نوبة سيستفيق منها، أضاء نور خافت أمام وجهه مباشرة، ظهر فيه وجه العجوز وهو يحترق، وقد بدأ يشم رائحة لحمها المحترق، وما زالت تنظر لعينيه بحقد وهي تقول:

- كلنا سننتقم يا ابن مفيستو، أبوك ذهب وترك لنا إرثًا ملعونًا؛ إنه أنت، قتلهم مفيستو وقتلني ابنه، سننتقم بالدم أيها الملعووون...

بدأ مخلص بالصراخ حتى أظلمت الدنيا تمامًا... هنا بدأ يرى أشياء تنبعث من الظلام في عقله؛ ومضات كأنها لقطات من فيلم

سينمائي؛ قلاع ضخمة تقف على أسوارها الغربان ناعقة بصوتها الكئيب... ريف أوروبي يمتلئ بأناسٍ بوجوه منمشة، ولهم شعر أصفر مائل للكستنائي ينظرون له ويضحكون... حفل في بهوٍ شاسع يمتلئ بالضيوف بملابس رسمية وهو يتابعهم من شرفة طابقٍ أعلى...

امرأة لم يتبين ملامحها، عارية تتمايل فوق جسده وهو يعرق بشدة...

أصوات لأشخاص يحدثونه بلغات مختلفة ودقات مستمرة يسمعها من كل اتجاه جعلته لا يميز كلماتهم!

فتح عينيه وأصوات الطرقات ما زالت مستمرة، حاول أن يلملم شتات نفسه، ويرتب أفكاره ليعرف أين هو الآن؛ أدرك أنه في شقته وعلى سريره، لا يعلم كيف ومتى جاء إلى هنا، تنبه لصوت الدقات المستمر، فأدرك أن هذا الضجيج من باب شقته، قام مسرعًا نحو الباب، فتحه ليفاجأ بصاحب العقار أمام الباب، ويسأله عن سبب نومه لهذا الوقت المتأخر، لم يجبه مخلص، أدار له ظهره ومشى مفسحًا له الطريق ليدخل، واتجه بدوره إلى المطبخ ليعد القهوة، عسى أن تقضي على هذا الغشاء المعتم أمام عينيه، وتزيل آثار الإرهاق الذي يلازمه، ظل شاردًا في أحداث الليلة الماضية، يحاول ربط المشاهد ببعضها ووصل ما انقطع من خيوط...

أتاه صوت العجوز من غرفة الجلوس يسأله عما إذا وجد الكتاب الأحمر، مذكرًا إياه بأن هذا اليوم الأخير المحدد له من قبل تلك

الأرواح الغاضبة...

لم يرد الشاب، عاد حاملًا قدحين من القهوة وضعهما على الطاولة الفاصلة بينهما، والتي ما زالت تحوي تلك الكتب بشكل عشوائي كما تركها ليلة أمس...

نظر له صاحب العقار مستغربًا ومتسائلًا عن سر صمته؛ فتعلل مخلص بالإرهاق الذهني جرّاء حديثهما بالأمس.

هزّ العجوز رأسه متفهمًا، وهمّ بالحديث، لكن قاطعه حديث مخلص الذي بدا وكأنه يحدث نفسه وهو شارد ببصره مع البخار المتبعث من قدح القهوة:

- من يمتلك ذلك الكتاب سيمنح القوة العظمى التي يملكها شياطين الأرض السادسة...

اتسعت عينا العجوز، وظهر الارتباك في صوته وهو يسأله عن مصدر معلومته...

نظر له مخلص وأخبره أن هذه المعلومات تتدفق في رأسه دون أن يعرف مصدرها أو مغزاها...

صمت قليلًا ثم تحدث بلهجة أكثر صلابة:

- ما أستغربه هو إلحاحك الدائم وحثك لي على البحث عن ذلك العهد الشيطاني...

سرح العجوز قليلًا ناظرًا إلى سقف الغرفة، ثم أنزل عينيه ببطء لتلتقي بنظرات مخلص الحادة، والمثبتة على وجه العجوز كأنها

تدرس تحركاته وانفعالاته على أثر السؤال...

رد العجوز أخيرًا، بصوت هامس، وقد لمعت في عينيه بعض الدموع:

- لأجد خلاصي أنا أيضًا؛ هل تظن أن حياتي وبعد كل تلك الأحداث تمر بسلام؟! أنت لا تعرف كم شيطانٍ يزورني كل يوم، في يقظتي والنوم، أنام كأنني في الجحيم، أتذوق كل أصناف العذاب، أفيق وأراهم حولي، ينظرون إليّ بوحشية ويضحكون، لن أرتاح ولن أحصل على السلام إلا حينما تجد الكتاب الملعون وتحرقه، هدفنا واحد يا بنيّ؛ وهو العيش ما تبقى من عمرنا بشكل طبيعي كباقي البشر...

لم يصبر مخلص حتى ينهي كلامه، ولأول مرة يخاطبه بهذه اللهجة الغاضبة:

- لم كذبت عليّ إذن؟ لمَ لمْ تخبرني أن علياء قتلت منذ زمن بسبب والدي، ومثلها سكان هذا العقار؟ كل ما قلته لي عن قتلهم لوالدي هو هراء، كل الدلائل والرؤى تشير أن والدي هو القاتل، ولهذا كل تلك الأرواح ناقمة عليه وتنتقم مني، لم تضللني وتعكس لي الحقائق؟!

أجهش العجوز بالبكاء، ولأول مرة يكون هو الأضعف بينهما، يبكي بينما يبرر ما فعل:

- إن صمتي هو ما جعلني على قيد الحياة حتى هذا اليوم...

توقف عن البكاء بشكل مفاجئ، ناظرًا بعينين محدقتين ناحية مخلص وتحدث بنبرة يشوبها بعض الجنون:

- لا تنسَ أننا كنا جميعا شركاء في تلك الأعمال الشيطانية،

ولكنني بعد ذلك تميزت عنهم بشيء يريدون سلبي إياه... أتعلم ما هو؟ إنه الحياة! نعم.. ما زلت على قيد الحياة، ما زالت خطواتي تلمس الأرض، بينما هم أرواح هائمة ضائعة، لا تجد السلام، غضبهم يفوق تصورك، وما زالوا ينتظرون مني خطأً؛ ليأخذوني معهم، إفشاء تلك الأسرار هو الخطأ الذي سيتسبب بهلاكي، لم أخبرك لأني أدرك أنك ستكتشف الحقائق بنفسك، فأنت تملك ما يملكه والدك، وهو القدرة على التحدث مع الشياطين والأرواح المعذبة...

نظر العجوز إلى مخلص برجاء وأكمل كلامه:

- أرجوك، لا تخيب أملي في النجاة منهم، حياتانا مرتبطتان ببعضهما البعض، ومن السخرية أن تنقلب الأمور؛ فهناك من يبحث عن العقد ليبيع روحه؛ بينما أنت تبحث لتستعيد روحك مجددًا...

ظل مخلص شاخصًا ببصره، مذهولًا من هذا الحديث الكاشف، ويفكر بكل ما مر به، وفجأة تذكر أمرًا، نظر إلى العجوز وأخبره أنه متأكد من مقابلته لعلياء في المطعم الذي لا يبتعد كثيرًا عن هذا العقار...

نظر إليه العجوز بأسف وهو يخبره بأن المطعم الذي يتحدث عنه مغلق منذ عشرين عامًا، وقد تم هدمه وبناء برجٍ سكنيّ في مكانه...

فتح مخلص فمه، وهو يضع يديه المتشابكتين خلف عنقه وعلامات اليأس على وجهه، لكن العجوز انتشله كمن ألقى له طوق نجاة قبل الغرق...

- لا تتعجب؛ فعقلك يستطيع السفر بالزمن؛ ماضٍ ومستقبل،

عقلك يعمل بكامل طاقته مستعينًا بخبرة والدك اللانهائية في عالم لم يستطيع أن يصل إليه إلا ثلة من البشر، من يدري ماذا كان يلقنك والدك منذ الصغر؟، وماذا رأيت في طفولتك؟، لكنك بالتأكيد تلقيت تعليمًا شيطانيًا أسود؛ جعل منك ما أنت عليه الآن...

أحس مخلص بفقدانه للتوازن وهو ينظر إليه؛ الآن ربما تجمعت الكثير من القطع الناقصة في هذه الأحجية القاتلة، لكن كيف ينهيها؟ ما هو الخلاص الأبدي؟، وكيف يخرج من هذا البئر التي كلما شعر بالاقتراب من قاعها ازداد عمقًا؟...

بعد تفكير خرج سؤاله بكل تلك البساطة:

- ماذا عليّ أن أفعل؟

أجابه العجوز بأن عليه إيجاد الإجابة والكتاب اليوم، قبل منتصف الليل المتمم لهذه السنة، وقبل بداية السنة الجديدة، وإلا فعليهما أن يودعا هذه الحياة، ويستعدا للانضمام لدائرة الجحيم السفلية!

انفعل مخلص مرة أخرى مطالبًا إياه بالوضوح:

- دلني على الطريق لأبدأ، لا تكن غامضًا فالوقت يداهمنا، ولا وقت للأحجيات، تخلى عن حذرك للمرة الأولى وأخبرني، كيف السبيل لأهتدي لطريق صحيح بلا اعوجاج؟...

أخذ العجوز نفسًا عميقًا وقد بدا عليه الألم، تأوّه ممسكًا بصدره، ثم أجاب:

- كتب والدك؛ أعتقد أن فيها الإجابة، إبدأ بقراءتها وستجد

الخيط الذي سيقودك إلى الكتاب اللعين الأحمر...

تأوّه العجوز مجددًا ويبدو أن الألم قد اشتد عليه، أخبر مخلص أنه يشعر بأزمة جديدة تهاجمه، عرض عليه مخلص أن يبقى في شقته، ويذهب لأخذ قسط من الراحة في غرفته، وبهذا يكون قريبًا إن احتاج شيئًا أو استعصى عليه أمرًا.

وافق العجوز على الاقتراح، بعد أن أخرج من جيب سترته علبة دواء صغيرة، أخذ جرعته وقام بخطواتٍ ثقيلة متجهًا للممر المؤدي إلى الغرف الداخلية، ويقول بصوت منخفض:

- ستجدني في الغرفة الأخرى؛ فأنا معتاد على النوم فيها منذ كنت أبيت مع والدك في هذه الشقة...

كان مخلص متجاهلًا أمر بقية الغرف، حتى أنه لا يحفظ معالم شقته، قال بشيء من الاعتذار، أنه لم يدخل تلك الغرفة منذ أتى إلى هنا، ولا يدري كيف هو حالها.

طمأنه العجوز أنه معتاد على تفقد كل الشقق، وأنه تفقدها قبل مجيئه؛ فهي نظيفة ومجهزة تمامًا...

مضى العجوز في طريقه إلى أن استوقفه مخلص بسؤال مفاجئ وهو يمسك مقبض الباب ليفتح الباب؛ سأله عن حقيقة عالمة الآثار التي تسكن الطابق الخامس.

صمت العجوز وعاد بضع خطوات ليكون على مرأى من مخلص، أخبره أنها ماتت منذ عامين فقط، ولا أحد يدري من قتلها، فقط

يعرفون أنها أحرقت حية...

نظر إليه مخلص بحذر، لكن العجوز أردف معتذرًا عن إخفائه هذه الحقيقة أيضًا، قال إنه لم يعد هناك جدوى من الكذب بعد الآن، فحياته تعتمد على مدى صدقه...

ختم حديثه بقوله لمخلص وهو يلج الغرفة:

- حين تجد الكتاب، لا تستمع لهمسات الشياطين الملائكية التي ستتلو عليك جميع الأسباب المنطقية التي ستغريك للاحتفاظ به...

أراد مخلص أن يسأله عما يقصد، لولا أن سمع صوت انغلاق باب الغرفة وراء العجوز...

أخذ يفكر في كل ما قاله له، وكل ما قيل له من قبل، كل شيء متناقض مع ما قالته علياء، وما قالته العجوز المحترقة التي قالت إنه هو من قتلها، هل هو حقًا من قتلها؟!

هز رأسه بعنف كأنه ينفض الرماد القاتم الذي يشوه عقله، ليبدأ في قراءة كتب والده الماثلة أمامه كما أخبره العجوز؛ فالوقت يمر ولا حل آخر أمامه، ولا شيء يخاف على فقدانه...

نظر إلى الروايات مرة أخرى، أمسك الأولى وبدأ في القراءة...

- الكتاب الأول بعنوان"حياة شيطان مغترب".

يتحدث عن بدايات مفيستو ومعاناته في بلد أجنبي من حيث المعاملة، ومصاريف الدراسة التي كانت تضطره للعمل أكثر من نصف يوم، حتى أخذ قراره في العودة إلى بلده لضيق ذات اليد رغم

كل محاولاته البائسة...

- الكتاب الثاني بعنوان – "رفات شبه بشري"

يتحدث عن مقابلة مفيستو لشخص يدعى "أنطوان ليفي"وفكرة شيطانية راودتهما لبناء كنيسة تسمى "كنيسة الشيطان "يكون لها قوانينها وقواعدها وإنجيلها الخاص...

- الكتاب الثالث بعنوان – "عين الشيطان"

يحكي عن كيفية وضع "ليفي"و"مفيستو"لقواعد الإنجيل الشيطاني ومبادئه والأسس التي سيحكمون بها وتسري على المنضمين لهذه العقيدة، ورؤيتهم للأمور من زاوية مختلفة؛ زاوية عين الشيطان والتفكير بعقله...

- الكتاب الرابع بعنوان – "التجسد"

بدء وضع أساس الكيان الشيطاني على أرض الواقع، وبناء ما يسمى بأول معبد شيطاني في العصر الحديث، وتأليف كتاب آخر غير إنجيل الشيطان؛ يسمى الطقوس الشيطانية، وبه التصريحات الشيطانية التسعة وأيضًا الذنوب الشيطانية المكونة من تسعة بنود أيضًا والثلاث نبوءات التي توجد في الكتاب الأحمر المقدس التي تتنبأ بالرسل الثلاثة التي ستنصر رسالة مفيستو وتظهرها للعلن...

- الكتاب الخامس بعنوان – "الشر الحميد"

يروي فيه مفيستو عن اتفاقه مع ليفي على السفر إلى بلده للتبشير بالعقيدة الجديدة، وبناء مجتمع شرقي يعتنق هذه العقيدة

الشيطانية، واختياره لعقار يبنى فوق مقابر قديمة، تحوي رفات أشخاص كان لهم باع في أعمال السحر الأسود...

أنهى مخلص قراءة الكتيبات الخمسة وهو يغمض عينيه بضع مرات ليريح عينيه وينفض عنه بعض الإرهاق؛ الساعة الآن التاسعة مساء ولم يبقَ إلا ثلاث ساعات على الموعد المنتظر، ولم يصل بعد إلى شيء!

نظر إلى الكتاب الأخير ببأس وخيبة أمل، لكنه رغم ذلك أمسكه وبدأ في القراءة، قيل له من قبل أن هذه الرواية لم تحقق المبيعات المرجوة منها، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر...

- الكتاب السادس بعنوان – "اعترافات شيطان تائب"

الكتاب هذا لا يحتوي على مذكرات وذكريات لمفيستو؛ بل عبارة عن عبارات وجمل غامضة، تبدأ بمقدمة مفادها:

"إلى كل من يحمل في جيناته روح الشيطان، إلى كل من هو من نسل مفيستو، إلى المختار...

أنت بطل هذه الرواية وراويها، بل أنت من سيروي الرواية السابعة، تمعن جيدًا في الكلمات، هي صعبة لغيرك، ومفهومة لك أنت فقط."

بعد ذلك بدأ مفيستو الأب بذكر بعض التراتيل الشيطانية، والجمل والعبارات المنفصلة تباعًا... لتفصل مخلص عن العالم تمامًا وكأنما هو الحبر الذي روى الصفحات، كأن روحه انسكبت فكتبت، كل ما في الكتاب يخصه هو، يخبره أن أقرب الأشخاص إليه هم محور الحدث،

يخبره أيضًا ألا ينخدع بدموع المذنبين...

بعدها انتقل الكتاب إلى أحداث لا يعلم مخلص في أي زمن كانت أو ستكون، لكن استوقفته جملة في نهاية الكتاب تقول "هل يكمن اللغز في رقم ستة؟ لا تجمع الرقم منفردًا، بل اجمع كل القطع داخل دائرة واحدة، وانظر لها من منظور علوي، بنظرات شيطانية، تخلى عن روحك البشرية لدقائق، وقتها ستجد ما أخفيته متعمدًا، الألوان تتجانس في تضادها، ويبقى الأحمر القاني هو سيد الألوان..."

التفت مخلص ليجد على الطاولة بجانبه علبة عصير، لم ينتبه لها قبلًا، وكأنها ظهرت للتو أمام بصره لتروي عطشه، فقد جف حلقه حتى أصبح كأرض جافة تريد من يرويها من شدة التوتر بعدما أنهى الكتاب، وشعوره ببعض خيوط النور تتخلل عقله بعد قراءة كتاب أبيه الأخير، وبدأ تفكيره ليصبح أكثر وضوحًا في فك عقد هذا اللغز الشائك...

"أقرب الأشخاص لك هو محور الأحداث كيف لا، وكيف كان هذا الجزء معتمًا لهذا الحد، صاحب العقار، العجوز الأشيب، أقرب شخص له منذ أن بدأت هذه الأحداث، كيف لم يسأله من قبل عن اسمه، بل كيف يتأكد أنه بالفعل صاحب هذا العقار! ظهوره المفاجئ دائمًا وفي الأوقات المناسبة تمامًا كان يثير فضوله، لكن سرعة الأحداث ورهبتها أنسته الأمر ولم يركز فيه...

شعر أنه هكذا حل اللغز الأول، ولكن ماذا عن الأرقام؟ لم يفهم أي شيء مما يتعلق بهذا الجزء من اللغز، لكنه متأكد أن مفيستو قد

وضع له حلًا للغز اختفاء الكتاب، ولكن أين هو؟!

تنهد وقد ألقى الكتاب السادس بجانب الكتب الأخرى ونظر إليها، كاد أن ينهض، لكنه عاد ببصره سريعًا إلى الكتب، ثمة شيء يلوح له بالأفق، نور علويّ جعله يبصر، قام مسرعًا لترتيب الكتب بطريقة ما بجانب بعضها وينظر لها من الأعلى، لمعت عيناه وهو يلهث من شدة الانفعال؛ الآن فهم ما تعنيه كلمات والده الشيطانية؛ فغلاف كل كتاب يحتوي على جزء يدل على مكان الكتاب، إذا وضع الكتب بجانب بعضها بصورة صحيحة؛ سيظهر جليًا مكان الكتاب الأحمر، أمام الأعين، الآن وجد ما كان يبحث عنه، نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الحادية عشرة مساء، وبقيت ساعة فقط على النهاية، عليه التصرف بسرعة والذهاب لحرقه؛ لكن أولًا عليه أن يعرف من هو ذلك الشخص الذي رافقه طوال هذا الوقت، لن تأخذه به شفقة بعد الآن، تحرك من مكانه متجهًا إلى الغرفة المغلقة، والتي سيراها للمرة الأولى رغم أنها في شقتّه، ليستشعر فعلًا المعنى الحقيقي لسخرية القدر!

فتح الباب، ويده تتجه لزر الإضاءة؛ فأنارت بضوء أصفر باهت ضعيف.

نظر لداخل الغرفة متفحصًا باحثًا عن العجوز الذي يبدو أنه اختفى، دق قلبه بسرعة متزايدة، أين عساه يذهب، لم يشعر به خارجًا من الشقة، أيكون هذا أيضًا حلمًا أو رؤيا أو وهمًا؟!

كاد أن يتراجع خارجًا من الغرفة، لولا أن لاحظ حذاء العجوز

بجوار خزانة للملابس، كان باب الخزانة شبه مغلق، كأن شيئًا يمنعه، سحب نفسًا عميقًا واتجه نحوها بخطواتٍ بطيئة حذرة، وحدس متخوف، نظر مجددًا للحذاء ليتأكد من وجوده، اتجه إلى الخزانة ومد يده لفتح بابها، كأنه متوقع أن يرى شيئًا، لكن ليس ما رآه!

اصطدمت عينه بعين ذلك العجوز داخل الخزانة، بنظرة يملؤها الرعب، تجمد مخلص في مكانه محاولًا تدارك الأمر، العجوز يقف في الخزانة، إنه هو كما رآه منذ ساعات، لكن باختلاف بسيط؛ فرأسه كانت موضوعة على الرف المجاور لجسده، وكأن من قطعها قد فعلها بسرعة وفي عينيّ القتيل أقسى علامات الرعب!.

(6)

ميلاد العجيد

الفصل السادس
ميلاد المجيد

لم تدُم حالة الذهول طويلًا؛ رغم الرجفة وعلامات الفزع التي غزت ملامحه حين رأى رأس صاحب العقار الذي ينظر له بنظرات مرعبة؛ وقف يتأملها لثوانٍ قبل أن يقفز ببضع خطوات مبتعدًا، بعد أن انتاب جسده رعشة وشعور بالغثيان...

لم يدرِ كيف اتخذ عقله ذلك القرار، باتجاهه نحو باب الشقة ليفتحه ويركض بهذه السرعة قاطعًا تلك الدرجات كلها إلى الطابق السادس في وقت قصير...

دقائق معدودة وقف "مخلص" أمام شقة والده أو كما يدعوه الجميع "مفيستو"، كان يستند بساعده الأيمن على الحائط بجوار الشقة، وبيده اليسرى يدلك قلبه محاولًا أن يبطئ من وتيرة دقات قلبه الذي شعر بأنه سيخرج حتمًا من صدره، مغمض العينين وصداع غير اعتيادي يفتك برأسه، كأن الدماء غزت كل عروقه حتى كاد ينفجر، حاول أن يلتقط أنفاسه ويلملم نفسه؛ فالأمور تطورت وجميع مشاعره مرتبكة وجسده يهوي في غياهب الوهن، ولم يعد يستطيع السيطرة على أعصابه...

كالمجنون بدأ يهمس بصوت متقطع متحشرج..

«مات.. مات.. صاحب العقار مات»

اتخذ قراره وتقدم ناحية الباب، بعد أن فتحه مقررًا أن يدخل الشقة ليجد الكتاب ويحرقه؛ فقد كان لا بد من وضع حد لكل هذا الجنون، ووقف هذا الكابوس، مهما ساء الأمر، لا بد أن يفعل شيئًا أخيرًا ليتخلص من كل هذا أو يموت...

تشوش بصره وأحس بالضعف والتعب يغزوان بدنه الهزيل، كأنه حمل ثقيل لا تقوى قدماه على حمله لفترة طويلة.

اجتاحه هذا الضعف بينما يتحسس ثيابه بحثًا عن المفاتيح، وعندما قام بإسناد يده على باب الشقة انتفض جسده وسرى فيه هواء بارد يخرج من مدخل الباب الذي انفتح ببطء بصرير خافت، ضربت البرودة أوصاله ليرتجف جسده أكثر في حالة لم يشعر بها من قبل؛ لا أضواء ساطعة أمامه وإنما ظلام مخيف غشي بصره، حال بينه وبين رؤية أي شيء من الداخل، دفع الباب للنهاية متقدمًا بخطوات مترنحة بطيئة لشخص يعاني دوارًا وشعورًا بالغثيان وقليلًا من ضيق التنفس، وبالرغم من ذلك تقدم للأمام مقتحمًا مخاوفه في محاولة أخيرة للخلاص والنجاة من هذا الجحيم!.. دخل الشقة وكأنه قد ولج أحد أبواب الجحيم الستة الذي قرأ عنها في روايات أبيه، وقف متسمرًا قليلًا في حيرة مما يرى، ولا يدرك معناه!..

كان في منتصف الممر المظلم الذي يبدو أمامه دائرة كبيرة، تتوسطها دائرة أصغر، وما بين الدائرتين حروف لاتينية وأخرى

غريبة منقوشة، لمح كل هذا في وسط الظلام بلحظات، فالدوائر مطلية باللون الأحمر والكلمات مذهبة تلمع بشدة، تقدم مذهولًا ليرى عن كثب ويتأكد أنه لا يتوهم وجود كرسي ضخم من الفضة وقد طلي معظمه باللون الأسود، يقبع في منتصف الدائرة الأصغر تمامًا والتي اتضح له بعد أن أصبح على بعد خطوات قليلة وجود نقش لنجمة وجمجمة بنفس اللون الأحمر ترتكز عليها أرجل الكرسي في المنتصف تمامًا.

وقف غير مدرك للأمر، حائر فيما قد يأتي، محاولًا أن يهيئ نفسه لأي مفاجآت قادمة، ربما هو شعور داخلي بتقبل كل ما سيحدث بعد اعتياده على الصدمات المرعبة، لكنه لا يعرف إلى أي مدى يمكن أن تسوء الأمور!

باغتته الأنوار وقد أضيئت بشكل مفاجئ وبتأثيرات كما في المسارح؛ ضوءٌ رئيسي مسلط بشكل مباشر من فوق على الكرسي...

انتفض وتراجع مترنحا للخلف فجأة مع صوت الباب يغلق بعنف، ومعه تضاء في نفس اللحظة أنوار خافتة من جانبي الشقة في تتابع سريع، وتصدح بشكل مفاجئ الموسيقى من جميع الأركان، وكأن الجدران تحتوي على مكبرات للصوت، تخللت الموسيقى مسامعه المشوشة، فسرت رجفة في جسده لا يدري أهي من برودة الجو أم من تأثير ذلك اللحن الذي تغلغل في مسامه...

واصل تقدمه حتى وصل للكرسي غير مبالٍ بما يدور حوله، ضرب

صدغه بيده اليسرى مستندًا بالأخرى على الكرسي يحاول أن يفيق من تلك الحالة التي يعرف كيف يمكن أن تكون نهايتها؛ ست ليالٍ أو أكثر كما يتذكر أنهك فيها بتلك الحالات والتشنجات، حتى لم يعد لديه أمل في الشفاء، كان صوت الموسيقى يتصاعد بمزيج ساحر بين آلة وترية شرقية وطبول خفيفة وصوت تصفيق بالأيادي شعر أنه قريب جدًا منه، يسمع كل ذلك وهو في تلك الحالة المشوشة المشتتة؛ ليلقي بجسده على الكرسي محاولًا أن يقاوم ما يشعر به ويلتقط أنفاسه...

وقبل أن يتحرك أو يقرر فعل شيء، أضاء نورًا صاخبًا غشي بصره مرة واحدة ولعدة ثوانٍ، رأى فيها بصعوبة بالغة؛ أشخاصًا كثر على بعد أمتار قليلة متراصين، دون أن يميز وجوههم أو عددهم، لكنهم ضيوف غير مرحب بهم على كل الأحوال، فلم يعد لديه وقت ليتخلص من هذا العذاب الذي اقترب من إنهائه كما يعتقد...

انطفأت الأنوار مرة أخرى، لكن صوت الموسيقى استمر بانسيابية ساحرة، حتى تملكت بتأثيرها جسده الذي تراخى أكثر، مثل منتشٍ على إثر مخدر ما في مرحلة اللاوعي، والموسيقي الوترية الشرقية الممتزجة بإيقاعات غربية ذات طابع روحاني، بموجات صوتية مدروسة تتخلل بترددات مختلفة في كل أذن بطريقة ما، ظن أنها هلوسة سمعية وبصرية متمثلة في تلك الأنغام الروحية والتأثيرات المسرحية الدرامية للأضواء؛ لا بد أن تكون هلوسة لا يمكن أن يكون

ذلك حقيقيًا؛ فهو لم يعد يؤمن بأي حقيقة، لا يصدق ما يرى أو يسمع، أخذ يتمايل برأسه مع الموسيقى ليتغلب عليها ويطردها من رأسه، لكنها ازدادت بإيقاعها الصوفي المميز مع عودة الضوء مرة أخرى، نور سطع بقوة لكنه لم ينطفئ هذه المرة؛ حتى اعتادت عيناه على المكان، فتح عينيه جيدًا، ليجد على مقربة منه مع صوت الموسيقى الروحية شخصين يلتحفان السواد بملابسهم الغريبة يقفان أمامه كصنمين خلقا من العدم، تأملهما برعب على أمل أن يكونا هلوسة لا أكثر، حتى بدءا بالدوران حول نفسيهما في رقصة غريبة، لترتفع ما تشبه التنورة وترفرف صانعة محورًا لكل راقص يدور في مركزها، يحملان شموعًا سوداء في أيديهم الممدودة ويتراقصان ببطء وتناغم مع الموسيقى كأنهما في حلقة صوفية روحية تتجلى فيها الأرواح، ينظر إليهما بذهول، ليتراءى له ما هو أغرب؛ من خلفهما أشخاص آخرون، بملابس امتازت كلها باللون الأسود مع اختلاف تصاميمها، ما بين أزياء رهبان وأثواب طويلة وأخرى قصيرة وعباءات مع غطاء رأس وملابس رسمية، مزيج غريب من نساء ورجال وأطفال وشباب، العشرات بمختلف ألوانهم وأعمارهم، وهو شاخص البصر ثابت على الكرسي يشاهدهم بلا حراك، يقاوم جفنيه المتثاقلين، وقدرته الوحيدة المتبقية له هو أن يسمع تلك الموسيقى التي بدأ الجميع يتمايل مع إيقاعاتها، وفي وسطهم تقف تلك المرأة؛ التي ميزّ القليل من ملامحها من تحت غطاء رأس ترتديه، ومن نظراتها الباردة، تلك

المرأة التي قيل له من قبل أنها أمه التي قتلت وتسعى روحها للانتقام منه، تتأمله وهو لا يستطيع أن يستشف من نظراتها أي شيء في تلك الحالة التي تصاحبه؛ خدرٌ يعتريه وشلل حركي شعر به يمتد في جميع أنحاء جسده!

كانت هي الوحيدة التي لا ترقص معهم، واقفة بشموخ وهم يتحركون باتجاهه، يلتفون حول بعضهم البعض وينقسمون لصفين متجهين نحوه؛ كفريق استعراضي يعرف كل فرد منهم وظيفته، يدورون حوله ويصدرون أصواتًا منتظمة ومختلطة بمزيج يضفي على الأجواء رعبًا أكثر، بينما استمر الرجلان بالتنورة في الدوران، وهو فاتح فمه ينصت لذلك النشيد المرتل والمنظم، والذي يشبه إلى حدٍ ما تلك التراتيل الدينية التي تنشد في المعابد ممزوجًا بابتهالات ولغات مختلفة يسمعها مختلطة متعاقبة بإيقاع مرتب، مثل فحيح غليظ تسري كلماته بهدوء تملأ حواسه وتتغلغل في داخله، مستحوذة على كيانه تشل حركاته، يحاول أن يلتقط أنفاسه ببطء مع الخدر الذي يسري في دمه، وينصت للكلمات المنشدة التي كانت تتخلل روحه وتلمس عقله من الداخل سانِدًا رأسه على ظهر الكرسي محاولًا التركيز في الكلمات ليفهم إن كان في حلم أم كابوس، أم هو حقًا انتقام أرواح كما قال العجوز الذي ذبحوه!

"يا مفيستووو يا مخلص الوعود.. انظر لعائلة الخطايا اللعينة... الأبناء قادمون.. الواحد تلو الآخر يظهرون..

والمنتظر ابن الخطيئة سكران..

ضائع بين الأرض والسماء... غائب عقله والسكارى مخدوعون..

أيها العظيم هبنا من لدنك العظمة والقوة

نحن أبناؤك المخلصون..."

صوت الكلمات التي تُرتل بفحيح بطيء مرتب يعيد نفس الكلمات وهم يقتربون منه أكثر، وصوت الدفوف الذي يدق والطبول الخفيفة الرتيبة مع أنغام الأوتار الشجية التي يصدح صداها ببطء مع استمرار الهواء البارد الذي يلفحه من كل جانب ببرودة الجو الحقيقية في آخر ليالي ديسمبر، ليلة استقبال العام الثاني بعد الألفية الثانية..

برودة جعلت جسده يرتجف، وقشعريرة انتابته، يراهم يتفرقون حوله على خطوط الدائرة التي تبعد بضع خطوات من خلفه وأمامه ومن جانبيه، بعضهم يصفق بيده ببطء بوتيرة واحدة وثابتة، والبعض يتراقص كالأفاعي ويدقون الطبول من جانبيه، أصابه التوتر والفزع متلفتًا برأسه يمينًا ويسارًا يرى أشياء لا يفهمها ولا يقدر على شرحها، فتاةٌ ترمقه بنظرات لا يفهمها وهي تدور، تحمل الشموع السوداء، ويتدلى قرط من أنفها، بدت له مرعبة بزينتها الغريبة بسوادها، وشاب آخر - بالكاد ميّز كونه ذكرًا- ينظر له وفي عينيه ابتسامة مخيفة، يتراقص بجسده النحيل كأفعى حقيقية، وحركات يديه التي تلوحان بطريقة هزلية مخيفة، شعره طويل منسدل على كتفيه ويرتدي سروالًا جلديًا ضيقًا، ويضع الأقراط في كل مكان! أطفال من

الجنسين، نظراتهم أيضًا غير مريحة، وكأن الشيطان سكن أحداقهم، فيتصرفون بلا وعي، يدورون ويصفقون بوتيرة واحدة...

تأمل المكان بنصف وعيّ، محاولًا أن يجد بصيص نور في هذا المحفل الغريب، الجدران تحيطها مواد عازلة للصوت على بعد أمتار منه، لكن عينيه تسمرت جانبه على ممر مفتوح على أحد الجوانب يغطيه حديد كبوابة كبيرة بطول ثلاثة أمتار وعرض ستة أمتار تسمح للمرور إلى غرفة في نهايتها مكتبة والده التي رآها من قبل مستندة إلى حائط معزول بنفس اللون الأسود الذي يطغى على معظم ما في الشقة... كان يدرك رغم كل شيء، ببصره المشوش وعقله المشتت وهو ينظر من خلال الغطاء الأبيض الشفاف الذي يسد البوابة في منتصفها، شرد لثوانٍ لأنه لم ير تلك التفاصيل من قبل رغم زيارته للشقة أكثر من مرة...

شعر بانسحاب روحه في تلك اللحظات العابرة وهبوط اجتاحه وارتخاء تام في عضلات جسده التي أنهكها التعب والضعف، نضح العرق من جميع مسامه رغم برودة الجو، كل هذا أنذره أنه على وشك الانهيار في تلك النوبة التي تنتابه منذ قدومه للعقار...

وجوه كثيرة يألفها؛ زارته من قبل في نوباته، كلهم يمرون من أمامه؛ الصيدلي ويتبعه سائق التاكسي حاملًا شمعتين يلوح بهما.

ليس بإمكانه فعل شيء، لم يستطع إخراج صرخاته، أو أن يلتفت ليرى من خلفه، لا يستطيع سوى المراقبة، يظهرون أمامه تباعًا؛

المرأة التي كانت تجلس في المطعم تمر وخلفها النادل، أطفال صغار يمرون أيضًا في لحظات عابرة ويختفون، يلتفون حوله بخطوات بطيئة يدورون من أمامه وخلفه، وعندما حرك وجهه للأمام مرة أخرى كانت تلك المرأة بشعرها الأحمر وزيها الغريب الذي يشبه الأزياء الفرعونية في تصميمه لكن بلونه الأسود، وفوقه معطف بغطاء رأس انكشف ليظهر وجه أمه تتقدم نحوه ببطء شديد، تتلوى وتهز رأسها يمينًا ويسارًا مع التشويش الذي يغشي بصره والأنوار التي تخفت وترتعش وتنطفئ وتضيء في ثوانٍ كأنه في قاعة ملهى ليلي!

استمر ذلك لدقائق وهو يمسك رأسه بيديه ويضغط بشدة، وتعود الكلمات ذات الفحيح بتلك التراتيل والترانيم بإيقاعها الرتيب وبلحن كئيب يتغلغل رأسه مع الموسيقى المستمرة والتصفيق الذي يظهر ويختفي!..

"مفيستو ها هو المنتظر أمامك..

نحن من حوله.. أبناؤك المخلصون

كافر.. أو مؤمن.. كلهم فاااسدون..

انظر لعائلتك أيها العظيم..

يا حامل الضياء.. المنتظر في غفلة.. هائم سكران..

تقبل من ابنك المجيد.. تقبل يا مفيستو القربان...

الخليفة والوحش متشابهان!.

الدماء في كل مكان..

سيأتي العليم يا مولانا.. من نسله سيأتي

سنضئ الشموع ونقدم الولاء

للعظيم حين يأتي.. دماء أبنائه قربان... "

توقفت الأصوات ولم تتوقف حركتهم الدائرية حوله والموسيقى والأضواء التي ترتعش وأمه التي أصبحت أمامه بانحناءة نحوه، وتنظر له ببرود ومن كل جانب يقفون؛ النادل ومدرس الموسيقى والطبيب وكل من رآهم من قبل يلتفون حولها مشكلين دائرة يزيدون من سرعة دورانهم، مع صوت الدفوف الذي ما زال يدوي والتصفيق المنتظم، والكلمات تصاحبه مرة أخرى...

«عن حال المنتظر لا تسأل..

الروح في نشوة.. النفس في تيه..

سبعة أيام لا تكفي.. كم فلك في السماء..

كم بذرة من بذورك ترعانا..

ابن مفيستو الراعي.. عقله في غفلة..

الأسرار غامضة..

يا مفيستووووو اغفر لنا خطايانا..

على المذبح أطفالك قربان.

يا مفيستو العظيم نحن خدامك..

انظر لخطايانا واغفر لنا "

توقفت الأصوات والموسيقى مرة واحدة ووقف الجميع كلٌ في مكانه كأنهم توقفوا مع الأصوات بعد أن ظلت الأضواء ترتعش

بانتظام وتضيء كأن رجلًا محترفًا ممن يعملون في الصالات الغنائية العصرية هو من يقوم بصنعها بتلك الدقة...

نظر لأمه التي بدأت في الاعتدال من أمامه، وما زالت تنظر له وإن ارتسمت ابتسامه على وجهها وهي تصفق للحظات، ثم نظرت لمعصمها لبرهة تطالع ساعة سوداء ضخمة في يدها، تتحدث له بصوت أنثوي فيه من القوة والسحر ما يكفي لينصت حتى الهواء ساكنًا من حولها!..

كانت تنظر لأولئك المتراصين حول الدائرتين بترتيب عمري مختلف والشموع ما زالت في أيديهم، توقفوا جميعهم كأصنام باردة لا تتحرك بعد أن انتهت وصلة الغناء والترتيل من الجميع من بينهم أولئك الأشخاص الذين رآهم في لياليه الستة واقفين أمامه وحوله هنا، صمتت كما بدأت تلك الموسيقى والكلمات التي لا يعرف مغزاها ومعانيها المختلطة بلغات فارسية قديمة ولكنه كان يفهم بعضها وبعض الكلمات لم يفهم منها شيئًا!

أنصت متلفتًا حوله بكل اهتمام كأنه استفاق من حالة سكر محاولًا الاعتدال على الكرسي، حاول أن يتكلم لكن لسانه كأنه وضع عليه أثقال ضخمة تقيد قدرته على الكلام!

يتأملها من مكانه بعينين مشوشتين، وشفاة مخدرة لا تقويان على الإتيان ببنت شفة، تقف باعتدال، وبجانبها تلك الممرضة التي رآها ذات نوبةٍ في عيادة الطبيب النفسي في أحد هلوساته، بطنها منتفخٌ

كما رآه، وكأنها تحمل في أحشائها طفلًا...

نقل بصره بين السيدتين الملتحفتين بالسواد في كل شيء، منتظرًا أن تنطق أمه بكلمة لتخفف من وطأة الجنون الذي يعصف به، وبالفعل نطقت، لكنها قالت ما يزيده جنونًا

وهي تعرفه بالفتاة بجانبها:

- لا داعي أن أعرفك بنفسي يا صغيري، لكن دعني أعرفك بأختك...

نظر إليها بعينين شاخصتين، وفكره قد تشتت كليًا، لكن الصدمة لم تنته لهذا الحد، بل تحركت الأم نحوه ببطء وهي تطالع ساعتها وتهمس بهدوء تخبره أن أمامه ثلاثين دقيقة حتى يستطيع أن يحرك عضلاته ويستعيد حيويته مرة أخرى!..

أنهت همسها بعد أن أصبحت خلف الكرسي الذي يجلس عليه كمشاهد في دور العرض السينمائية، كل ما عليه أن يشاهد وينصت لنهاية العرض!..

حتى أنه لم يقاوم أو ينتفض عندما التفت يداها واحتضنت عنقه من الخلف، وما زالت أخته أمامه تنظر له بابتسامة تخفي الكثير، لتعاود أمه مغازلة الهواء بهمسها بنبرة صوت فحيحية جعلته مستسلمًا كعروس ماريونيت في يدها، غير قادرٍ على الالتفاف أو فعل أي حركة...

- أعتقد أنها ستكون دقائق كافية لتتصت وتسمع وترى كل شيء!

فهذا يوم وجودك ليلة ميلاد المختار المجيد!

تنهدت للحظة وأكملت همسها بهدوء ناعم:

لقد نجحت التجربة وتحققت أول نبوءة كنا ننتظرها منذ عقدين من الزمن؛ عشنا فيهما مشتتين، وخدام في جميع بقاع العالم ننتظر هذه اللحظة، إنها الليلة السادسة لك في محاولة استعادة ذاكرتك وما غذي بداخلها..

زاد غموض همسها وهي تشد على عنقه أكثر ليلتصق ظهره بالكرسي منصتًا بعيون جاحظة لما تقوله كممسوس يستمع لطلاسم وكلمات مبهمة لمحاولة علاجه وطرد الروح الشريرة التي تسيطر عليه.

ابني.. ابن الشهر السادس من سيخرج من نسله المختار والمجيد وأخيرًا العليم العظيم الذي سيركع له كل العالم!..

خمسة وأربعون دقيقة حتى تصل ليومك السابع، يوم أن ننفخ مزاميرنا ونبوح بأناشيد قرابيننا على مسمعك، وترى الدماء حولك ستسترد وعيك وتنضم لنا؛ فنحن من شكلنا وسوينا ذاكرتك يا ابني المنتظر..

توقفت وساد السكون للحظات بعد نطقها بذلك الاسم الذي كان يسمعه من كل من قابله في كوابيسه أو حتى واقعه الذي أصبح في اللازمان بالنسبة له، حتى المكان لم يعد يستطيع تحديده مع حالة الخدر التي تجتاح كل عضلة في جسده.

كانت الأم قد أصبحت أمامه تدفعه للخلف ليرتطم بمسند الكرسي بلا رد فعل، جلست على حجره وقد فَرجت ساقيها واضعة

يديها الاثنتين فوق رأس ابنها مستندة على مسند الكرسي العملاق وتتحرك كأنها في وضع حميمي خاص!

قفز إلى ذهنه ذلك المشهد، وتذكر أنه رأى هذا في أحلامه؛ وذلك الشعر يغطيه.

عادت للتحدث وهي فوقه؛ وجميع من حولهم أصنام يشاهدون ويسمعون لكنهم لا ينطقون حتى يأذن لهم؛ كممثلين يحفظون أدوارهم في سيناريو فيلم يتم تصوير مشهده الأخير، ينتظرون أن تسدل كلمة النهاية عليهم ليعودوا إلى ما كانوا عليه من جديد.

– كنت أتمنى أن يكون مولد "المختار" أيضًا من رحمي أنا،

لكني أنجبت منك بنتا منذ عامين رغم أنني في سن اليأس!..

ضحكت ضحكة مجلجلة موضحة أن سن اليأس هنا يختلف عن المتعارف عليه، فهي في منتصف الستينات من العمر، لكن مفيستو يهب لرعاياه الكثير...

كان لا يزال في صدمةٍ ودهشة وذهول بادية على نظره مما سمع عن كون أمه قد أنجبت منه، لم يستوعب الأمر، كيف يكون قد ضاجع أمه، إنه لا يذكر أي شيء من هذا!

أعادهُ صوتها مرة أخرى لينصت:

– أعتقد أنك رأيت هذا المشهد في أحلام قد داهمتك من قبل...

تحركت الأم بسرعة وعادت للخلف فجأة تتأمله، عيونه جاحظة ووجه شاحب في هذا الجو البارد الصامت حولهم وهي ما زالت تجلس

على رجليه اللتين لا يشعر بوجودهما،

لم يدم الصمت كثيرًا لتتغير ملامحها وفي عينيها نظرة

فرح وهي تخبره أن المختار سيأتي قريبًا، من نسله هو، ومن رحم أخته الماثلة أمامه، الممرضة التي رآها في عيادة الطبيب هي حامل بابنه هو!

أي جنونٍ هذا، لا يمكنه استيعابه وإن كان كابوسًا أو هلوسة، فهذا غير ممكن.

كانت مستمتعة برؤية ملامحه الفزعة لتكمل بنبرة ساخرة والأضواء من فوقهما ترتعش لبضع لحظات:

– أما زلت تعتقد كما قيل لك أننا أرواح لأموات تريد الانتقام منك؟!

تعالت ضحكاتها، وضحكات أخته الحبلى، حتى أنه لم يشعر بنهوضها المفاجئ من على رجليه، تحسست جسده بطريقة لم يحبذها، أشعرته بالاشمئزاز رغم كل ما يعصف في رأسه من أوجاع تجعله غائبًا عن أي شعورٍ آخر، لم يكن متأكدًا فهو في شبه غيبوبة اجتاحته، لكنه صوت سحّاب بنطاله، أنزلته المرأة التي تقول أنها أمه، ووضعت رأسها بين رجليه، شعر بحركتها وصوت يدل على ما تفعله، رغم أنه لا يشعر بشيء، لم يكن قادرًا حتى على البكاء صمتًا.

فرغت منه واعتدلت بعد أن عدلت له ملابسه، اقتربت منه وبصوتٍ أقرب للهمس قالت:

– ما زال مذاقه بالنسبة لي هو الأفضل يا طفلي الحبيب...

ابتعدت عنه قليلًا، لتقف بجانب أخته وتنادي بصوت صارخ - أيها الناجي...

تقدم ذلك السائق الذي أوصله من قبل إلى القصر أو تلك الصخرة، لا يمكنه التمييز إن كان ما يمر به الآن خيال أم حقيقة! كان يراقب تقدم "السائق "بخطوات بطيئة عسكرية حتى توقف بجانب الأم وفي مواجهتها وبجانبها أخته الحامل التي تتحسس بطنها مبتسمة لمخلص الجالس في وضع استرخاء وانتشاء ينظر بجفون مغلقة محاولًا أن يسمع كل شيء، وينظر إلى الأمر من بعيد، على أمل أن يستيقظ بعد لحظاتٍ من غيبوبته وكوابيسه ويجد نفسه في شقته، وبجانبه صاحب العقار متناسيًا أنه رآه مذبوحًا.

تهامست الأم في هذا الصمت الشديد مع ناجي - كما نادته - ومخلص يتابع ما يدور مذهولًا، وأفكاره في سباق لاستيعاب ما يحدث الآن أو ما حدث سابقًا وما سيحدث!..

زاد ذهوله رؤيته لمن يدعى الناجي يقبل الأم بقبلة حميمية طويلة استمرت للحظات، قبل أن تدفعه بقبضتها على صدره مما جعله يتوقف عن تقبيلها ويتراجع خطوات بعيدًا عنها وهو يخرج سجائره من جيب سرواله الأسود الضيق ويمد يده بسيجارة يناولها للأم بهدوء، كأن شيئًا لم يحدث!

والغريب أن الجميع يحتفظ بصمته وجموده بينما صوت القداحة يشق الصمت تمامًا..

اشتعلت السيجارة مع وهج لهيبها والدخان الذي طار في الهواء مع أول نفس سحبته وأخرجته مشيرة بأصابعها للسائق وتلتفت إلى "مخلص"الذي كان بلا حول ولا قوة، جالسًا ينتظر نوبة التشنجات ثم الغيبوبة كما كان يعتقد أو كما اعتاد، ظل ينظر لها، لا يشعر بالماء الذي يسيل من فمه..

وهي ترميه بنظرات نارية وقد بدت علامات الغضب على ملامحها الجذابة رغم تجاوزها لعقدها السابع، وبنبرة حادة لا تخلو من سحرها، أخبرته بأن الناجي هو أخوه رقم ثلاثة من والده "مفيستو "الذي جاء بعد أن وقعوا العهود مع والده حامل الكتاب الأحمر وأصبحوا أول عائلة عربية تحت رعاية الشيطان مفيستو، ووالده العبقري كان الوحيد الذي يقابله ويراه بل من القلائل الذين لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة من الذين وصلوا للمرحلة السادسة والأخيرة في مراتب الترقي والتقرب للشيطان العظيم!

وقبل أن يبدي مخلص أي ردة فعل، انطفأت الأضواء كلها دفعة واحدة، لتظهر على الجدران تدريجيًا وبإضاءة خافتة شاشات عرضٍ قماشية بيضاء، تعرض مقاطع ومشاهد ولقطات كأنها دار عرض سينمائية...

رجل بشارب غليظ يظهر وجهه على جميع الجوانب لتتغير سريعًا وتظهر أخرى لنفس الشخص في صورة كبيرة وبهيئة كاملة، بدا فيها ممتلئ الجسد وتلك الأم تقف بجانبه تحمل طفلًا صغيرًا؛ صورة تدل ألوانها الباهتة وأزياؤهم فيها على قدمها، كان من حولهم خمسة

أطفال تحت شجرة كبيرة يطل من خلفها جزء من قصر قد رآه في نوباته من قبل...

وصورة عائلية أخرى تبدو في زمن آخر، وقد بدت الأم فيها أكبر بسنوات من الصورة الأولى، هي ومفيستو الأب، وشبان وشابات، والمزيد من الأطفال، أحدهم تحمله الأم...

صورٌ أخرى يجتمع فيها الأب مفيستو، وهؤلاء الذين عرفهم بسكان العقار، صور قديمة بالأسود والأبيض، وأخرى بألوان باهتة، وأخرى حديثة وقد بدت آثار التقدم بالعمر، لتستقر الصور مجددا على صورة مفيستو..

وما زال مخلص يحاول فتح فمه ليتحدث، ولكن كل ما ينتج من محاولته أن لعابه يسيل، كرر محاولاته في الوقوف على قدميه دون جدوى، استسلم ليستمع لكلام أمه الذي يزيده خدرًا، وهي تخبره عن والده الذي رأى صوره على شاشات العرض..

- لقد كان والدك كاتبًا عظيمًا، وكان اسمه الحقيقي "مخلص" صمتت لبرهة، تعلم أنه لا يراها وسط الظلام الذي أحاط المكان، والشاشات التي سُلِط عليها أضواء خفيفة وصوتها يشق الفراغ وقد رافقه عزف كمنجات بصوت خافت جدًا كأنه موسيقى تصويرية في مشهد تراجيدي متجسد في الواقع أمامه، امتزج مع صوت خطوات حذائها المرتفع تتقدم نحو الصورة المثبتة حيث الإضاءة!..

وقفت حاملة كأسًا في يدها وباليد الأخرى تمسك سيجارتها

وتشير إلى والده وعيناها تنظران إليه؛ حيث يتابعها من مكانه، وقد بدأ يعتري جسده رعشات وارتجف من الداخل بقوة كزلزال خفيف يضرب الأرض للحظات ويتوقف!..

يكاد أن يراها بنظره المشوش وسط بقعة النور المضيئة عند الصورة في الظلام كانت ملامحها لا تزال غاضبة، ونظراتها له ثاقبة وحادة تخبره نبرتها السابقة وببطء وهدوء:

- لم يكن يشبهك إطلاقًا..

وتابعت بصوت فيه الكثير من الحرقة والغيظ:

- لم يكن له مثيل، كان كاتبًا عبقريًا، حمل كتاب العقود الأحمر وهو الوحيد من رأى "مفيستو" من وهب النفوذ والسطوة للعائلة حول العالم، ومن جعل لها السيادة على عائلات كثيرة في أنحاء العالم ممن يتبعون نفس الطائفة والعقيدة ومن حفظة العهود!

كانت تتحدث بغضب شديد تحكي له كيف تملكوا كل شيء وكانت تمنح القرابين حينها ولاء للطاعة، وكيف كانوا ينتظرون الهبات التي كانت تغدق عليهم بكثرة في جميع المجالات والعلوم، كيف أنهم كانوا الصفوة ولهم السطوة حينها!

توقفت لبرهة وهي تنفث دخانها وتتابع حديثها، كيف كانت تتحقق الهبات وتلبى أحلامهم وأمنياتهم والتي ظلت مستمرة لمدة عقدين من الزمن أو أكثر يتمتعون بها..

عند هذه النقطة زادت من نبرة صوتها حتى كادت أن تكون

صراخًا، لكنه خرج ناعمًا ومتماسكًا في كلامها لتزيده ذهولًا ورعبًا وهو ما زال على وضعه، ينصت لاعترافها بأنهم قتلوه

– قتلناه، نعم، لكن ليس لأننا كنا نريد التوبة والرجوع عما نفعل، ولا طمعًا في الكتاب الأحمر!..

توقفت للحظة وأكملت بصوت هامس والموسيقى تصاحبه كفحيح يتغلغل مسامعه ببطء:

– بل لأنه أراد قتلك بعد ستة شهور من مولدك...

أراد حرق الكتاب!

عاد صوتها لنبرته العالية والأضواء المسلطة على صور العائلة تتلاعب لتظهر خيالات لأشخاص كثير حولها وهي تنظر لساعتها مع أنغام الموسيقى العجيبة الخافتة

– خلال سبع دقائق ستتمكن من الكلام والصراخ مثلهم...

كان يسمعها كأنه منفصل عن المكان والزمان، أو كمن يتلقى وحيًا من السماء، من أحد في الأعلى لا يشابه البشر في شيء؛ وإلا لماذا يكون الأمر بهذه الغرابة، لماذا كل شيء بالنسبة له غير ملموس، لمَ كل ما أحاطه من أحداث لا يمكن أن يصنّف في حيّز الوجود؟!

أسئلة تعصف في عقله – أو ما تبقى منه – إن كان عاقلًا، لا شيء هنا يستند على حقيقة أو منطق!

انتبه لكلامها الذي فقد بعضه كأنه لم يمر من خلال سمعه، وأدرك ما تبقى منه وهي تخبره وتصف له شعوره الذي يشعره في

تلك اللحظة، كأنها عايشت الحالة بنفسها...

تابعت والموسيقى ترتفع ببطء، بينما هو يحرك يده أخيرًا ليمسك رأسه مستمعًا لما تقوله عن استعادته لحيويته ونشاطه بعد سبع دقائق..

– إنها ليلة ميلاد "المختار" المجيد، ويومك السابع على وشك أن يأتي يا ابن التجربة، يا من أتى من الشهر السادس...

رآها تتقدم نحوه ببطء بعد أن توقفت عن كلامها، بخطوات راقصة كانت تتمايل مع الموسيقى وتهز شعرها يمينًا ويسارًا، كانت تتدفق حيوية وجمالًا لا يمكن أن تكون لامرأة شارفت على إنهاء عقدها السابع، مهما أجرت من عمليات تجميلية، إنها على أكثر تقدير تبدو في الأربعين، تبدو امرأة أربعينية جذابة، متوقدة الرغبة، يزيد سحرها تلك السطوة في عينيها والنفوذ والقوة التي تتمتع بها...

خرج صوتها مرة أخرى يخترق الهواء كطلقة رصاص أصابت مسامعه بلهجتها الحادة الهادئة والواثقة:

أنت "المنتظر" وهو اسمك الحقيقي وليس "مخلص"..

إنه اسم والدك كما قلت لك، من نسلك أنت سيأتي "المجيد"، أنت المولود السادس من نسل أبيك مفيستو في العائلة، أول من سيمهد لقدوم الرسل في النبوءات الثلاث المقدسة..

كانت تحرك يديها متقدمةً نحوه وهي تقول:

ها نحن هنا حولك، عائلتك، وعددنا ثلاثون وأنت واحد وثلاثون،

وصاحب العقار صديق والدك الذي رأيت جثته متأخرًا الليلة نصبح اثنين وثلاثين..

أصبحت على بعض خطوات من "مخلص"والأضواء ما زالت تظهر وتختفي من كل مكان حولهما تجعله يراها والعائلة من خلفها يضيقون الالتفاف عليه قليلًا وتزداد الموسيقى والدفوف والطبول بمزيج من الألحان الصوفية والروحية الغريبة التي تتعالى في الأجواء وداخل خلايا عقله بانسيابية، وكما هي فعلت تمامًا وبكل انسيابية وخفة كانت قد التفت من حول الكرسي لتقف خلفه، وتميل عليه برأسها من أحد جوانبه وشعرها المنسدل يتساقط على وجه، تهمس له بصوت يغلفه الرعب لمن يقع على مسامعه:

- نحن اللادينيون.. أبناء مفيستو، ورثة من كانوا قبل نزول الكتب المقدسة، من نسل من عاشر وعبث مع عقول الأسر الأولى الفرعونية في علمهم، نحن من نسله "هو"؛ متعدد الأسماء في كل الحضارات..

نحن أحفاد أجداد "نارمر "الفرعوني، وأبناء "مفيستو "الذي يسير فوق السحاب ويفي بالعهود!..

أخبرته مجددًا أنه سيتمكن من الكلام عند انتهاء حفل الطقوس الذي سيجعله يستفيق لدقائق ليفهم وينضم لهم، ثم ستصيبه الرعشات والتشنجات بشدة بعدها، بل إنه سيتصلب كممسوس يتخبط على الأرض، وأخيرًا سيقع في غيبوبة لثلاث ساعات أو أقل قليلًا كما يقول العلم، حتى يتسنى له الاستيقاظ مرة أخرى ويشاهد

مولد ابنه "المختار"في اليوم المجيد.

أنهت كلامها مبتعدة من أمامه، ومن خلال تلك الإضاءة العشوائية في ظهورها والتي تصيبه بالغثيان مع صوت الموسيقى الساحر والغريب باندماج آلاته، رأى الصيدلي الذي ظهر فجأة في منتصف الدائرة والفتاة الشابة ذات القرط والأزياء القوطية الغريبة يحتضنان بعضهما في مشهد حميمي يظهر كلما شقت الأضواء مكانهما قبل أن تختفي وتعاود الظهور مرة أخرى حتى وصلت الأم بجانبهم وهي تنهي آخر كلماتها بصوت عالٍ:

- عندما ينتهي الطقس وننفخ في ذاكرتك، سينقشع الدخان وستتضم إلينا يا حامل الكتاب..

أغمض مخلص عينيه لثوانٍ قبل أن ترتفع الموسيقى الروحية وتدق الطبول وتهمهم الأصوات استعدادًا لطقس إنشادي جديد مجنون كالسابق بدأت فيه الأصوات والرقصات والمجون والفجور وكل ما يتخيله عقله أو لا يتخيله؟!..

عقله الذي لا يذكر سوى ستة أيام قضاها في العقار كما يخبره الجميع، مع ارتفاع الهمهمة والأصوات المختلفة بنبراتها وعلى وتيرة واحدة كئيبة كانوا ينشدون ويصفقون..

يا مفيستووو.. يا مولانا.. كم نحن حيارى!..

نحن لسنا من الملائكة..

نحن لسنا من الشياطين..

نحن الجنة.. نحن النار..

نحن لسنا نحن... ولا نحنُ نَحن!..

نحن على وعي ولسنا على وعي؟!..

نحن حياة تأتي من بعد موت..

المختار "هو "نسل المجيد..

بدأت الرؤية تصبح مشوشة أمامه مع دوار يجتاحه وعرق يندي من جبينه، يرى دخانًا يتدفق ويتغلغل في المكان، شموع مختلفة في مقاساتها كان يحملها الطفل والعجوز والأم الذين رآهم يتقدمون ويصفقون ويلتفون من حوله كلما ضربت الأنوار السريعة بين اللحظة والأخرى في استمرار عشوائي لا ينقطع مما جعله يتقيأ على نفسه في نهاية الأمر دون أن يدري، وقبل أن يذهب في غياهب غيبوبته التي يعلم أنه سيسقط فيها عاجلًا أم أجلًا.. كانت الأصوات المختلطة واللغات التي تنشد من حوله تتخلل روحه ومسامعه جيدًا وجسده بدأ يستجيب لإشارات عقله للنهوض، لكنها جاءت مفاجئة لسكون عضلاته؛ لينتفض من مكانه فجأة، ويطرح نفسه أرضًا داخل الدائرة، متأملًا أقدام أشخاص يلتفون ويتحركون حوله، يشعر بالخدر الذي سرى في جسده سريعًا ووخز شديد في كل جزء من جسده مما جعله يغلق عينيه قليلًا متكورًا على الأرض من الألم الذي ينهشه كمسخ مفترس!..

وما زال يصغى للدفوف والأناشيد التي ترتل ويسمع خطواتهم الرتيبة من حوله..

"يا مفيستووووو.. نحن في حيرة؟!..

نحن أهل الفسق.. نحن النزاهة!..

نحن السقاة.. ونحن السكارى..

نحن الفُجور.. نحن التقوى..

نحن الداء.. نحن الدواء..

نحن العبيد.. نحن الأسياد..

نحن النعمة.. نحن النقمة..

نحن من هذا وذاك..

نحن من كان وسيكون منا العليم..

نحن لسنا نحن؟!.. ولا نحنُ نَحن!..

نحن المجون.. نحن البراءة..

نحن الحلال.. نحن الحرام..

نحن أبناء مفيستووووو.. أبناء الظلام!..

توقفت الموسيقى والطبول والأصوات المختلطة التي كانت تردد الابتهالات، ساد الصمت والهدوء لعدة ثوانٍ واختفى الصوت، انطفأت الأنوار إلا من بقعة ضوء مسلطة من فوقه، الألم الذي كان يفترسه بدأ ينسحب ببطء ليطرد من جسده ليفتح عينيه ويرى دخانًا كثيفًا من حوله يحيط المكان مما جعل الرؤية تكاد تكون معدومة بالنسبة له وسط هذا الظلام!..

أخيرًا عضلاته بدأت تستجيب له في محاولته أن ينهض مستندًا

بيده وركبتيه على الأرض، وكأنه استعاد وعيه ونشاطه في لحظة، لكنه كان يحس بتأثير ما مر على جسده كأن سيارة قد صدمته وهي تسير بسرعة قصوى ولم تتوقف وأكملت طريقها!..

تسرب النور لعينيه ببطء كأنه يمهده لمفاجأة ما، لكن لم يكن هناك أحد من حوله، لقد اختفي كل شيء، لا يسمع همهمات العائلة المجنونة التي ظهرت له فجأة، وكأن الفراغ ابتلعهم كما وجدوا من العدم!..

ليس هناك إلا الدائرة الحمراء التي يتوسطها والجمجمة التي سلط عليها الضوء لتوحي له بأنها تراقبه من خلال فراغ عينيها الأسود، والهواء البارد الذي ما زال يلفحه ويضرب المكان مع الدخان الذي بدأ ينقشع من أمامه، ولكن الصمت كان لا يزال مخيمًا على الأجواء والمشهد المعتم القاتم!..

أدرك لحظتها أنه ربما كان في نوبة من نوباته اللعينة التي يرى فيها ويسمع الكثير من الجنون...

قام بصعوبة وهو يقف في وسط الدائرة ينفض ملابسه بتقزز من ما سال منه في وسط الحالة التي انتابته، وقبل أن يفعل أي شيء أضاءت أنوار خفيفة بتتابع كأنه داخل مشهد في أحد الأفلام التي كتبت باحترافية، وجسدت الشاشات على الجانبين من حوله لتبدأ بعرض مشاهد فيديو مسجلة متحركة بدون صوت؛ مما جعله يتحرك بهدوء ويقف في منتصف الردهة يتلفت حوله باستغراب واندهاش وهو يرى قصورًا ومنازل كبيرة وكنائس ومعابد تمر على

الشاشات وتحتها كلمة "بودابست"المجر ١٩٨٤.. تبعها لقطات متعددة لطفل صغير في عدة أماكن.. تارة يجلس وأخرى يحبو، كل لقطة كان يشاهد بجانبه شخص مختلف؛ مرة ذو اليد المحترقة ومدرس الموسيقى ومرة أخرى أمه تحمله في إحدى الحدائق في القصور والأماكن الأثرية التي تظهر في المشاهد المتعاقبة السريعة، حتى الراقصة وعالمة الآثار وحولهم أطفال يلعبون معه، لتخرجه من حيرته وتفزعه للحظات صدور موسيقى خافته ذات رنين وإيقاع مستمر هادئ مصاحب لصوت أنثوي ساحر يعرفه جيدًا كأنه يخرج من مكبرات صوت مثبتة على الجدران من حوله ترحب به بلقب "المنتظر"التفت صارخًا:

– من أنتم؟!.. وماذا يحدث لي؟!

صوت أمه في الأرجاء مع الموسيقى المصاحبة لها في الخلفية بدا كبرنامج إذاعي وهي تجيبه وتخرجه من حيرته وتستحوذ وعيه وإدراكه بوتيرة صوتها قائلة:

– ألم تدرك بعد أننا حقيقتك؟ أنت منا، وأنت أملنا..

كان يتلفت حوله وصوت أمه والمشاهد المتعاقبة التي تظهره في سنوات عمرية مختلفة مرة مع راهبة وأخرى مع حاخام وتحت الصور مر شريط كتب عليه"أستراليا – سيدني"

عاد صوت أمه مجددًا متزامنًا مع مشاهدته لما تبثه الشاشات القماشية المنتشرة على جميع حوائط المكان ومع استمرار الأضواء

المتغير في شدة إضاءته من لحظة لأخرى وهي تعرض لقطات له في أماكن عدة خارج البلاد، أحدها وهو على سرير يحيطه أنابيب بلاستيكية ومحاليل ومن حوله رهبان ممرضات وصليب مقلوب، ومشاهد أخرى له عارٍ في نفس السرير ونساء مختلفات، ميز بعضهن، مثل أمه وأخته الممرضة وعلياء... في صور متفرقة يمارسن معه علاقة جنسية أثناء نومه أو ربما في غيبوبة أو نوبة لا يذكر عنهن شيئًا، بينما تجيبه الأم التي بدت على علم بما يفكر به!

- بعد مقتل "مخلص" أو مفيستو، وقفل القضية بانتحار كاتب رعب، ترحلنا في كل مكان في العالم، أصبحنا خدامًا لأسر تتبع عهود الشيطان "مفيستو" بعد أن يئسنا من إيجاد الكتاب الأحمر، واختفاء الهبات مع اللعنات التي حلت علينا وخسرنا أموالًا كثيرة وعقارات، وتدهور حالنا... وكل هذا لإنقاذك، لجعلك تعيش، لأنك أولى النبوءات التي قال عنها والدك وتحققت، أراد أن يدمر كل شيء بعد أن آمنا!

إنك للأسف المنتظر الذي قال عنك والدك من سيبعث من نسله بثلاثة رسل في ثلاثة أزمنة، من الستة من نسل مفيستو سيأتي المنتظر – وأتيت بالفعل - ومن الثلاثة والثلاثين من نسلك أنت سيأتي المختار ومن الستة والستين سيأتي المجيد ومن التسعة والتسعين سيأتي العليم العظيم الذي سيركع له الجميع!

اختفى صوت الأم ولكن الموسيقى كانت لا تزال تصدح بنفس

اللحن الوتيرة والمشاهد التي تتلاحق أمامه وكأنه كان في حالة شلل دماغي وحركي مؤقت رغم النشاط الذي دب داخله، فالصدمات التي يتلقاها مما يرى تخرج عن أي وصف أو عقل لكي يصدقه وهو يشاهد نفسه على الشاشات محمولًا من السائق والصيدلي ويضعانه على السرير الذي وجد نفسه عليه من أيام وهما يدخنان بجانبه، ولقطات أخرى له وهم يلفونه في كفن أبيض، ثم يضعونه في ذلك القبر الذي وجد نفسه فيه قبل ذهابه للعقار، تختفي اللقطة لثوانٍ معدودة مصاحبًا لصوت الأم معبرةً عن إعجابها باحترافية السيناريو الذي رسموه، وكيف تأكدوا أن الأضواء التي في الشارع المظلم الذي بقرب المقبرة ستقوده للعقار، وتفاخرت أن توقيت سقوطه في الإغماء كان مثاليًا كما خططوا...

قبل أن تعود اللقطات للظهور مرة أخرى ويختفي صوتها مجددًا مع ظهور صورته من جديد على الشاشات جالسًا على المائدة، يأكل ويشير بيده في الفراغ ولا أحد أمامه، وأخرى له أمام المكتبة في شقة والده من منظور علوي وتصوير أفقي وهو يشير بيده ناحية منضدة على مقربة منه ويحدث نفسه!..

وأخيرة محمولًا من أخواته حوله علياء والممرضة وهو في غير وعيه ويضعونه على الأريكة..

وأخرى لعلياء تدخل الشقة رقم ستة سريعًا وتختفي وهو يظهر بعدها يدخل باب الشقة المفتوح يتجول في الشقة لوحده دائرًا حول

المائدة الفارغة..

كانت الصدمة على ملامحه لا توصف وهو يشاهد تلك المشاهد السريعة التي ما زالت تعرض عليه تباعًا من أمامه وخلفه وعلى الجانبين، كيف التقطت الصور كل أولئك الأموات، ولا يرى أي لقطة لذلك العجوز، الذي ظنه الحقيقة الوحيدة في حياته!

تتدفق الموسيقى التي تسبح في الفراغ وهو يتحدث بصوت مرتفع متقطع:

- أين صاحب العقار؟!

كان ليفزع أكثر لو رأى علامات تعجب الأم على سؤاله في مكانها الخفي الذي تتحدث منه؛ فصاحب العقار لم يكن في المخطط أصلًا، لكن المزيد من الصدمات جعلته يصمت وهو ما زال يشاهد ما يعرض أمامه من مشاهد سريعة لأفراد من العائلة التي رآها تحقن العصائر بعقاقير، حتى عبوات المياه كانوا يفعلون بها نفس الشيء ويضعونها في الثلاجة، مشاهد أخرى وهم يحقنون الأكل في لقطات لا تتعدى الثواني، لقطات متلاحقة لأشخاص ينتزعون بعض الجدران ويركبون أخرى.. ويضعون كاميرات، لكن آخر مشهد تجسد أمامه جعله يشهق وهو يشاهد صاحب العقار مذبوحًا يحمله السائق وشخص آخر رآه أثناء الأناشيد التي تلوها أمامه، كان ذلك الشاب المخنث ذو الشعر الطويل يحمل رأس صاحب العقار ويضعها في الخزانة، ومن خلفه السائق وطبيب عجوز وأمه يحملونه خارج الغرفة

متجهين إلى غرفته!..

ليظهر صوت أمه يتحدث من جديد، والسماء والمعابد والكنائس الشيطانية المنتشرة في الخارج وطقوسها وقرابينها بدأت تعرض أمامه في لقطات سريعة جدًا لا يميز من كان داخلها من شخصيات!..

- لا ينقصنا سوى خطوة ونصل للمعرفة الحقيقية والمطلقة، كم نحن في اشتياق للحظة القربان والغفران التي ستكون على يدك، إن "المختار" الذي هو ابنك رقمه ثلاثة وثلاثون في العائلة، ألم تر الحكمة من هذا الرقم؛ فمجموعهما ستة يا ابن الشهر السادس، والحكاية بدأت بثلاثة رجال وثلاث نساء

وصاحب أرض صديق "لمفيستو" المهندس العظيم ـ لقب أطلق عليه لأنه منشئ العقار ومصمم تصميماته التي لا يعرف عنها شيئًا سواه ووالدك.

توقفت للحظات مع تخبط "الشاب" وتعثره في التفاتاته في الظلام الذي بدأ يسيطر مع خفوت الأضواء من حوله، سقط على ركبتيه يهز رأسه عدة مرات دون أن ينطق بشيء، فلم يعد يعرف اسمه الحقيقي أو يملك معرفه نفسه أو يصدق ما يراه ولا يزال يعرض من مشاهد أمامه، أي خدعة ومصيدة هذه التي وجد نفسه فيها.. المشاهد العديدة التي كانت تحتوي على جسده نائمًا لا يدري ما يدور حوله في فترات عمرية مختلفة له، تمر أمامه كأنها مصنوعة في أكبر استوديوهات المونتاج العالمية، كنائس وصلبان مقلوبة وكتب مقدسة

تحرق ودماء في لقطات سريعة جدًا تمر من حوله لينتزعه عودة صوت الأم مجددًا:

- عشرون عامًا كنت في رعايتنا ورعاية آل مفيستو في الخارج، تم تعليمك جميع الأديان وبعض اللغات حتى سن السابعة ثم أدخلناك تجربة ليس لتتجُو بها من الشرير بل جعلناه يستحوذك ويطعمك بعلومنا التي تعلمناها أثناء فترة عقابنا!.. أردنا استخدامك، وخفنا من تمردك أو أن تمشي على خطى والدك وتتركنا، أردنا أن نحقق النبوءات من خلالك، لا يمكن إلا أن تأتي إلا منك أنت أيها المنتظر...

استخدمنا علومنا الطبية وعقاقيرها، حتى التقنيات الفنية والأدبية وكل ما تعلموه من هبات كانت تغدق عليهم أيام النعيم تم استخدامها لخلق هذه اللحظة؛ لتقديم القربان وتحقيق النبوءات الثلاث، وإثبات أن "مفيستو"العظيم كان على حق حين لم يركع في السماء العليا!..

"العلي" أخوك ذلك الصيدلي الشاب هو من كتب السيناريو الذي اتبعته أنت بحذافيره، وبالرغم من اكتشافك لجثة

صاحب العقار متأخرًا جدًا! لقد أضعت متعة مشاهدتنا لها مبكرًا، كنت ستعيش سيناريو كابوسي تحتويه مشاهد

صنعها أبناء المعرفة والتكنولوجيا، كما صنعوا لك الكتاب الأسود حتى تدرك مصيرًا أردناك أن تعلمه..

كان صمتها هذه المرة على مقدار طول تنهيدتها التي أخذتها قبل

أن تتابع وتخبره عن جميع من في العائلة كيف تعب

في التجهيزات وعمليات الماكياج والمؤثرات السمعية

والبصرية للأشخاص الذين قاموا بأدوارهم، بل إن فريقًا من أجيال العائلة العظيمة استطاعوا أن يصنعوا بالعلم والطب من أحد أبناء أخته الكبرى من "الناجي"شبيهًا له بعمليات التجميل التي يملكون قوتها في الخارج حتى يخيفوه ويرعبوه أكثر، فيوم الحساب في عهود "مفيستو" عقابه الخدمة من أجل الوصول إلى المعرفة المطلقة حتى يتم الغفران بقرابين يقدمها الأبناء ليسمح لهم للعودة إلى النعيم وأمجاد العائلة ترجع من جديد...

عندما اختفى صوتها هذه المرة بدأ نحيبه وبكاؤه مصاحبًا لصوت الموسيقى التي لم تتوقف منذ صعوده، صرخ بصوت عالٍ:

- إن صاحب العقار لم يقل لي ذلك، لقد كان الشيء الوحيد الحقيقي بالنسبة لي..

دخل في نوبة بكاء شديد والموسيقى تعلو قليلًا بلحن حزين وجسده الذي بدأت تنتابه رعشات مخيفة تهزه من داخله والمشاهد ما زالت مستمرة أمام بصره الذي بدأ يدخل في مرحلة تشويش بطيئة، يشاهد العرض المستمر من اللقطات السريعة له في أماكن متفرقة في كل بقاع العالم، منها وهو نائم كغيبوبة أصابته في كثير من المشاهد، وأشخاص يحملونه ونساء تلتف حوله، وامرأة تصدمه بحجر فيسقط مضرجًا بالدماء، ولقطات أخرى تمر له في المطعم

وهو جالس مع علياء، ولقطات للنادل وبعض من يسمونهم إخوته كزبائن مطعم يتحدثون ويتشاورون كأنهم يتفقون على فعل شيء، وصوت أمه تتحدث بنبرة شك:

– صاحب العقار قتلناه قبل أن تأتي أنت للبلاد أو العقار بأسبوع أو أكثر تقريبًا!..

لكنها تابعت بثبات بعد ذلك وقبل أن يصدر أي ردة فعل بعد أن نزل كلامها كالصاعقة، داهمه صداع وطنين في رأسه بقوة لا يقوى على شيء إلا أن يتابع صوتها يتغلغل لمسامعه وتزيد من جنونه:

– لكنك مثل أبيك قد تكون رأيت الشيطان "مفيستو"حقًا وربما قال لك أين الكتاب، وهذا أيضًا ما جعلنا نفعل ذلك بك، أنت الوحيد القادر على معرفة سر دفين لا يعرفه إلا والدك، لابد أنه ترك لك خيطًا ودليلًا، كثير من لم يصدقوا نبوءات عائلتنا العظيمة، لكننا خدمنا عشرين عامًا من أجل أننا نؤمن بذلك وأقسمنا على تنفيذه كما هو مذكور في الكتاب الأحمر!..

كان صاحب العقار هاربًا ومختبئًا لعقدين من الزمن، على الرغم من عجزه وعدم إخباره لأحد طوال هذه السنين لكننا وجدناه أخيرًا وعاقبناه ليكون قربانًا للمختار، لا تقلق إنها عقارات الهلوسة مع بعض الكوكايين الذي تعاطيته في العصائر والأكل وبعض العقاقير لجعلك تستفيق بعد تلك الغيبوبة التي جعلتاك فيها نائمًا معظم الوقت من سن السابعة!..

كنا نصنع وعيك كما نريد، الأدوية والعقاقير التي كنت تتناولها لسنين لتشويش ذاكرتك تحت عناية أرقي علوم الطب في عائلاتنا المجيدة حول العالم هي ما تجعلك تشعر بما تحس به الآن...

قال إنك ستكون المنتظر أبو الرسل الثلاثة القادمين، كما قيل في النبوءات القديمة الموجودة في الكتاب.

ما تمر له ليس مسًا أو جنونًا، لا تخف أو ترتعب، الشيطان مفيستو لا يؤذي من يحمل كتبه وعهوده؛ بل يحميهم من شرور أنفسهم!..

ستتخبط كالممسوس بعد دقائق قليلة، ومع دقات يوم جديد وسنة جديدة ستغفو لساعتين أو أكثر لترى بعينيك أبنائك الخمس الصغار قرابين تذبح للشيطان "مفيستو"لنعود من جديد؛ إنها ليلة الغفران والقربان أيها "المنتظر".

ضحكاتها جلجلت في المكان والمكبرات التي حوله ضخمتها أكثر مما جعل جسده ينتفض بقوة كبيرة ويرتعش ويرتجف بشدة محاولًا أن يقف على قدميه...

وعندما وقف كان كالمجاذيب يتلفت من حوله مع ارتفاع صوت الموسيقى، ودقات كأجراس الكنيسة والأنوار تنطفئ من خلفه وفوقه ويعم الظلام المكان إلا من ضوء خافت مسلط على مشهد ظهر وثبت على جميع الشاشات من حوله ولم يتغير، كانت له وهو نائم على أرض إحدى الشقق والعائلة جميعها من حوله وأمه تحمل رأس صاحب العقار تقف عند رأسه!

كان بعض من رآهم في طقس الابتهالات المجنون منذ قليل يلتفون في دائرة من حوله، والسيدة العجوز تنهض من كرسيها تحتضن أحد الشباب اليافعين ممن يحيطونه.

كان فاقدًا للوعي لا يستوعب ما يدور حوله، يفترش الأرضية طريحًا عليها لا يتحرك، كانت تشير إلى بعضهم ليحملوه وآخرين لإطفاء بعض النار التي أشعلوها وكانت ما زالت مشتعلة، كطاقم فني متخصص في تقنيات تصوير مشاهد الإثارة والرعب في فيلم عالي التكلفة!.

تحرك سريعًا نحو الباب وأصوات الموسيقى ترتفع وتزيد توتره وهو يترنح ويرتجف وتنتابه أكثر من حالة في لحظتها..

لا يعرف ما سيصيبه أو سيحدث له، كل ما يعرفه ويريده هو الخروج من هذا العقار...

أصوات تتابعه، لا يعلم كيف فتح الباب وهو يسمع آخر كلماتها المتقطعة تخبره بأنه المنتظر حامل الكتاب الأحمر...

بعدها أصبح في الخارج، ليصيبه الدوار والتشويش بغتة ويهبط مترنحًا يتعثر في الدرجات ويتخبط في الحائط حتى ابتعد عن الشقة التي عادت الأضواء داخلها لتسطع من جديد بقوة، والعائلة جميعها والأطفال صامتون ملتفون حول الأم في دائرة يشاهدون على الشاشات التي تملأ الحوائط وتعرض المنتظر يهبط والرجفة والمس بدأ يصيبه ليسقط ويقف عدة مرات، كل هذا على شاشة العرض التي تعرض لهم مباشرة من كل مكان في هذا العقار، بآلات

التصوير التي زرعوها، راقبوه حتى وصوله لباب شقته المفتوح، دخله منتفضًا، ظل واقفًا فيها للحظات ثم تحرك نحو غرفته..

كانت الكتب لا تزال مترامية على الأرض، ليسقط متشنجًا عليها يتخبط ويفرز غرغرة من فمه...

وصوت الأم يخترق آذان جميع أفراد العائلة التي كانت تأمرهم كملكة بما يجب فعله..

أخبرتهم أن عليهم جميعهم أن يذهبوا إلي شققهم ويرتاحوا قبل موعد ميلاد "المختار المجيد"وطقسه الأخير، فالمنتظر سيذهب في غيبوبة بعد قليل ولا ضرر منه.

صوت تحركهم امتثالًا لأمرها جعلها تنبههم أن عليهم من الغد أن يعودوا كدفعات كما هو متفق عليه، كما أتوا لهذه البلد من أسبوعين سابقين ليعودوا مرة أخرى للخارج تمهيدًا لعودتهم المجيدة واختتمت كلامهما والأنوار تخفت ببطء مع كل كلمة كانت تقولها عن كونهم باعوا جميع عقاراتهم وأراضيهم ولم يتبق لهم سوى قصرٍ وحيد وهذا العقار الذي سيشهد عودتهم القادمة مع المجيد رقم ستة وستين من العائلة العظيمة، حينها سترفع الشعارات وسيبدأ التمهيد "للعليم".

كانت الأنوار تتطفئ من داخل الشقة و"المنتظر"على الشاشة ما زال يتخبط ويتشنج ويتقوس على الأرض وعينيه من الداخل تتغير إلى اللون الأبيض، بينما يغادر الجميع الشقة بخطوات بطيئة وكقطع حجارة لا تنطق، نحو الخارج حتى لم يتبق سوى السائق والأم، ومع غلق

الباب وأصوات أقدامهم التي تهبط على السلالم ودقات الساعة التي تعلن عن الثانية عشرة، وبدء يوم جديد من السنة الثانية في الألفية الثالثة التي ستحمل الكثير للعائلة، وعند انطفاء الأنوار تمامًا ومع الأضواء المركزة على الشاشة التي بدأت تخفت ببطء لتعلن انسدال الستار على المسرح بعد انصراف المشاهدين من مكان العرض!..

كانت الأم تحتضن ابنها السائق ويقبلان بعضهما برغبة وشهوة قوية حتى أنهما لم يلاحظا مع انطفاء ما يعرض على الشاشات تدريجيًا أن "المنتظر"فتح عينيه للحظات قليلة، وقد كانت لونها حمراء بشكل كامل قبل أن يختفي من الشاشة تدريجيًا وتظلم الشقة تمامًا مع صوت القبلات المستمر والهواء البارد الذي يتخلل المكان في أول يوم للعام الثاني بعد الألفية الثالثة.

***

بقي "المنتظر"مغلقًا عينيه لفترة طويلة ودموع متقطعة تتسرب من بين جفونه المغلقة، لكن هذه المرة دون أي أحلام أو كوابيس أو رؤى شيطانية، حتى عندما فتح عينيه وغمرهما الضوء والدموع التي كانت تسيل على وجهه، الشيء الوحيد الذي تمناه هو أن يجد نفسه في تلك الشقة اللعينة؛ لكنه لم يكن هناك!

يتأمل كل ما حوله مقيدًا من يد وقدم واحدة إلى الكرسي بقيود حديدية، أمامه طاولة صغيرة متصلة بالكرسي الذي يجلس عليه متكئًا بساعديه عليها، وبينهما "مصحف"بينما يتوسل بنظراته إلى

رجل عجوز أشيب الشعر والشارب، يرتدي معطفًا طويلًا أبيض، كان مسترخيًا بجسده الممتلئ قليلًا جالسًا على طرف المكتب يتفحصه هو أيضًا بنظرات ضيق من مكانه الذي يبعد عنه أمتارًا قليلة، يحدثه دون أن يتحرك، وبصوت به بعض الحدة في حوارٍ من طرفٍ واحد تقريبًا، رغم أن المريض أمامه قد سمعه مرارًا طوال السنوات الماضية، ويعلم أنه سيتركه دون أن يقاطعه لذلك استرخي ببدنه الممتلئ أكثر وبهدوء وصوت عميق بدأ يحدثه:

لقد أعيد فتح التحقيق في القضية التي اتهمت فيها بالقتل العمد، وفي كل مرة تعيد هذه القصة الخيالية الطويلة جدًا والتي لا أرى دليلًا ماديًا واحدًا ليصدقها أحد، ومع ذلك أسمعك

رغم أني أحفظها جيدًا.

مرت عشر سنوات له في هذا المستشفى، وهذا الطبيب يتابع حالته، لكنه لا يحكي سوى تلك القصص والحكايات عن شيطان يدعى"مفيستو "وكتاب أحمر ونبوءات وثلاثة رسل وعائلة عظيمة!

تنهد الطبيب قليلًا وكأنه استنتج شيئًا من تلك الحكاية ثم قال:

– الشيطان يا بني لا يخدعنا ولا يؤذينا، ولكن يخدعنا من يقنعنا بذلك!

كانت نتيجة الأدلة الجنائية منذ عشر سنوات أنها جريمة قتل لأكثر من ثلاثين فردًا من العائلة ولن ينفع معها تلك الحكاية كدليلٍ لتبرئته، لكنه خضع طوال تلك السنوات لمراقبةٍ طبية وعلاجٍ عقليّ مكثف.

في البداية اعتقد الأطباء أنها حالة انفصام حادة، هستيريا ربما

أو حالات نادرة من الشيزوفرينيا، حاولوا لسنوات طويلة وأجروا عليه الكثير من التجارب لعلهم يرون بوادر مرض نفسي، على الأقل قد يكون ناتجًا عن الإدمان الشديد للمخدرات والعقاقير العضوية التي أُجبر على تناولها لسنوات قبل أن يصل إلى المستشفى؛ لكنهم لم يتوصلوا لشيء!

حتى احتمال فقدان الذاكرة لن يجدي نفعًا في تلك الجلسة مع اللجنة المختصة القادمة بعد قليل!

كان الطبيب لا يزال يتأمل الشاب الذي لم يتجاوز ثلاثين عامًا؛ رغم ما بدا عليه من الكبر وعلامات الضعف والهزال...

عشر سنوات وهو بين هذه الجدران، متهم بالجنون الذي أنقذه من حكم الإعدام، منتظرًا قرار اللجنة التي ستعطي حكمًا نهائيًا بعد أن ثبتت سلامته العقلية...

ضاق الأطباء ذرعًا بتلك الحكاية التي لم تقنعهم أبدًا، وهذا ما جعل الطبيب يصارحه بما لديه:

- إن قوتك العقلية جيدة وإدراكك سليم تمامًا، وتعي كل ما يدور حولك، صحيحٌ أنك في بداية وصولك كنت تعاني من مشكلاتٍ كثيرة ناتجة عن انسحاب أثر العقاقير، لكنك اليوم بأفضل حال، ومكوثك هنا بعد اليوم لا طائل منه، ولا يجدي نفعًا، إنما هو مماطلة في تنفيذ الإجراءات القانونية.

ذكره أن اللجنة الثلاثية عندما تصل ستقر بذلك وسترسله لتنفيذ

حكم الإعدام الذي كان صادرًا عليه بلا شك..

- هنا لا تؤخذ القضايا بالرؤى الشيطانية والروحانيات، بل بالملابسات والأدلة المادية التي تشير كلها عليك يا منتظر!..

صمت الطبيب مقوّسًا حاجبيه ومال برأسه متكئًا بأحد كفيه على ذقنه متأملًا ملامح المريض وردود أفعاله الجامدة التي لا تدل على حزنٍ وألمٍ عميق، من يراه يؤكد أنه إنسانٌ بريء لا يمكنه حتى قتل ذبابة، لكن بصماته، وأدوات الجريمة، حتى الصدفة تعاونت ضده يوم تنفيذ الجريمة، فقد وجد المحققون مقاطع مصورة لم تتعدّ دقيقة للقطات مختلفة أثناء تنفيذ الجرائم في أماكن متفرقة نجت منها بعض المواد الخام من داخل كاميرات التصوير المتفحمة التي كانت تملأ العقار المحترق كليًا، وكأن القدر قام بدوره وترك تلك اللقطات المجمعة الوحيدة التي لم تتلف ليصيبه في مقتل!

صمت خيم على المكان والطبيب العجوز ما زال يتأمل "منتظر" الذي أغرقته دموعه وهو شارد في الفراغ أمامه تناول الطبيب جواز سفر من جانبه يتفحص صفحاته ويتحدث بهدوء وهو لا يزال على يقين أن الشاب أمامه قد أُرهق من إعادة التحقيق طوال هذه السنين الماضية:

«منتظر مخلص البهنساوي كان هذا الاسم الموثق في جواز سفره، يحمل الجنسية المجرية، دخل البلاد منذ عشر سنوات لأول مرة في حياته، جواز يحمل عدة تأشيرات دخول لبلاد غربية وأوربية عديدة في سنوات متفرقة!

قضى منتظر أسبوعًا واحدًا فقط منذ عشر سنوات بالتمام والكمال قام بقتل جميع أفراد عائلته الذين أتوا لقضاء إجازة في البلاد بعد غياب سنوات طويلة لم تجتمع فيها العائلة، كما أشارت التحقيقات بعد الكشف عن تأشيرات جوازات سفرهم التي كانت تدل على أنهم يأتون كل عشر سنوات أو أكثر، ليس جميعهم بل بعض منهم وفي مواقيت وتواريخ مختلفة كل هذا تم معرفته في التحقيقات من مواقيت الوصول والمغادرة التي تدل على أنهم قضوا فترات قصيرة يدخلون ويرحلون سريعًا، وبعض التحقيقات أكدت أنهم من نسل عائلات كانوا من أصحاب الصناعات الكبرى في مجالات عدة وأزمنة مختلفة بعيدة قد تتخطى الفترة الملكية حتى أنهم يمتلكون بعض الأراضي والعقارات منذ زمن بعيد ويتوارثونها!

كانت عائلته مهاجرة من زمن بعيد، ولم يجتمعوا في بلدهم الأصلي إلا في الليلة الأخيرة من عام ٢٠٠١ التي تم إحراق العقار بالكامل وهم فيه.

أشاح الشاب بصره نحو الكتاب المقدس بين يديه، لم يلتفت للطبيب الذي ألقى الجواز على المكتب وتحدث له بنبرة استغراب:

- إن القدر والانتقام الإلهي لم يسعفك للهرب ومنعك من الفرار، فقد سقطت مغشيًا عليك من الدخان، كما وجدوك أمام شقة رقم ستة التي كانت تخصك، لقد وجدوا فيها بعضًا من ملابسك وأدوات وأسلحة مختلفة عليها دماء وبصماتك التي تملأ كل مكان بداخل

الشقة، كما وجدوا أيضًا المخدرات المبعثرة في كل مكان والكتب الموجودة عن عبادة الشيطان التي تملأ غرفتك، الغرفة الوحيدة التي لم تحترق هي والمكتبة وبعض قطع الأثاث المتفرقة التي نجت من الحريق في شقتك.

نهض الطبيب من استرخائه محاولًا كسر حاجز الملل الروتيني الذي كان يشعر به، أراد أن يقوم بواجبه للمرة الأخيرة رغم إدراكه أن الشاب يعلم كل ما قاله سابقًا لتكراره عليه منذ سنوات ولكنه عنيد ولا يعرف سوى تلك الحكاية التي يحكيها، فلا بأس من محاولةٍ أخيره لعله يكتشف ثغرة ما يستطيع من خلالها إنقاذه، لكن الغريب في الأمر أن في بعض تجاربهم خلال سنوات إقامته في المستشفى كانوا يجربون أجهزة كشف الكذب عليه في الخفاء، وكان فعلًا لا يتذكر شيئًا قبل الأيام الستة التي كان يحكي عنها، كان يفكر في ذلك عندما تناول ملفًا كبيرًا مكتظًا بأوراق وصور من جانبه ويتقدم نحو منتظر الذي كان لا يزال شاردًا صامتًا لا يتحدث والدموع تنهمر من عينيه بغزارة وصوت الطبيب يتحدث مقلبًا في صفحات الملف والصور الملحقة مع بعض الأوراق:

التحاليل قالت إنك مدمن مخدرات وعقاقير هلوسة حينها لذلك قتلت عائلتك في لحظة جنون ومن الممكن أن يكون السبب هو المال والإرث الوفير الذي تملكه العائلة.

توقف على مقربة منه بعد انتهاء جملته مطالعًا "منتظر"الذي كان

يهز رأسه يمينًا ويسارًا قبل أن تخرج منه أخيرًا كلمات قليلة متقطعة:

– أنا لم أقتل أحدًا، إن من فعل ذلك هو الشيطان "مفيستو" حامل الكتاب الأحمر وحافظ العهود.

دقائق قليلة جدًا مرت لم يصاحب سكون أجوائها أي حديث بينهما هذه المرة، بل كانت النظرات متبادلة من الطرفين وإن كانت في الخفاء!

فالشاب لا يزال غير قادر على إيقاف دموعه المنهمرة وهو يتأمل المصحف وبطرف عينه ينظر للطبيب الذي أصبح بجانبه يتفحص الملف وبطرف عينيه كانت نظراتهم تتلاقى بلهفة وحذر من سيكسر الصمت أولًا!

لم تستغرق حالة الانتظار كثيرًا قبل أن يلتفت الطبيب نحوه، ألقى على الطاولة أمامه بعض الصور للعائلة المقتولة، صورا توضح أيّ مذبحة اقترفت يداه، بعضهم مذبوح وبعضهم متفحم تمامًا وآخرين تم تقطيع أطرافهم وأجسادهم بمنشار كهربي كبير كان واضحا في إحدى الصور بجانب بعض القطع البشرية والرءوس!

أعادت له تلك الصور المفزعة ذاكرة ينكرها، كل التحقيقات والأدلة تصر أنه هو من فعلها، فقد قام بتقطيع جثث العشرات وتسريب الغاز من الاسطوانات الغازية في الشقق، وبعض الغازات السامة والمخدرة من فتحات التهوية المركزية الرئيسية المتصلة بجميع الشقق.

كانت مجزرة لا يمكن أن تكون آدمية، وجدوا من بين الجثث أيضًا صاحب الأرض صديق والده مذبوحًا، وحتى التصاميم السرية وجدوها في غرفته التي كانت بها سراديب سرية لا يعلمها سوى والده وصاحب العقار.

زاد توتر الشاب وعلا صوت بكائه، والصور من حوله وعيناه تتأملهم بارتباك وحسرة لينتفض جسده قليلًا عندما وضع الطبيب يده على كتفيه المرتجفين نتيجة بكائه الشديد، مدركًا أن تلك الذكرى تؤلمه رغم وحشيته في تنفيذها.

بعد أقل من ساعتين من منتصف الليل ليلتها كان قد فعلها لم يره أحدٌ من خلال كاميرات المراقبة معتقدين أنه ذاهبٌ في غيبوبة معتادة، لا يعرفون أيّ كيانٍ ذلك الذي نهض في داخله ومن أي جحيم قادم ليفعل كل تلك الجرائم دفعة واحدة، ساعده في ذلك أن بعضهم كان يغط في سبات عميق ومنهم من أصابه الإغماء جراء ما يستنشقونه من هواء مسموم، وغازات قام بتسريبها، بدأ بالصعود شقة تلو الأخرى، يذبح كل من يراه أمامه بلا تردد أو خوف، لم يقاومه أحد بفعل الخدر الذي سرى في أجسادهم، لم يفرق بين رجلٍ أو امرأة، بين كبيرٍ أو صغير، تلذذ كثيرًا في قتلهم واحدًا تلو الآخر، لكن نشوته الكبرى كانت حين وصل إلى والدته التي كانت تنام عارية بجوار ذلك الشاب الذي يقال أنه أخوه "الناجي" طعنه مباشرة في قلبه، دون أن تبدو منه أي ردة فعل، لكن تلك المرأة فتحت عينيها

رغم الخدر، ميّزت وجه ابنها المنتظر، الذي بدا في تلك اللحظة أكثر شبهًا بأبيه، وقبل أن يهوي بسكينه نحو صدرها، فتحت عينيها باتساعٍ مفزع وصرخت "مفيستووو"وبنفس اللحظة غرس السكين عميقًا، وشقّ صدرها مخرجًا قلبها من جوفها صارخًا بكل قوة قبل أن ينهار تمامًا...

أمسك ولاعة كانت بالقرب من ناجي، وذهب بالقرب من باب الشقة رقم ٦، أشعلها وألقاها لتسقط ويشتعل الهواء المشبع بالغازات، ويغيب عن الوعي قبل أن تحترق البناية تمامًا...

كان للتحقيقات تبرير مقنع على أنه فعل ذلك بوعيه، كما أخبره الطبيب:

– ما فعلته يدل على تخطيط مسبق ليس وليد لحظة أو مصادفة ليس كما تبرر لنفسك أن الشيطان تلبسك وقام بفعل ذلك!

ازداد نحيب الشاب وارتجاف كتفيه، طأطأ رأسه ليلامس الكتاب المقدس، وتحدث وكأنه يتحدث لنفسه لكن بصوت مرتجف يملأه الحسرة:

– إنهم يحاسبونني على ستة أيام استيقظت فيها لأجد نفسي في هذا العالم وعلي أن أعلم من أكون وأتعلم!..

مع ازدياد بكائه، كان الطبيب قد تحرك بخطوات ثابتة وثقيلة وأصبح أمامه يلملم الصور المبعثرة من حوله ويعيدها إلى الملف وهو يتابع صوت الشاب الذي خرج ولكن رأسه ما زالت مرتمية على الكتاب المقدس وكلماته التي يصاحبها البكاء الشديد:

ـ عشر سنوات وجدت فيها نفسي، تعلمت الكثير ووجدت الحق والنور، إنني حقًا أعتبر أن عمري عشر سنوات وست ليال الآن..

فعلوا بي كل ذلك من أجل الكتاب الذي كان أمامهم منذ زمن، لم تسعفهم بصيرتهم لإيجاده، حتى الشيطان "مفيستو "كان أمامه الكتاب والحل ولم يعلم عنه شيئًا!..

هنا قاطعه الطبيب سريعًا بعد أن أغلق الملف وإن ظل ممسكًا به بإحدى يديه متأملًا الشاب الذي توقف صوت كلماته دون أن يتوقف بكاؤه:

"منتظر "لن أكلمك بلهجة محقق أو طبيب، وسأتغاضى عن العلم ونظرياته وفرضياته، رغم أنك تحاول أن تخلق منذ سنوات في عقولنا أنك مريض بالوهم، الوهم المفيستي.. لكن صدقني لن يفيدك هذا في أحكام جنائية ولا يعتد به والإصابة به نادرة الحدوث وتشخيصها يقارب الجنون بأنواعه وأنت عقلك سليم مئة في المائة!..

صمت لبرهة واقترب من رأس الشاب التي ما زالت فوق الكتاب القرآني، وبصوت هامس تابع كلامه:

– إن من الصدف أيضًا أن من جعل للوهم تعريفًا قد وضع له ثلاث قواعد.. عجيبة صدف رقم ثلاثة والأرقام هذه معك يا منتظر!

هدأ الشاب تدريجيًا، وخفت صوت نحيبه، وحواسه تركز أكثر مع همس الطبيب الذي يتابع حديثه:

– إن اليقين الراسخ في اعتقاد مطلق؛ هو أول قواعد الوهم!..

وسوء الفهم غير القابل للتصحيح قاعدته الثانية، والقاعدة الأخيرة أن تؤمن داخليا باستحالة زيف المعتقد الذي تعتقد أنك خُلقت من أجله!..

بدأ "منتظر" يرفع رأسه للأعلى قليلًا ببطء، كان يتأمل الطبيب الذي اخترقته نظراته متأملًا عينيه الحمراوين من أثر البكاء وجبينه الأحمر في أجزاء منه جراء وضعه على الكتاب المقدس مدة طويلة، وقبل أن يتفوه بشيء أكمل الطبيب كلامه وإن تغيرت نبرته من الهمس إلى بعض الجدية التي بها القليل من الحدة وهو يخبره أنه سيحدثه بعيدًا عن العلم والتحقيقات، سيخاطبه كابن له، ربت على كتفه بحنان ليؤمن له ويجيبه على تساؤلاته:

– دعنا نفترض، بل فلنقل بأني أصدقك، أصدق كل ما قلته، ولا تنسَ أننا نؤمن بالعقيدة ذاتها، فبحق هذا الكتاب الذي أمامك، لا تتعبني...

صمت قليلًا ليرى تأثير كلماته على الشاب، وأكمل بنبرة لا تخلو من الجدية:

– أنا لدي اهتمام بالماورائيات وعلومها، وربما أقتنع بوجود شيطان يدعى مفيستو، وذلك الكتاب الأحمر.

قطع الطبيب حديثه قليلًا بعد أن رأى تفاعل الشاب معه وقد بدأ ينظر إليه باهتمام أكثر، مما جعله يكمل بنفس صوته الهادئ الحازم حتى لا يقاطعه:

"منتظر" إن كان كلامك صحيحًا، وأنت ابن تجربة مجنونة، لعائلة مجرمة، فلماذا كان الشيطان يخدعك إذن؟!..

لقد كان يخبرك أنهم أرواح وأموات، أكان يخبرك عن مصيرك؟ يُسيرك في اختياراتك، يريك المستقبل والغيب عن قتلك لعائلتك، ماذا كان يريد؟!..

الكتاب الأحمر الذي كان يخبئه والدك لا وجود له ولم يجدوا شيئًا في غرفتك أو العقار يثبت النبوءات أو التوقيعات وكل هذا الخرف الذي تتوهم به عن الكتاب الأحمر، ألم تقل أنه عقد متجدد لكل عقدٍ من الزمن؟ وأعتقد أن الوقت قد حان لتجديده، فهل سيظهر الكتاب أم سيبقى مجرد وهم.. أثبت لي وقل لي أين هو، أعطني دليلًا فقط...

قال عباراته الأخيرة بنبرة تدل على نفاد صبره، ثم هدأت نبرته قليلًا يتفحص الشاب الذي كان يمسح دموعه بيده الحرة من القيد، تابع الطبيب كلامه دون أن يشيح ببصره عنه:

– إن الإنسان لن يستطيع أن يكون شيطانًا أو ملاكًا؛ فكلا الأمرين مرهقان له ولهم، عليه أن يكون إنسانًا فقط، دون ادعاء أو تزييف، فالخير لا يزال فيه وإن كان الشر قد غلبه سابقًا.

بدأ الشاب بالبكاء مجددًا، ثم فجأة تجمدت نظراته وقال بصوت بدا قويًا واثقًا رغم غلبة البكاء:

– قالوا إن تتبع خطى الشيطان يفسد الإيمان، لكن في الحقيقة هو يفسد كل من لا يؤمن بوجوده!

هدأ قليلًا وبثبات ألقى نظرة على المصحف الذي أمامه، بينما

وقف الطبيب متأملًا حائرًا، كأنه عاجز عن الكلام، حتى استجمع بضع كلمات وهو يتحرك ويميل نحو أذن الشاب

واضعًا يده على منكبيه هامسًا:

– لا وجود للكتاب يا منتظر كيف يخبرك الشيطان عن

الغيب وما ستفعله بعائلتك، ولا يعرف مكان كتاب خبأه والدك؟! الوهم الذي تريد خلقه في حالتك ينقصه تلك الثغرة، لا سيما أنك اهتديت للإيمان في فترة مكوثك هنا...

صمت مرة أخرى، اعتدل وسار بجانبه متابعًا بهدوء:

– لقد حاولنا مساعدتك كثيرًا ولكنك لا تزال مستمرًا في حكايتك منذ سنوات دون تغيير، رغم قوة الوعي والإدراك التي تتمتع بها...

توقف قليلًا متنقلًا ببصره بين الساعة على أحد جوانب الحائط التي قاربت عقاربها على السادسة صباحًا، والصورة الصغيرة المعلقة أسفل ساعة الحائط، وبين الشاب الذي كان في نوبة بكاء شديد ونحيب...

وبعد نفاد صبر همّ الطبيب ليعود لمكتبه، لكن خرجت كلمات الشاب غاضبة صارخة متلعثمة ككلمات تقال قبل الانهيار أو لحظات اليأس والموت!.

إنه لا يعلم الغيب، ضعيف مثل تلك العائلة، لقد كان الكتاب أمامهم جميعًا من قبل قدومي...

استرعت تلك الكلمات انتباه الطبيب الذي كان في طريقه للخروج،

ليعود خطوة للوراء مضيّقًا عينيه، دون أن يلتفت ويواجه عينيّ الشاب الذي استمر في حديثه:

– لن يتوقع أحد أين وضعه، بل إن ظلام نفوسهم لن يهديهم إليه، فهو أعلى من أن ينالوه...

إن أبي استطاع في الحقيقة تحدي الوحش وهزيمته، وأن يصل للمرحلة السابعة، لكنه خسر روحه بسبب نفوس العائلة الضعيفة.

كان انهيارًا أخيرًا للشاب وهو يسقط برأسه على الكتاب المقدس برأسه مغمضًا عينيه في نوبة بكاء ونحيب شديدة جدًا حتى أنه لم يلحظ تلك اللمعة التي ظهرت في عيني الطبيب، ولم يلحظ تلك النظرة الممزوجة بنشوة الانتصار لاكتشافه أمرًا ما، ولم يشعر بالطبيب عندما اتجه نحوه منحنيًا ليفك قيوده، وصدى صوت بكائه وانهياره كان شديدًا يغطي على كل شيء في غرفة المستشفى...

كانت نوبة بكاء متشنجة يخالطها اليأس والمرارة والجنون، حالة لم تجتاحه منذ فترة كبيرة..

لم تخرجه خطوات الطبيب المتجهة لباب الغرفة من نوبته،

ولم يشعر باهتزاز الأضواء التي ينظر لها الطبيب وهو يفتح الباب ويشق صوته الهواء بعد أن أطلّ برأسه فقط من شق باب الغرفة ليخبره أنه من الموت قد تولد حياة

– هناك ناجٍ واحد ـ مولود صغير ـ خرج من رحم امرأة ميتة يوم المجزرة.

وقبل أن يغلق الباب أخبره أن هناك عائلة من أقارب عائلته في بلاد غربية أخذوا الطفل للخارج، ورفضوا استلام المنتظر وتركوه ليحاكم هنا وينال جزاءه.

كانت الأضواء لا تزال ترتعش وصوت نحيبه وبكائه توقف فجأة مع صوت انغلاق الباب الشديد وصوت خطوات الطبيب يتحرك في الخارج...

عدل من وضعه والدموع تغرقه وأنفه يسيل بغزارة، فتح عينيه مذهولًا مصدومًا وجسده كله يرتجف بقوة متأملًا الأضواء التي ترتعش بشدة من حوله...

لا يدري لماذا اتجهت عيناه نحو صورة على أحد جوانب الحائط تحت الساعة التي تشير إلى السادسة صباحًا..

وقع بصره عليها، كانت مزينة بكلمات مقدسة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾

رغم دوي الصرخات بصوت متكرر وقوي والتي كانت تكرر كلمة واحد وسط حالة الهياج التي اجتاحته"مفيستووووو»..

وعلى الرغم من كل هذا استمرت خطوات الطبيب الرتيبة بوقعها الثقيل حتى أصبح على بعد أمتار في نهاية الممر الذي يحيطه الظلام القاتم مغطيًا على شكله ولون ملابسه كأنه أصبح ظلًا متشكًا بالسواد قبل أن يقطع نهاية الممر المؤدي إلى مكتب الاستقبال أمامه على أمتار قليلة من بوابة الدخول للمستشفى النفسي الذي يرى

موظفيه خارج وداخل غرفهم المليئة بالأجهزة الحديثة والشاشات التي تعرض كل من يأتي ويذهب وتراقب كل ما يدور في ممرات المبنى التي تمتلئ جدرانه بكاميرات المراقبة!..

كان صوت أحد الموظفين يشير ناحية إحدى الشاشات متحدثًا لممرضين ممتلئي الجسد تبدو عليهما البلادة، لم يباليا بما يقوله "الموظف "وفي الحقيقة لم يصل لمسامعهما شيء؛ فأحدهما كان يعرض للآخر مشهدًا ما على هاتفه، وهما متقاربان برأسيهما، يتهامسان ويضحكان حتى أنهما لم ينتبها لموظف الأمن الذي كان يكرر ما يقوله بأنهما قد نسيا أن يقيديا هذا المجنون صاحب حكاية الشيطان "مفيستو"، وأن الطبيب لم يأتِ بعد وأعضاء اللجنة تأخروا كثيرًا!..

لم يوقف ضحكاتهما وهمسهما ارتعاش الأنوار المتكرر فوقهما لكن ما جعلهما ينتبهان من مكانيهما معتدلين خطوات الطبيب التي اجتازت بوابة المستشفى ومن خلفه ثلاثة أطباء آخرون تختلف أعمارهم ويحيطهم بعض من أفراد الأمن وصوت الطبيب العجوز يسأل مساعديه الواقفين من خلف مكتب الاستقبال عن سبب إخراجهم للمريض ووضعه في حجرة جلسات التحقيق، وقبل أن يتلقى ردًا ويصير أمامهم كان قد أتبع كلماته باعتذار عن التأخر بسبب وقوع حادث سير في الطريق؛ أصاب الحركة بشلل لوقت طويل!..

وقبل أن يخرج من مساعدي الطبيب أي صوت كان موظف الاستقبال يشهق ويشير ناحية الشاشات صارخًا:

إن المريض يحطم محتويات الغرفة، وفي حالة هياج شديد...

وقبل أن يكمل كلماته كان بعضهم يلتفت للشاشات بجانب الموظف يشاهدون صدق قوله والبعض يهرول ويركض في الممرات ومنهم الطبيب العجوز وهو يسب بصوت خافت مساعديه لغبائهم الشديد.

وفي وسط كل هذا الهرج والمرج كانت تدوي صدى ضحكات في المبنى لم يسمعها أحد ممن كانوا هناك إلا "منتظر" ضحكات تصدح بترددات وموجات صوتية لا تصل إلى آذان البشر، مصدرها يأتي من مكان يبعد عن مبنى المستشفى بعدة كيلومترات قليلة لكن صداها كان يصل إليه، بعض القطط انتفضت وتقوس ظهرها في وضع الهجوم، بعض الكلاب نبحت بشدة، وهناك الطيور التي رفرفت بأجنحتها بين الأشجار التي كانت في الخارج في المسافة بين المستشفى والعقار المحترق كليًا من الخارج، أنواره في الداخل صفراء باهتة تتطفئ تدريجيًا بدءا من الدور الأول وصولًا للدور السادس حيث ترتعش كثيرًا، وباب الشقة رقم ستة مفتوح.

وسط الظلام كان هناك ظل أسود يحمل عصا تلمع من رأسها المعدني المنقوش على شكل رأس حية مطلية بالفضة اللامعة أمام مكتبة قديمة محترقة من أطرافها قليلًا، مترية بكل محتوياتها وتقبع في منتصف الردهة على أحد جوانب الشقة، لم يحتج الظل الأسود لنور ليلتقط كتابًا محددًا وسط الكتب الممتلئة بها المكتبة، ككائن يعيش في الظلام، يرى ويتعايش وقد يتخبط ويغشى بصره إن أنير

شعاع نور أمام عينيه، وقف لدقائق يمسح الأتربة من على الكتاب، يفتحه ويبتسم نصف ابتسامة حين رأى عنوانه المقدس الذي لم يتخيل أنه ذات يوم سيلمسه، كان يبدو من تلك الأتربة عليه أنه لم يلمس منذ زمن بعيد، ظل يقلب في صفحاته لفترة ويتحسس الورق جيدًا ليجده قد صنع في هذه النسخة خصيصًا كغلاف يحوي داخله ورقًا آخر وكتابًا آخر بين صفحاته..

إنه هو الكتاب الأحمر وقد خبئ بدهاء واحترافية تدل على تخطيط وتفكير شيطاني وليس بشريًا، داخل كتابٍ آخر فلن يخطر ببال أحد أن يمسك هذا المصحف!

كان الظل ينتزع الكتاب الأحمر المطبوع عليه بحروف لاتينية مذهبة كلمة "مفيستو" بخط يلمع في الظلام ممزقًا ذلك الكتاب المقدس ويخرج بعصبية شديدة متحركًا سريعًا بظله الذي يظهر على الأرضية نحو الخارج...

وعند وصوله إلى باب الشقة انطفأ النور داخل العقار تمامًا مع صوت غلق باب الشقة رقم ستة بقوة يرج صداها داخل العقار المظلم والمحترق، وصوت همهمة غريبة بلغة لا يعرفها إلا من كان ظله مثل ظل حامل الكتاب الأحمر!.

"اللعبة لم تنتهِ بعد، ولا تزال مستمرة بيننا"

ملحوظة

أتعهّدُ أنا .....

وأنا بكامل قوّتي وصِحّتي، بقبولي لِشروطِ هذا العَهد، وبموجبه وَهبتُ كلّ ما أملك من روح وجَسدٍ وإيمان لسيّدي ومولايَ ربّ الضّياء والعلم والقوّة...

حامل مِصباحَ المجدِ وإله الدّنيا والشّهرَة والنفوذِ والمالِ والمُتعة...

إنّني أتعهّدُ بالإخلاصِ والانتماء والإذعانِ لأوامره ونواهيه، كما أنّني أهبه ذُرّيّتي وما يتعاقبُ عليها من أجيالٍ لخدمته وطاعته وتنفيذِ أوامره وتأكيدِ عزّته، وبحضورِ المعظّم النّبيل، حامل كتابه المصونِ المبجّل؛ مفيستو فيليس، وأمامَه أمهرُ توقيعي وقَبولي بشروطِ العهدِ المُقدّس

المتعهد

.....

بورصة الأدب